HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

ULLAH KHALIFA

رواية
NOVEL

عبد الله خليفة

عمر بن الخطّاب شهيدا

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

ULLAH KHALIFA

رواية
NOVEL

عبد الله خليفة

عمر بن الخطّاب شهيدا

عمر بن الخطاب شهيدا

عبدالله خليفة

الفصل الأول

دُفن الخليفة، الحاكم الصديق الحبيب، وبقيتَ أنتَ تـُمسك الجمر٠

هذه بلادٌ متخنةٌ بالجراح، فقيرةٌ، معوزةٌ، تتدثرُ بالشمس المحرقة، وترقدُ على التراب، وجيوشـُها الضئيلةُ تخرجُ من بين ضلوعها اليابسة المتصلبة نحو الآفاق البعيدة الخطرة!

تقلبْ! فلن تجدَ عيناك طريقًا نحو النوم، وهي ترقدُ على جمرٍ، وتسخنُ الرمضاءُ جفونها٠٠

أي فخٍ هائل هذا الذي يطبقُ على ضلوعك الآن، حشودٌ هائلة من الفقراء، ومصابون ومقتولون كثارٌ من حربِ الإخوة، وقبائلٌ ضاريةٌ في أرضٍ مجدبةٍ، وآفاقٌ لا تـُحدُ من الأحلامِ وراء هذه البراري، هناك حيث تتدفقُ الأنهارُ ويمسك المرءُ السحابَ وهو فوق الجبل ويعصرهُ للكروم والتفاح!

تقلبْ وأنت تفكرُ في كيف تحول هذه الحشودَ إلى حرابٍ، قد تتغلغلُ في لحمِ بشرٍ مساكين، أو توزع الثمرَ على الجياع٠٠

تقلبْ وأنت تفكرُ بهؤلاءِ الناس الكارهين لصعودك على كرسي الخلافة، ويقولون كيف نستقبلُ الآن هذا الرجلَ الشديد الغيظ بعد الإنسان الرقيق العادل!

ويحك يا عمر، أن تعجز وتخاف من هؤلاء وتوافق على أخطائهم وشرورهم، أو تظلمهم دون وجهِ حق!

تقلبْ على الجمر والوقتِ، دون أن يطلعَ الصبحُ وترفض الشمسُ الصعودَ!

صحراءُ فقيرةٌ مليئةٌ بالرملِ والقمل والنار وفيها بضعُ جبال وعليك أن تملأها بالخير، وكلُ حبةِ قمحٍ معدودة، وكلُ ثمرةٍ من النخيلِ محسوبة، لا أن تملأ بطنك وتترك الناس جياعًا!

تقلبْ٠٠!

وهؤلاء الفرسُ العظامُ الأقوياء، كم اندفعوا كالسيولِ الجارفة وسط الصحارى العربية محولين الخيام والبشر إلى ركام وبقايا ورماد، يبنون القصورَ والقلاعَ على الرؤوس العربية، ويحولون مسارَ الأنهار نحو قصورهم وخزائنهم، وهذه الصحراءُ جائعةٌ لأنهارها، وفي كلِ بضع سنين مجاعة تزيلُ غابات الخيام في لحظات، وكل بضع سنين تمضي القوافلُ إلى الشمال ذائبةً في الرمال والأنصال والمستنقعات الدموية، وفي كلِ بضعِ سنين تملأ جبالُ الرملِ الحدائقَ والروافد٠٠ وسيوفُ الرومِ تصنعُ سياجًا طويلاً يمنعُ تسللَ قبيلةٍ أو زهرة٠٠

تقلبْ فأمامك مهام جسام، لا تستطيع أن تقوم بها يا ابن الخطاب، وذكرياتُ لسعاتِ سوطِ أبيك لا تزال تؤرقك٠٠!

(تعال أيها الصبح، تعالي أيتها المهام، أنا لكِ!)٠

وينبته وإذا هو أغفى ثم أشرق شيءٌ من الضوء، وإذا الوضوءُ والصلاة، والحشودُ تتدافعُ نحو المسجد، وأيديها ثقيلةٌ له، وسلاماتها جافةٌ، باردةٌ، وكأنهم يعزونهُ بموتِ صديقه أكثر مما يهنئونه بتوليه الحكم٠٠

راح يخطبُ بإيجاز مادحًا أبي بكر، وإذا ابنته عائشة ترسلُ آخر ما لديه من أموالٍ لبيتِ المال: خادم، وقطع قماش، وبضع دراهم٠٠

وحدق في الأشياء المادية القليلة برعبٍ ؛ ذلك الرجل الذي ملك الجزيرةَ والمدن والصحارى يتركُ هذه الأشياءَ الهزيلة، متخليًا عن كل شيء، خارجًا مغتسلاً من وسخ الدنيا·· كيف يستطيع أن يجاريه؟! إنه لا يتركهُ مقدمًا له الدروسَ وهو حيٌ وكذلك وهو من بين التراب! أهناك موتٌ حقيقي كامل كما يزعمون؟!

لم تستطع عيونه أن تتغلب على الماءِ الساخنِ المتفجر من بين ينابيعها الحرة القاسية!

تصاعدت غمغمةُ الرجالِ وهو يتذكرُ ما لدى أبي بكر، وهو يتحسسُ القماشَ، ويمعنُ بالدراهم نظرًا!

انتبه إلى أنه لم يعد صديقًا فقط لأبي بكر بل حاكمًا مسئولاً!

سمع رجلاً يقول:

- أو ما تترك هذه الأشياء الضئيلة لبيت أبي بكر؟!

لم ينظرْ للرجل لكنه قال بصرامة لخادمه أسلم:

- خذها لبيت المال!

الغمغمةُ تتصاعد:

- سيكون عمر شديدًا صعبًا علينا يا مسلمين!

- وهل يعرف عمرُ التسامحَ أو الرقةَ أو تناسي الهفوات الصغيرة والأموال الصغيرة!

- إنها أيامٌ صعبة ولا شك!

ليقولوا ما يقولون وليتثاقلوا عن مصافحتهِ وتأييدهِ، ولكنهُ مشغولٌ بالأمورِ العظام، طرقُ فارس تحترقُ بالأسربة أمامَ عينيه، وخالد بن الوليد المغامر المنفوش الريش ينتقلُ من انتصارٍ إلى انتصار، والعرب نقاطٌ من الخيام والإبل الضائع في الصحارى!

قال بهدوءٍ وهو يعتلي المنبر:

- أريدكم أن تكونوا عونًا لي في كلِ شيء، في الخطأ تعينونني على تجنبه، وعلى المكارم والعدل تحثونني عليهما، فأنا ضعيفٌ بدونكم، إذا ظَلمتُ أحدًا فثوروا عليّ·· لست بخيركم·· وهذا العراقُ يسألُ عنكم، لكم إخوة وأخوات هناك يعيشون مرَ الحياةِ، ولكم إخوةٌ يندفعون بخيولهم وسيوفهم ليحرروهم من هذا الأسر الطويل، فمن منكم يساعدني وينضم لهذه الحملة·· من؟ لا أرى أي أيدٍ ترتفع!

يمشي في الخلاء وحيدًا. عيناه تحدقان في الشرق، حيث توارت الجيوشُ، وحيث مضى أغلبُ الرجال وخلفوا الوحشةَ والصمتَ والهجسَ، يهمسُ في نفسهِ: (هل سيعودون؟ ماذا لو اختفوا هناك وذابوا بين المياهِ الجياشةِ والتلال والمدنِ المتقنفذة بالخناجر والسيوف؟ يقولون أهلكهم عمر! يكون الحسابُ عسيرًا في ضفتي الزمن. ماذا فعلتَ بالناس يا عمر وقذفتَ بهم في لججِ النار؟ هل صمتوا وسكنوا لأن خالد بن الوليد ليس معهم؟ هكذا يقول الناس! أبو بكر رحمه الله أرسل خالدًا إلى الشام فصمت الجيشُ في العراق وكأن خالدًا هو الذي يحركُ كلَ شيء!).

ليس سوى الرمل يمتدُ لامباليًا بجوفهِ المشتعل.

ويمضي في الكلامِ الساخن مع نفسه:

(ولكن خالدًا أثبت أنه فعلاً قائد فذ، وها هو يحقق في أجنادين نصرًا ويصفع الرومَ صفعةً شديدة بينما أنت هنا تمشي فوق الرمال! هيا كفَّ يا عمر عن هذا الحسدِ لابن عمك، أصعدْ عن هذه المشاحنات.. لا والله! لم أحسدهُ أبدًا على عملٍ نبيل يقومُ به، بل لهذه الخيلاء التي فيه، وهذا الغياب للأخلاق المثلى ولهذا الحب للصغائر والعلو الشخصي.. يا ليته ألغى هذه التفاهات من نفسه الكبيرة!.. أنت تحسدهُ يا عمر على انتصاراته الحربية الفذة.. كنتَ تراه في أُحد يتقدم شجاعًا قويًا يضرب المسلمين وأنت تهرب.. آه.. يا لها من حادثة، لكن هو كان في موقع الشرك لا في موقع النبل! وكانت كل انتصاراته الكبيرة الفذة للأسف ملطخة بصغائر ما كان أجمله لو ارتفع عنها! أأنا أريدُ له الصغر حاشا الله! أنا أحبه وهو لا يحب نفسه!)...

لكن خالدًا الموجود في الشام على جيش وربما على الجيوش الإسلامية كلها هو المذكور كالعادة وجبهة الشام اشتعلت وجبهة العراق انطفأت.. تعرفهُ منذ الصغر فهو ذكي وماهر ولكنه أناني.. لا يملك مسحةً من أخلاق رفيعة، والجمهورُ لا يرى ما هو واضح جلي، كل انتصار يرفعه أكثر فأكثر فوق الرؤوس والقيم!

(لكي أجعلهم يؤمنون أنهم هم وقود هذه المعارك وأسباب انتصاراتها لا بد أن أحركَ هذا الأفقَ العراقيَّ الصامت، الذي نامَ بعد ذهاب خالد بن الوليد! وكل يومٍ يأتي من الشام خبرٌ مجلّلٌ! ماذا ستفعل يا عمر هل ستترك مثل هذا المغرور يصعد ويتحكم في الناس؟ لكنني لو عزلته منذ الآن لقالوا تجنى عليه. هؤلاء الناس لا يدركون ماذا سيجري لهم غدًا؟ لو جاء على رأسِ جيشٍ وغزا المدينة من سيرده؟ اسمه صار جيشًا لوحده! أي مسائل شائكة عليك أن تحلها يا ابن الخطاب!، وجمهرةُ الرجالِ في المدينة مسترخية!).

يحدقُ فيهم بالمسجد وهم رؤوسٌ هادئة وادعة تفكر بخبزها وأطفالها وتعود راضية بلقمتها البسيطة أو بغنائمها الجديدة، وهو يصرخ بهم:

- أقول لكم إنهضوا لقتال الفرس ومساعدة إخوانكم المحاصرين بجحافل الجيوش وأنتم تدورون بأعينكم عني خجلاً أم خوفًا أم طمعًا في هذه العيشة الهائنة التي رضيتم بها؟!

يصمتون ويعودون إلى دورهم وهو يمضي في الطرق. هذا رجلٌ أثقل راحلته بالأشياء فيصرخ به:

- خففْ عن الجمل يا هذا؟ ألا تراه يغوصُ في التراب؟!

- حسنٌ، حسنٌ يا أمير المؤمنين!
يتقدم منه شحاذٌ ملأ كيسه بالأكل:
- حسنة لله يا عمر، فقير إلى مال الله يا أمير المؤمنين!
يأخذُ كيسَه الممتلئ ويبعثرُ الأكلَ الذي فيه، للطير، ويقول:
- الآن تستطيع أن تشحذ!
صارت الأسواقُ ممتلئةً بالبضائع وثمة حشود لا تشبع من شراء القماش واللحم والدقيق وكأن الأكل سوف ينفد. ما بالهم يتهالكون على اللذاتِ والخيرات؟ لا بد أن ثمة أسبابًا عميقة؟ من بقي على حاله؟! قلة قليلة!
يرى ثلةً من الفرسان قادمةً من طريق العراق، وهي تخبُ خببًا، ولا تدل حركتها على نصر أو هزيمة، تقتربُ منه، فيعرفهُ قائدهم الذي يترجلُ فيكتوي قلبه:
- أهذا أنت أيها المثنى الشيباني، لم تأت بك انتصاراتٌ!
تقدم المثنى بهدوءٍ وقال:
- يا أمير المؤمنين أخباري لا تسر الخاطر. لقد حوصرنا من قبل الفرس وانتفض علينا الناس، فتركنا ما فتحناه!
- تعالْ استرح ولنفكر بعد ذلك ماذا نفعل..
قادهم إلى بيتٍ خال. وتركهم يستريحون، فيما كان هو يغلي ماشيًا..
يمضي إلى مرتفع، يرى نارًا فيدهش، من يعيش هناك؟ يصعد فإذا خيمة وثمة أشباحٌ غريبةٌ. يقترب فيرى امرأة تطبخ والدخان يتدفق من تحت القدر، وصياحٌ يعلو من الخيمة. يقفُ غير بعيد، لا يريد أن يزعجَ المرأةَ في طبخها، لكن الصراخ لا ينقطع، والمرأةُ مستمرةٌ في هذا الطبخ المتعب، والأكلُ لا ينضج، والصراخُ راح يدوي في روحهِ، وكأن الأطفالَ راحوا يمزقون جلدَهُ بأظافرهم، اندفعَ إلى المرأة محييًا، ثم قال:
- ما بال هذا الصراخ يا امرأة لا ينقطع؟ ألا تطعمينهم ليناموا!
تطلعت فيه المرأةُ بلا اهتمام وقالت:
- كيف جئت إليَّ يا هذا؟ و لماذا تقحمُ نفسك في شأني!
- إنني لا أستطيع أن أسمع بكاء الأطفال دون أن أتدخل!
- لو كان الخليفة مثلك!
- وما دخل الخليفة في هذا الشأن؟
- إنه ولي أمر المسلمين ويتركنا في هذا الجوع والبرد!
- إنه لا يدري!!
- ولماذا صار خليفةً إذن؟!
- سوف أحضرُ لك شيئًا للأكل..
ونزل وكأنه يتدحرج، قذفتْ به الأسئلةُ خطوات إلى الأمام دون أن يتبين موقعه: (كيف أستطيع أن أعرف شؤون كل هؤلاء الناس؟ من يموت جوعًا الآن في اليمن؟ من يُضربُ عسفًا في عُمان؟ كيف لي أن أحيطَ بكل هذا الألمِ والفقرِ والعذاب؟ هل أكون وحدي لأنقذ كل هؤلاء الناس؟ هذه امرأةٌ على مرمى حجرٍ من بيتي ولكن أطفالها يصرخون من الجوع؟! هل صُمت آذانك يا عمر أم

انقطع نظرك! كلُ حادثةٍ لا بد أن تغذي حسك واهتمامك وتجعل لك ألف عين وألف أذن فتصيخُ لكلِ نأمةِ ألمٍ، بدلاً من غفواتك المستمرة٠٠٠!)٠
وصل إلى المخزن ورأى أسلم يكاد ينام، قال له برفق:
- أصح يا أسلم وأحضر دقيقًا وفاكهةً وقماشًا٠٠
- في عز الليل يا أمير المؤمنين٠٠
- هيا أسرع٠٠
ومضى أسلم، وهو يكملُ القولَ في نفسه: (أكاد أسمعُ الصغارَ يبكون ورائي! أي حشودٍ من الأطفال في البراري وفي الخيام ووراء الصحارى؟ أكلهم يتعذبون هكذا؟ ماذا جرى لي؟ أي غفلةٍ هذه؟)٠
وأحضر أسلم الأشياءَ وأراد أن يمضي به في الطريق لكن عمر حملها، فهتف أسلم:
- دعها يا أمير المؤمنين٠٠
- أنا الذي أحملها، أنا أحمل أثقال الناس ومسئول عنها، فأي أجر لي إذا أنتَ قمتَ بذلك؟
- ولكن الحمل ثقيل٠٠
صعد التلةَ فإذا النارُ هي نفسها والقدرُ لم ينضجْ شيئًا والبكاءُ يتصاعدُ وينشرُ لحمَه٠
راح يطبخ للمرأة وينحني تحت النار وينفخ، والدخان يتخللُ لحيته، ويشعرُ بصعوبةِ عمل النساء وكيف يتعبن طوال اليوم أمام هذه النيران وقرب القدور، ورأى الصبية يخرجون من تحت ألحفتهم ويقتربون منه، وراحت أصواتهم تتغير! ياه ما أجمل الأطفال، عصافير جميلة لها زغب!
نضج الأكلُ واندفعوا، وراحت المرأةُ تدعو له وعليه!
- الله يخليك والله إنك أحسن من الخليفة فهل توليت هذه الإمارة!
كاد أسلم أن يصرخ لكنه نهره٠ قال:
- ألا يوجد لديكِ رجلٌ مقتدرٌ أو ابنٌ كبيرٌ؟
- لدي ابنان ذهبا للجهاد في العراق منذ سنة واحدة ولم يرجعا ولم يأت خبر منهما٠٠
- ألا يبعثان لك شيئًا؟!!
- أبدًا والله، كأنهما ضاعا هناك في تلك الحرب!
تحجرت الكلماتُ في حنجرته٠ وكأنه كان يطير في المسافة الطويلة المضنية إلى العراق٠٠ ويرى الشابين يلهوان مع النساء، والجيشُ وراء النهر محاصرٌ والجحافلُ تحيطُ به من كل جانب!
- تعالِ غدًا يا أمةَ الله إلى بيت المال لنكتب لك عطاء ونبحث لك عن دار تأوين إليها ونرسل في طلب ابنيك٠٠
- من أنت يا هذا؟ أتكون الخليفة نفسه؟!!
- تعالي غدًا، لقد كاد الفجر أن ينبلج وحان موعد الصلاة٠٠
يحاول أسلم أن يمسكه وهو ينزل مبعثرًا الحصى ؛ (أعليَّ أن أحمل هم أمة محمد كلها دون حشد من المعاونين والعيون٠٠ أأدع كل هذه الآلامُ تتفجرُ في كل مكان دون عين تراها وضمير يندفع لتلبية حاجاتها؟ من يدري ما هو مصير أطفال اليمن الآن أو البحرين؟! ما هكذا تكون الإمارة يا عمر!)٠
وهو يصلي ينسى كلَ شيء خارجها، التراب والحصى والنيران التي تفحُ تحت القدور، والتلال اللامبالية بهمومهِ والطريق الطويل إلى العراق والمقفر والصامت، وعذابات الناس وسعادتهم،

يذوبُ، يخضع في حضرة الإله.
في الظهيرة كان حشدٌ كبيرٌ في المسجد، ولا يزال الهدوءُ والصمتُ مخيمان على الناس، لا تزال الدكاكينُ تجذبهم، والسلعُ الملونة، والنسوةُ الفاتنات، والعيال، وتحسسُ الدراهمِ في الخزائن، والسلعُ في المخازن، وأنت المهمومُ بالجيش، المتمزقِ، المفتتِ بين الصحراء والنهر. وغدًا يكبرُ خالدٌ ويفتنُ الناسَ، وربما يظهرُ آخرون ويعيدون سيرةَ الملأ، ولا بد لهذه الجحافل البسيطة المبعثرة بين سلعِ السوقِ والظهيرةِ والرمال والجوع والإبل أن تنهض، وتملأ الآفاق!
يصيحُ بالرجال:
- إنني أدعوكم مرارًا لنجدة إخوانكم وأنتم تسدون آذانكم عني، والله إنني أموتُ كل يوم من هذه الإمارة، أبحث عن نجدتكم فلا أجدها. أتريدون أن أكون وحدي أقضي بكل شيء، فلا أجد معاونًا أو ثلةً تندفع إليّ حين آمرها لنجدة إخوان لها؟ أو لا أسمعُ أحدًا يصرخُ بي أخطأت يا عمر! ما بالكم اندفعتم لأجل هذه الدراهم التي لا تساوي ذرةً من جهاد! أي قيمة لهذا النوم والأكل الكثير؟ هناك وراء الصحارى جموعٌ محبوسة ويتامى ومساكين.. متى تنقذونهم؟

تطلع المثنى الشيباني في صحن عمر الصغير باستغراب، ورفع عمر رأسه إليه وقال:
- هيا تفضل، كلْ!
قال المثنى وهو ويبتسم:
- ما هذا يا عمر؟ أين الأكل؟
- ألا ترى هذا هو السمن والخبز٠٠؟
- أتسمي هذا أكلاً؟ أحن أنا لأكلي الرائع في البحرين والجلوس في البستان٠٠ أين أنا الآن!
- أنت في بيت أمير المؤمنين٠٠ هيا كلْ قبل أن يختفي ما في الصحن!
مضغ المثنى شيئًا وحدق ثانية في هذا الرجل الغريب، وتساءل إن لم يكن أضاع رحلته كلها هباءً! استعاد صوتَ حوافرَ خيله وهي تندفعُ قرب الشطآن، وحين كان بصرهُ يحدقُ في الصيادين شبه العراة الداخلين في البحر، وفي تلك الطيوف المتوهجة من المفازات التي قطعها وهي تأكلُ من لحمه، وهو جسدٌ يتقلبُ على السرج، عَطِشٌ، جائعٌ، ثملٌ من الرطوبة المشتعلة٠٠
قال عمر وقد ترك أغلب ما في الصحن له:
- ماذا قلتَ عن حصارك في العراق؟
أخيرًا انتبه الخليفة القرشي لكلام بدوي قادم من البحرين!
- يا أمير المؤمنين نحن نكاد نهلك في العراق وإمدادات الفرس تنهالُ علينا ضربا وتقطيعًا٠ وما هي سوى شهور وجنودنا يأتون إليكم هنا لتطعموهم أو تخبئوهم!
- وماذا ترى أنت؟
- الأعدادُ في المدينة قليلة من الرجال، ولا بد من استنفار العرب في البوادي!
حدقَ فيه عمر بما يشبه الغضب:
- أتريدُ أن أخالفَ أمر أبي بكرٍ وأصفحَ عن هؤلاء المرتدين؟!
- لا أقول ذلك ولكن كيف سنجد الرجال؟ هذه القبائلُ المعدمةُ ازدادت فقرًا٠٠ والمرتدون عادوا للإسلام٠٠
- هذه نساؤهم هنا٠ وهناك من يتمتع بهن! وثمة أسرى ومشردون منهم والنازحون من البوادي يتكاثرون وعلي أن أوفر الطعامَ للجميع!
- أنا يهمني أن تعطيني رجالاً لأقود جيشي الذي تعصف بخيامه الرياح!
- سأفعل٠ لا بد أن أفعل ذلك٠٠ بشكلٍ كبير أيضًا٠٠ لكن كيف؟ كثيرةٌ هي الأمورُ التي تشغل بالي وتحرقني، جيوشٌ متناثرةٌ في الشام، فقراءٌ في كل مكان، والفرس يستعيدون الأراضي٠٠ إني أعتمد عليك في توجيه الجيش بالعراق٠٠
- بعد أن ذهب خالد بن الوليد إلى الشام صرتُ أنا القائد هناك!
- لقد أبليتَ بلاءً حسنًا٠٠
الظهيرةُ ساخنةٌ رهيبة في الحجاز، والمشاة تسير كالدائخين إلى المسجد، أشباحٌ وظلالٌ من العظام، والباعةُ يقفلون متاجرهم، وحشدٌ من الإماء يتسلل إلى الأزقة وضحكاتهن تتعالى، وبضعةُ شبان يسيرون وراءهم٠

عمر يتطلعُ بحنق· ويدخل المسجد ويندفع إليه الناس، يصافحونه ويهنئونه· ويندفع إليه رجلٌ ما:
- يا سيدي عمر··
- لستُ سيدك!
- ·· أمير المؤمنين ذلك الرجل الكهل خرب أرضي ومنع الماء عن بيتي··!
- من هو؟ أشر إليه!
- ذاك أبو سفيان بن حرب!
اندفع عمر في الدروب المتربة الحجرية، ووراءه حشدٌ من الرجالِ والنساء، وصعد تلةً، وأبوسفيان خلفه، وأقدام الجمهور تدفع الحصى فتئزُ، وتطلع الناسُ إلى عمر وهو يجر أبا سفيان إلى بيته الكبير الذي احتلَّ المرتفعَ وأزاحَ البيوتَ الصغيرة واحتاز عينًا، قال:
- اذهب هناك يا أبا سفيان وانزع تلك الحصاة··
رمقه أبو سفيان بغيظٍ وصعدَ وحملَ الحصاةَ وخدمه يندفعون نحوه ويساعدونه ولكن عمر ينهرهم:
- وأيضًا تلك الحصاة وتلك الثالثة!
ابتسم المثنى وتساءل (أهذا حاكم؟ لماذا لا يدع بضعة حراس يقومون بذلك؟ أي تعب سيكون لي معه!)· ورأى الناسَ يتهامسون ويضحكون، ثم عادوا كالسيلِ الجارف نحو المسجد، حشودٌ من الملابس والرؤوس والعظام والسواعد طلعت من كل دربٍ، واصطفت للصلاة· نهض عمر خاطبًا:
- أيها الناس لقد انتدبتكم لحرب العراق وأخشى أنكم تخافون الفرس ذوي الصولجان وتتركون إخوتكم العرب تحت الذل والفقر· مالكم لا تسمعون لي وتتلكؤون في طاعتي؟!
راح الرجالُ يتطلعون إليه بأسى، وبدا كأن سحناتهم تتغير، وبدا أنهم يرون الأميرَ في ثوبه الجاف وبصلعته المتألقة في الضوء، وبجسمهِ الشامخ الذي بدا موهنًا هزيلاً، وهم يجمعون اللحم وينامون في الظهائر· وراحوا يهمسون:
لو ذهب عمر ماذا سنفعل؟!
حين أراد أن يجلس رفع المثنى يده للكلام فأذن له· قال:
- أيها الرجال لو حدثتكم عن العراق وخضرته ومدنه وحقوله لسمعتم العجب· إنه أنهار لا يظهر لها أولٌ من آخر، ثم حقولٌ وبساتينٌ لا يحدها النظرُ، الثمارُ من كثرتها شبعت منها العصافير، والعربُ تحرثُ الأرضَ وتسكنُ في بيوتٍ من خوصٍ وتأكل الطين، الفرسُ تسكنُ القصورَ يحيطُ بها الجندُ الذليل، أناخوا على المتع والخصب والنساء، يقيدون جنودهم ليحموهم ويجروهم للحروب كما تـُجر الدواب·· لا يستطيعون أن يصمدوا لكَّرةٍ من خيول عربية جريئة، يتطلعون وراءهم دومًا للرجوع لقراهم التي صفدوا فيها، يخشون الحربَ خشيتهم الطاعون، ما أسرع ما يهربون حين يـُقتلُ رؤساؤهم، فتعجبُ في لحظة واحدة أين ذهب ذلك الجحفل من الجند الذي يملأ الآفاق!
وكأن الرجال بدأوا يصغون إلى صهيل الخيول وهي تحمحمُ وتغرقُ، يرون أفقًا كثيفًا بجنود العدو الزاحف نحوهم· فقال أبو عبيد بن مسعود الثقفي:
- إنني لها يا أمير المؤمنين!
فقال سليط بن قيس الكلام نفسه، ورفع ثالث يده، وراحت الأيدي ترتفع والأصوات تعلو!

جاثمٌ على كنبةٍ وحاسر الرأس، ومكفهر الوجه، يقول أبو سفيان غاضبًا:
- لم يبق سوى بلال وعمار بن ياسر وغيرهما من الصعاليك والعبيد يقدمان عليّ في مجلس عمر! غدا مجلس هذا الرجل مضحكةً، ألا يرون كيف يعيش ملوك الروم والفرس؟ صولجانٌ وقصور وحراس، والعبيد ناءون مبعدون عن كراسي الحكم وعرش السلطان!
قال المغيرة بن شعبة:
- انتظر أمرهم! هؤلاء لن يستطيعوا التغلب على ملوك الدنيا، وغدًا يعودون إلى المراعي.. ونجد خيولَ الروم تقرع أبواب المدينة، هل يتصورون معنى أن يتحد حكام روما ودمشق!
- ولكن يا مغيرة تمضي معهم ولا تعارضهم في شيءٍ؟!
- هم لديهم السلطان وأنا مع السلطان، إذا فازوا فزتُ معهم وإذا انهزموا عدتُ إلى أهلي!
تطلع أبوسفيان مقطبًا إلى شاب في المجلس:
- وأنت يا مروان ماذا ترى؟
قال مروان بن الحكم:
- أنا أرى أن نطأطئ الرؤوس الآن. أنت رأيت كيف انتصروا عليك وفتحوا مكة، وصرنا من أتباعهم.. وكما يقول المغيرةُ فإن التغلب على الفرس وحدهم أمر مستحيل دونه خرق القتاد، فلنصبر ونرى.. إذا انكسروا رفعنا رؤوسنا ثانيةً!
تنفس أبو سفيان الصعداء وقال:
- لقد رأيت عز الفرس، مدنٌ كبيرةٌ ملأى بالأسواق وقصور على امتداد النظر وحدائق غناء، وإسطبلات تـُحشدُ فيها الخيولُ فلا ترى لها آخرَ.. وملوك إذا دخلت عليهم فزَّ قلبك من صدرك، وأنت كأنك ترى نورًا في العلياء، بل شمسًا ساطعة، لا تملك سوى أن تنحني على الأرض.. ولم تكن أرضًا بل ذهبًا ولؤلؤًا وتقول ليتني أنام على هذا البساط إلى الأبد، فأي شيء لدى عمر غير الماعز والبعر!
ضحك أفرادُ المجلس بتوتر.
قال المغيرةُ:
- لا بد يا أباسفيان من الصبر الطويل، نحن أمام سيل من الأعراب الذين فتح لهم عمر سبل التدفق على العراق والشام، وهم الطامحون في الأرزاق والسلب والنهب، وما يلبثوا أن يشبعوا فيصابون بالتخمة والغطرسة، وحينئذٍ لا يستطيع عمر أو غيره كبح جماحهم فيسرقون ويملؤون بيوتهم بالنساء والغلمان وتأتي حينئذٍ ساعتنا..
يفكر أبوسفيان لحظة ثم يقول:
- ألا تفكر أن هذا الدين سوف يغيرهم، والتفكير في الجنة والنار سيمنعهم من التساقط على متاع هذه الحياة؟
- وأنت بعد طول رفضك للآخرة هل تراك قبلتَ بها أو تأثرت بجنانها أو نيرانها؟!
- أبدًا!

- وهم كذلك، هؤلاء البدو الفقراء لا يعرفون شيئًا من ذلك، فلا بد أن نكون معهم ولا أقول نطأطئ الرؤوس لهم كما قال فتانا مروان، بل أن نرى أصدقاء بينهم وأعوانًا، فمن يدري قد تنقلب الدوائر على هؤلاء··

قال أبوسفيان:

- لا أدري إلى متى يبقينا عمر هذا أحياءً وأغنياءً!

أسرع المغيرة بالقول:

- لا أظن عمرًا كامل القوة كما يبدو، ها هو قد استعان بخالد بن الوليد وهو الذي لا يطيق سيرته، وبعد أن فعل خالد ما فعل بقبيلة جذيمة وما علينا سوى أن ننفخ في صورة خالد وليعود إلى المدينة قائدًا كبيرًا، ويضع التاج على رأسه، ويقول لدولة الصعاليك اغربي!

- والله أنا أرى لا هذا ولا هذا بل ربما يكون أملنا في الروم أو حتى الفرس·· هل يمكن أن نبقى مرتهنين في أيدي هؤلاء الصعاليك وأميرهم!؟

- إنك تغمغم بهذه الكلمات والجمل حتى بين بعض الناس، الذين ربما حملوها إلى عمر فتكون واقعة خطيرة يا أبا سفيان··

- لدي ابنان بينهم·· هما ذخيرتي وأملي للقادم من الأيام·· لعلها تحبل بهما أو بأحدهما، من يدري··· وبعد بضع أيام سوف أسافر لهما وأرى أي مجد صنعاه··

هل يستطيع عمر أن يغفو؟ حتى بعد صلاة الفجر وفي تلك الظلمة الشاحبة والهدوء العميق كانت الأصوات تضجُ في روحه. هذا بائعُ لبنٍ يغش! وهؤلاء الناس يأكلون من اللحم كثيرًا! وأولئك البشر وراء حراب الروم والفرس يستصرخون به وأصواتهم تصل إلى فراشه اليابس! يتخيلُ القصورَ الكبرى وحدائقها والملوك بتيجانهم وملابسهم المزركشة المنتفخة وتحتهم الأكواخ والناس الذين يغوصون في الوحل ويزرعون القمحَ ثم يرقدون على الحصى وبطونهم خاوية. لديك يا عمر كل هذه الجيوش والبشر أسرى؟

يتقلبُ. بيتُ المال فيه نقودٌ كثيرة لم تُوزع. عمل دارًا لملابس وأدوات المحتاجين. جاء أغنياءُ قريش وقالوا: قطعت عنا نصيبنا من المال يا أمير المؤمنين! يرى في عيونهم مكرًا وغضبًا مكتومًا. يصيح بهم:

- أُعطيتم المالَ والمسلمون ضعاف ولم نعد ضعافًا فاذهبوا!

يتطلع في وجهي ابنيه الجالسين معه على مائدة الفطور شبه الناضبة، أحدهما وهو عبيد الله يتطلع في الأكل بتذمر وعبدالله يبسمل ويأكل قطع الخبز بشيء من السمن. يقول:

- ماذا تريان في خالد بن الوليد؟

فيسأل عبيدالله بدوره:

- أترى فيه شيئًا يريبك؟ أهذا هو كل الأكل؟

- أنا الذي أسأل..

يقول عبدالله:

- قائد فذٌ لكنه له مزالق وأفعال غريبة..

- مثل ماذا؟

- كإسراعه في قتل الأسرى حتى بعد أن يتأكد أنهم مسلمون.. وقتل النفس بدون حق جريمة..

يعترض عبيدالله:

- أتعتقدان أن الحرب خاليةٌ من المفاجآت والغفلة والعاطفة؟ أتحسبانها مثل النزهة؟ لا تقوم الحروب العظيمة إلا على هذه الأجساد والدماء فيتغير كلُ شيء!

يقول عمر بصرامة:

- ما بالك تصرخ هكذا؟

يكمل عبدالله دون أن يلتفت إلى أخيه:

- خالد يغامر بالناس وقد يكون هذا فعل حرب حسن، لكن التمثيل بالجثث والصلب والحرق هذه ليست من أخلاقنا!

يهتف عمر:

- أحسنت، أحسنت يا لدي!

ويهتف عبيدالله بدوره:

- ما هذا برأي قائد وإنما قارئ!

- ما رأيكما إنني أفكر بعزله وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه..؟
ينهضُ عبيدالله ويقول برعب:
- سوف تهدمُ كل ما بناه المسلمون يا أبي في الفتوح، سيعودون مهزومين منكسرين، إياك وهذا الأمر!
لا يلتفت عمر إلى عبيدالله ويحدق في شفتي عبدالله وكأنه ينتظر خلاصه. عبدالله يصمت ويفكر مليًا. يقول:
- هل شاورت الصحابة؟
- كثيرين منهم، وهم مختلفون أشد الاختلاف. والأمر برمته يحيرني ويخيفني ويتعبني.. أرى هذا الطاووس يمشي في البلدان بسيفه حاسبًا الانتصارات من فعله.. تعرفان الغرور وماذا يفعل بالنفوس!
يقول عبدالله:
- عزله لن يكون.. كارثة.. تعزله فقط عن منصب القيادة وتدع له مساحة من الأمر والفعل المستقل.. لا تذله..
- هذا رأي حسن كان من أفضل آراء بعض الصحابة..

هذه هي دمشق، مدينة شماء تنظر إليك بشزر، سماؤها صافية، وأشجارها الخضراء متألقةٌ تحت الضوء، وعاصفتك من الجند تجثمُ ساكنةً أمام أسوارها الشامخة!

يجلس خالد بن الوليد في فمِ الخيمةِ محدقًا في الحجر والطير والزرقة الجميلة، وقاسيون يترامى متجهًا نحو الأعالي بلا مبالاة بمعاناة وانتظار الجنود.

يحدق فيه الجنودُ مرارًا، يعودون إلى خيامهم، يشعلون النيران في الليل، يصطكون من البرد، يطبخون، يأكلون، يسمرون، لكن الأسوار لا تتزحزح..

ينهض خالد ويتجول، الليلُ الباردُ يتوعدهم بمزيد من الجليد، يصغي إلى ترنيماتٍ غريبةٍ في ديرٍ قريب، يتطلع إلى الأسوار من مكان أبعد ولكنها هي ذاتها، أسنانها الحجرية الممتدة إلى السماء، وهناك هاماتُ الجنود المحدقة، والتماعات سيوفهم ودروعهم على ضوء القمر..

يا ليت عمر بن الخطاب صار هنا ليرى معاناتهم! هذا الرجلُ لا يُعرف غوره، يغلفُ الحسدَ بالنبل، والغيرةَ بالحكمة، ولا يطيق كلمة سيف الله المسلول، بل هو عاصفة نارية انطلقت من مكة لتجتاح العالم، لترسم ذلك الفتى الصغير الغض وهو يتحول إلى بطل يقتحم الغبار والنار والصحارى ويصنع الانتصارات! في كلِ اندفاعةِ خيولٍ وسيوفٍ يكتشفُ ثغرةً في العدو، كأن السماءَ توجههُ إلى النصر والبطولة، حدسٌ غريب ينفجرُ فجأة، ويوجهه نحو طريق ما ودونه طرق كثيرة، لكنه هو الطريق الوحيد إلى الوثوب على أعناق الرجال الغافلين..

يدهش هو نفسه لزحفهِ في عمق الصحراء متخليًا عن الدروب المسلوكة، عن الطرق المطروقة، بين جنده الشجعان، والإبل الملأى بطونها بالماء، وهو يشربُ منها في كلِ لحظةِ عطشٍ ضاريةٍ..

ثم يفاجئُ مدينةً غافيةً ويقتحمها ويسلم حرسها وسكانها وتكون أول الحضر الشامي المستسلم، ويندفعُ اسمهُ في الآفاق، كأنه ساحرٌ مسلحٌ يصنع المعجزات..

وكما ينتشر مجده بين الأفواه والقلوب يتنامى الحسدُ لدى الساسة الجالسين على كراسي السلطان، هم الأبطال هناك في حجراتهم وبين أولادهم وتحت ألحفتهم.. كانت الصحارى تأكلُ من جلدهِ وهو يطيحُ بالأرتال العربية الموالية لفارس، وذعرت الذئاب والغيلان والأشباح وهو يعبر تلك المفاوز ويتسلق أسوار المدن الحصينة..

كيف يفهم أولئك الساسة مشاعر الجندي وهو يدوس على الشوك وينتظر في كل لحظة سهمًا مفاجئًا يتغلغلُ في رقبته؟! كيف يفهمون حبه للحياة وللنساء أجمل المخلوقات بعد مذبحةٍ بشعة يرون فيها أشلاء أصحابهم موزعةً على الرمال والطير والطين، حين تتجمد في أرواحهم المشاعر بالفرح وتنقبض نفوسهم فيصيرون أشبه بصخور، ولا تعود من ثغرةٍ يعودون فيها إلى الوجود غير المرأة والنشوة، لكي يستقبلوا يومًا جديدًا من الآهات وليعبروا مستنقعات الدم والجماجم المقطوعة والآهات الأخيرة للأجساد؟!

إنهم لا يسمعون صرخات القتلى التي تدوي في سمع الجندي وهو يريد أن ينام ولا ينام، وهو يرى كأن الماء الذي يشربه دمًا!

لكن أمامك الآن سيلٌ من البشر وثمة صخرة هائلة تسد النهر، وكل العقبات سقطت تحت قبضتك إلا هذه! أيمكن أن يعودوا خائبين إلى بريتهم مرةً أخرى بعد أن خرجوا إلى العالم؟!
يحملُ الجنودُ حطبًا ومؤونة للدير، فيتطلعُ فيه الرهبان بدهشة، يقول راهب كهلٌ:
- أنتم أحوج للدفء منا أيها القائد!
يردُ بلطف:
- نحن متعودون على البرد..
- لم يأت البردُ بعد يا سيدي..!
ثم أدهشه الصقيع في الليل، فصار الجندي كومةً من الثياب، ونفقت خيولٌ، ولم يعد الحطب كافيًا ويظل مشتعلاً طوال الليل وحتى في أوقات من النهار، وهو يقوم بزيارة القطعات الأخرى المحاصرة للمدينة، ويتطلع بخوف إلى كتل الجنود المتجمدة في الخيام، ويستقبله القادة الآخرون بحزن وهم، ويعانق أبا عبيدة بن الجراح الذي يبدو أكثر حزنًا من الجميع، هذا الرجل سلم له القيادة بنكران ذات عجيب..
القطعات تحيطُ بالمدينة من كل بابٍ، ولكن المدينة تتركها في العراء وتحت الثلج المتساقط، والذئاب تقترب منها طالبة غذاءها من أجسادها، ووراء الأسوار أعراسٌ وأفراحٌ، ويبدو أن عيونَ الجنود المتوارين وراء الأحجار تعبت، وراحوا في غفوات، ومضى هو يوقظ جنوده ويدعهم مستيقظين منتبهين، ملقيًا حطبًا في النيران، والدخانُ يدخلُ شعره..
يقول له الراهبُ الكهل:
- لدي هنا سلالم أيها القائد، انظر إليها يمكنك الاستفادة منها!
انفجرتْ صورة مذهلةٌ في رأسه، وسمع الصيحات وراء الأسوار ورأى الأبواب تفتح فجأةً!
هتف خالد بغتة:
- لماذا تساعدنا أيها الراهب ونحن نغزو بلدك؟!!
تطلع فيه الآخر بصمت. وهو الآن أدرك أن ثمة أشياء غريبة متوارية، تجمعه بهؤلاء الرهبان، ثمة حب متبادل خفي، يتسربُ هناك من تحت الرمال والحديد والأسوار، وهو يسفكُ الدماءَ، وهم يقرأون ويزرعون، ولكنه يفتح لهم الأبواب، ويغذيهم بالأعشاب والحليب وجلود الكتابة، ويكثر من نسلهم ومدنهم وأسواقهم، وغدًا ربما يذكره أبناؤهم وقد دُفنت السيوف..
هدأ كلُ شيء في الكون، لكن الجنادب في العشب مزعجةٌ، والجنود ينهضون بهدوء وكأنهم يخشون إيقاظ أطفال، صاروا كتلةً من سواد، والسلالم التي في أيديهم منحنيةٌ مع أجسادهم الزاحفة، ثم تجثم على الجدار، وكأنها تقبله بحنان، وتتدفق القامات الصلدة متجهة نحو السماء، وهو على رأسها، سيفه في يده، وحياته على كفه، وربما يصحو هذا الجندي الغافي فجأة ويطعنه برمحه، لكنه يصل ويجد أن الهواء مختلف، والجندي تُلف رقبته بسرعة شديدة وبقوة مريعة، ويفتح الدربَ لصاعقةٍ من جند تنقضُ على الأرض والحصى وتزيح الأجساد والصخور عن البوابة، ويندفع منها سيل عارم. إعصار من سيوفٍ وعظام وعيون وصرخات تتدفقُ في شوارع المدينة الغافية في حي والصادحة في حي آخر، والمعشية العينين في كل الدروب..

الفصل الثاني

- 1 -

كان رستم يحلم.
في ذلك السواد الغريب انبثقت ثلاثُ نجومٍ كبيرة، وقد كان مربوطًا بحبل وثيق، وحاول أن يتفكك لكن الماءَ راح يتدفق حوله، هزَّ ذراعيه بقوةٍ، فاتسعت دوائرُ النجوم في السماء واندفعت حرائقُ كبرى في البيوت ورأى سفنَ النهر تحترقُ، والأجسامَ البشرية المشتعلة تقذفُ بنفسها في البحر، وهو في مكانٍ مجهول مربوط بقسوة، وثمة ألم في مكانٍ ما من جسمه تغلغل بقوة شديدة وراح يتألم ويصرخ دون أن ينجده أحد، وراح يفكُ عقدةَ الحبال.. وكان الماءُ يتدفقُ حولهُ، وقد وصلَ إلى صدرهِ، وراح يعلو ويعلو، وأنفاسه تتقطعُ، وصرخاتهُ تزداد..
حتى استيقظ!
كان العرقُ ساخنًا باردًا على جبينه. جلس وهو فوق سريره. تأمل النوافذَ فوجدها معتمةً ولا شيء وراءها. فأين النجوم؟
(أتكون النيرانُ والأضواءُ قد غادرتنا؟).
جرى نحو الموقد فوجده رمادًا يابسًا!
صفقَ بيديه فانفتح بابُ الجناح وظهرت ثلةٌ من الحراس والخدم وفي قبضاتها نورٌ ووهجٌ بهيج!
هتف بتذمر:
- خبت النارُ هنا، أي بردٍ مخيف هذا؟
كانت الثلة واقفة كالتماثيل الحجرية القديمة، ووحده الهرمزان تقدم، فيما خادمان يشعلان النار بهدوءٍ شديد.
أخذت القاعةُ تستعيد وجهها الغائب، الأنيس، ولكن في الخارج لم تزل جبالُ الظلماتِ مهيمنةً.
كان وجه الهرمزان جامدًا بشكلٍ مخيف، فنهره سائلاً:
- ماذا حدث؟ أخبرتني الأحلامُ بمصائب.. هيا قلْ، تكلم!
كان الهرمزان يرتجفُ فيما خفتت ترنيمات الخادمين على النار:
- مولاي وسيدي إن ملك الملوك المعظم.. قـُتل!
لا تزال وجوهُ الحراس تحدقُ في الجدران، لكن جلودهم تحركت بقوة، فيما هو جثم على السرير، ورأى كم هو سريرٌ واسعٌ وفارغ، وكل النسوة اللواتي جئن إليه توارين وراء الزمن، وحتى اللذات الكبرى لم يعدْ لها طعم في قصر الكوابيس هذا، والآن لم يعدْ له حامٍ يرتكز على سلطته، وهو جاثم في إقليمه البعيد عن العاصمة كأنه منفي عنها.
كان الهرمزان ينتظرُ دعوته للكلام، فأشار له بيده أن يستمر في تكديس الظلام فوقه ويكمل القصةَ البشعة:
- قام سياوخش بمداهمة قصر مولانا بكتيبة الفرسان الرابعة هذه الليلة وحدث قضاء(أهرمان) العظيم.. ولم يكتف الوغد وحاميته آزرميدخت بقتل الشاه المعظم بل طالت سيوفهم أباك..
- آه أي نهار هذا؟!
(بل أي شيء فظيع هذا؟ إنه أسوأ من ذلك الحلم، وقد زعم السحرةُ أن حياتي مكللة بالانتصارات العظمى والنجاحات الباهرة ولا أرى شيئًا من ذلك؟ أكانوا يزيفون كلَ شيءٍ!

قـُتل الأب، والملك العظيم، الملك الجبار! وبحربة من؟ بحربة خادم خسيس··· أين الأنوار وعطايا أهرمان العظيم؟ يا مولاي لم تتركني أصارع كل هذه الشرور؟ لكن لا بد لي أن أنهض بسرعة وشدة وأزيل حفنة الأوغاد هذه!)·

صمت لحظة، ثم قال:

- ليس ثمة وقت يا هرمزان، استنفر كل من لدينا وليتجهز الجيش··!

سمع الأبواق، وراحت أحذيةُ الجنود تدقُ الأرضَ والبلاطَ وتصلُ إليه بخفوتٍ، فيما وضع الخدمُ على الطاولة الكبرى أطباقًا كثيرة من الفواكه والحلوى والبيض، ولم يذق سوى لقمات قليلة، وجلست بضعُ نساءٍ حوله، يقدمن له شرائحَ الفاكهة، ثم رحن يدلكنه وهو جاثم على السرير يحدقُ في شعورهن السود، ووجوهن الفاتنة التي لا يكدرها حلم، ويومض وجهُ الملك بضع لحظات، ويرى نفسه بين يديه خاشعًا، وكلماته تدفعهُ كلَ يومٍ في مفازةٍ ساخنة، أو بين جبال شاهقة ووراءه أرتالُ الجند، تنغرز حرابهم في أجساد الفلاحين الهاربين الثائرين في الشعاب، ثم وهو يندفع بجيشٍ عارم في صحراء شرقية متصديًا لقبائل من اللصوص والقتلة··

لم يبق مكان لم يندفع نحوه سهمٌ مسموم، أو يترقبه قاطعُ طريق، وتلك المرأةُ تحرض ملكه أن يقذف به في كهوف الوحوش، وليندفع وسط القبائل المتوحشة، ويربض على الحدود البرية الشاسعة، تحيط به الجبال والشتاءات القارسة التي لا تتوقف··

أبصر الفيالق تصطف في الساحة في ضوء الصباح· بحر من الزرد والسلاح والوجوه الصلدة، وفوقها السماء المكفهرة·

يندفعُ الجيشُ في الصحراء نشطًا كأنه قبضة حديدية تزيحُ كلَ شيء.
في مقصورته يحدقُ رستم بالحشد ذي الخطوات الرتيبة الدقيقة الصارمة، وبصفوف الفيالق المتراصة، وبغابة فرسان الخيول التي تسبق المشاة كأنها تستكشفُ الدروبَ لهم، ويفكر في هذا البطء المؤلم، كأن جيشه لم يتأثر بكلماته (أيها الرجال أنتم ثأري الآن، أنتم سيفي الذي سوف أنتقم به من القتلة!) والجيش الذي صاح بقوةٍ عالية، واصل سكينته في السير وشق الصحراء برتابة فظيعة.
إنه لا يعرف هؤلاء الجنود، هذا الحشد من الوجوه والنفوس، هذه القبضات من التُربِ المجلوبة من الأزقة والحقول، والتي دُربت طويلاً وُوضعت في الثكنات الدافئة، يختفي بعضها عقب كل معركة وينضم آخرون، وهو لا يميزهم.. الآن بودهِ لو التصقَ بكلِ جندي لكي يشتعل بحماسته الداخلية..
وفكر بهجسٍ خائف:
(ماذا لو كانت نهايتي هنا؟ في هذا الزحفِ الغامض التافه، بهجومٍ مفاجئ من جيوش سياوخش؟ طلائعي تنتشرُ في جبهة عريضة، وترتفع فوق التلال وتطاول السحاب لكن المفاجآت ممكنة.. الحياة لم تعد مهمة بعد غياب أبي.. عذبني طويلاً ثم قادني إلى اختباري الأخير الفظيع لكي أثأر لسيده الملك وله! حتى النجوم بأضوائها توارت عن السماء، وها هي الغيوم تغيبُ أنوارَ الشمس، الإله العظيم.. وحتى وأنا في لحافي أشعر بالبرد!).
ثمة ضباط كبار يقتربون من موكبه، ينحنون ويتقدمون وهو يطلُ عليهم، يقول الهرمزان:
- سيدي القائد المعظم رأت إحدى طلائعنا جيشًا كبيرًا للمرأة المتآمرة معسكرًا في السهل..
- وكيف هم؟
- هادئون ولا يتوقعون أي شيء كما يبدو!
- إنها العقبة الوحيدة التي تفصلنا عن المدائن..
صمت قليلاً وكانت خيول الضباط تسايره وهو جالس:
- أوقفوا الجيش ودعوه يستريح بدون أي ضجيج!
كانت السماء ملأى بالغيوم وبدأ وهجٌ غريب يبعث إشاراته إليه.
ثمة بطلٌ أسطوري هائل يتشكلُ من مادةِ الغيم، وهو يشيرُ إليه، وثمة رجلٌ ذو لحية كثةٍ ينشد..
(من هذان؟ إن إله النور يرسم على كتابه المنير، وأنا ذو دراية كبيرة بالنجوم ولا أرى سوى أفق مسدود، أأكون يائسًا وحزينًا إلى درجة الرعب من المصير؟!، إنني أيضًا عسكريٌ عنيفٌ صبور، لكني لستُ من رجال الدين العظام، فماذا تقول أسرار السماء والأنوار حقًا؟).
استدعى السحرةَ والعرافين من عربتهم الخاصة المميزة، وحضروا وجثموا، وبدت وجوههم المسترخية ولحاهم وكتبهم العتيقة الصفراء كأنها لعبة مسرحية بين هذا الجحفل الحديدي الرهيب.
وهو يحتسي النبيذ ممددًا ساقيه ومستندًا على كرسيه الذهبي قال:

- أيها المعلمون ماذا ترون من طالعي في هذا اليوم، فأنا لم أزل بعد لم يتحقق لي ما تقولون، ليس ثمة نصر عظيم سوى تلك الغارات والانتصارات البدائية، أنتم تكررون عليّ بأني سأكون بطلاً كبيرًا!

هل يمكن أن أكون مثل قمبيز وأتوغل في ساحة الشرق بين بلد وآخر، مثخنًا الأممَ آسرًا الزعماء وكأنهم ماعز؟

إنني لا أريد أن أكون مثله في جنونه بل في انهمارهِ كرعدٍ قاصف، وأحب أن أكون مثل داريوس في عقله الكبير وشجاعته، حين يقتحمُ القصر ويلهبُ الجموعَ ويطيح بالطاغية! ثم ينشر الجيوش في أركان الأرض، فيلمسُ أنهارَ الهند ويرسلُ سفنه فيها، ويقتحم بلاد الإغريق ويجلبُ ذهبَها وكتبها.. ماذا أفعل أنا غير حراسة الحدود وقطع رؤوس اللصوص؟!

ما بالكم صامتون لا تتكلمون؟!

تحدث العجوز مهنند بصوته الشاحب ولغته الهادئة الواثقة:

- ستكون يا مولاي أكثر مما تتوقع، ستكون البطل الوحيد الساطع بنوره الكثيف في سماء فارس العظمى. لن يضيء نجمٌ قربك، ولن تسطع شمسٌ أمام شمسك!

- كيف؟ كيف وأنا في هذه الصحارى ومحاط بكل هذه القبائل البدوية قرب الحدود كأني راع لماعز!

- بل ستدهشك السنون القادمة بعجائبها وستتجول في الشرق مثل داريوس العظيم تملأ خزائن فارس بجبال الذهب وحدائقها بالنساء..

انهمر مطرٌ غزيرٌ، وبدت الأرض أمامه موحلةً قذرة، وراح الجنودُ يرتجفون من البردِ، والمياهُ تصطدمُ بدروعهم وتنزلق.

حشدٌ من الحديد اللامع وسماءٌ بيضاءٌ تنثُ مياهًا، وشمالٌ محاطٌ برؤوسِ جبالٍ شاحبة متلفعة بعمائم من الثلج، وأوراقُ الأشجارِ بيضاء، والكتلةُ الرهيبةُ من الحراب تخترقُ الوحولَ والبرد والثلج والأعاصير..

ينهضُ للخلود. ينزلُ داخل إعصار المياه ومظلة فوق رأسه، يخوضُ في النقع، ويلمسُ صفوفَ الجنود، يحدد القلب من الجنود المدرعين السريعي الخطى، والجناحين من فرسان الخيول، ويتحاوطهُ الضباطُ واقفين حوله وهو يشيرُ بسهمٍ فوق خريطة..

يعودون لمواقعهم، ويتدفق الجنود والخيول نحو السهل المفتوح بأعشابه، يتقدمون تحت عباءة هائلة سماوية من المياه والضباب، وينتبه إخوتهم في المعسكر المعادي ويحدقون برعب إلى كتلة الظلام المتقدمة بين النور الشفيف، فيندفعون إلى أسلحتهم في فوضى عارمة، وغدت صيحاتهم مثل انفجارات الرعد..

تأمل رستم اللوحة الهائلة، السماء الغاضبة المرعدة وقبضته الحديدية تتوغلُ مثل النصل في اللحم، والفرسان ينقضون على الجانبين المفزوعين المدافعين والقلبُ يتقدم ببطء وبفتك صلد..

المساحةُ هائلة، والمعسكر واسع، متعدد المباني، والحشود المعادية هائلة، لكن الإطباقة كانت تامة، وجنوده غدوا مثل سكين هائلة تقطعُ الجسدَ..

لا تصله الصيحات ولا الوجوه ولا دمدمة الرجال وهم يجهزون على الخصوم، ويمزقون أحشاءهم، ولكنه يرى النيران وهي تشتعل والماء يحاول أن يطفئها بلا جدوى، والخيام وهي تمزق، ومبنى القيادة وهو يُقتحم وحراب جنوده وهي تنغرز في آخر ما بقي من بطون والجثث

تملأ المكان والفارون يندفعون، والمطاردات تتدفق نحوهم، والأجسام تغرق في الجداول، والجثث تطفو··

يسيرُ عمر وراء الجنود، ثمة بعض الخيول والجمال ثم حشدٌ من الرجال ذوي الملابس المتهرئة والنعال، وأمامهم طريقٌ طويلٌ من الرمال والجوع والعطش ومن سطوةِ الشمس الحارقة ومن أعداءٍ متربصين في كلِ مكان، وقبائل سارحة في البراري.
يسألُ عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي قائد الجيش عن المؤن والسلاح وعن كفايتها، وعن شبع الجنود وعن نومهم وراحتهم، فيرى شابًا طموحًا شجاعًا يتكلم بثقةٍ غريبة:
- اطمئن يا أمير المؤمنين كل شيء جاهز، وفي الطريق سنجد أقواتًا كثيرة ومزارع مفتوحة كأنها متاجر لنا!
- ماذا تقول يا ولدي، ليس كل شيء تصادفونه ملكٌ لكم، أنتم تساعدون الناس ولستم لصوصًا!
- أقصد يا أمير المؤمنين ما سوف نجده عند العدو وحلفائه من القبائل العربية ومن المزارعين الخادمين للفرس.. لديهم حقول مثل رمالنا وتلالنا الحجرية هنا..
لمعت الأمكنةُ العراقيةُ في خاطر عمر، وتذكر شبابه وهو ينطلق في تلك البقع الجميلة، ومسالح الفرس وحصونهم وعساكرهم تقف على بوابات الصحراء العربية تمنع أضببتها وذئابها وقبائلها من المرور، وهو يتقدم بثلته الصغيرة نحو تلك البوابات والرمال تسفعه، والغيظ يملأ نفسه، وحينذاك كان يصرخ في نفسه (أهذا هو حال العرب لصوص وغنائم لبعضهم وخدم وشرطة للغزاة؟! يا لذلنا!)..
ويحدق في أبي عبيد الذي تبدو على وجهه إمارات نشوة غريبة. أيظن أن الحرب نزهة أم أن الخيلاء صعدت في نفسه لأنه صار قائدًا عينه عمر؟ ألم يكن متسرعًا في قراره، ألم يكن أفضل لو عين قائدًا ذا تجربة؟ ألم تحنقهُ سلبيةُ الناس وقعودهم عن الجهاد ليندفع بهذا القرار.. قال بقوةٍ وهو يمسك أبا عبيد وكأنه يكادُ يخنقه:
- يا أبا عبيد أرى في نفسك سرعةً وخفةً لا أحبها في أمرائي، أنت حَدَثٌ فلا تقوم برأيك في الحرب لوحدك، بل اسمع من الرجال ذوي التجربة، فلا تتسرع وتريث وكن دائمًا قرب البرية، ودعها سندًا من ورائك تعودُ إليها إذا حاصرك الخصمُ ورأيتَ قوته أقوى منك، بل حتى إذا هزمك..!
تطلع أبو عبيد إلى الأفق الصحراوي الغامض الواعد، وكان الجنود قد توغلوا، لكن عمر كان يلاصقه ويقول:
- اكتبْ إليّ.. كلَ ما تراه.. كلَ ما تفكر فيه، كل خططك، كل ما يقوله القادة الآخرون..
فودع عمر ومضى..
وكانت كلمة عمر مدوية:
- احذرْ الغرور!
ثمة قلقٌ غريبٌ في نفسه بل ثمة حزنٌ ووحشة. كأنه كان يريد أن يوقفَ ذلك الزحفَ. يفكرُ قليلاً (لعل ثمة خطأ! لعل ثمة كارثة.. أنا لا تنتابني هذه المخاوف سُدى.. أعرف روحي مثقلة بالمعاني، ولا ترتعش هكذا إلا لأمرٍ جلل. سأنتظر.. لم أقل له كلمتي الأخيرة إلا لما انتابني أنا من

غرور··! دفعتني مكانةُ السلطان وغرورُ الحكم لأعينه أميرًا على الجيش! هكذا لأنهم خذلوني وأطاعوا أبا بكر بسرعة فغرتُ في نفسي وأصابتني العظمة فعينتُ ذلك الشاب أميرًا! آه يا ابن الخطاب كم تخطئ! ما أدراك ما سيحدث ألم يكن الشيباني أفضل من هذا القرشي، نزغتك شوكةُ قريش·· يا رب لا تلقنا في مكروهٍ·· يا رب اغفر لي خطئي!)··

تعتدلُ الأسواقُ حين يمر٠
يتطلعُ الباعةُ إلى موازينهم جيدًا٠ تعتدلُ الأسعارُ ويتجرأ الفقراءُ، ويحترم الرجالُ نساءهم، ويختبئ اللصوصُ والدجالون في أوكارهم، وتزهر غيومُ العصافير على الشجر، وتتدفق كتبُ الأمصار بأخطاء الولاة، فيندفع رجالٌ على خيولهم أو إبلهم لا توقفهم الصحارى والسيول والذئاب والصعاليك والأمراء، يقتحمون أبوابَ الإمارات العالية، وينزعون سياطَ الحراس ويحررون الخدمَ من الأحباس، ويسحبون الولاة للمحاكم والأسواق، ويعرضونهم لصفعات الناس، وكلماتهم القاسية٠٠
يقحمون رؤوسهم في خزائنهم، يدققون في الأرقام والمعادن النفيسة، والرخيصة، يأخذون الكثير وينثرونه على المساكين، ويتطلع أولئك الفقراء في أزقتهم المعتمة لهؤلاء البدو الغرباء ذوي الثياب الرثة، يحولون النقدَ الثمين مثل مطر مضيء رخيص ينهمرُ على العشش٠٠
يرون أبواب الولاة الثمينة تـُهدمُ وتنفتحُ دارُ الإمارة للمتسولين والنساء والمجلودين في الحقول والمسروقين في أهراء القمح، وتتكاثر الحشودُ على الولاة٠٠
حين يظهر عمر بدرته في الطرقات والأسواق والحارات، يختفي المتسولون وباعةُ الغش، وتمشي النساء باحترام، وترتاح حيواناتُ الحمل من صناديق ثقيلة وأحمال متعبة، ويوقف المتحدثون خطبهم الطويلة عن الفضيلة، ويتجه الرجالُ للحقول ويتركون مجالس الثرثرة٠٠
ويبعث الحطابون والمزارعون والنساء والعراةُ من وراء الصحارى بخطاباتهم لأمير المؤمنين ينتقدونه على عدم عنايته بهم، ويتطلع بعضُ الصحابة في الرسائل بغضب، في حين يدقق فيها عمر، ويسأل، ويكتب، ويرسل رجالاً مصنوعين من عظام الفضيلة والجرأة السميكة، يقتحمون مخادع الولاة النائمين ويجرجرونهم عن المحظيات، ويعرضونهم لسياط العامة، ويستبدلونهم برجالٍ آخرين من التراب، ويحملون خزائنهم ويلقونها في بيت المال، حيث حشدٌ من العبيد والخدم السابقين، حراسًا غلاظًا على كل درهم٠٠
يكتبُ عمر، ويرسلُ، وينزلُ إلى البرية والأسواق، يترقب خطابات الجيوش، يفكرُ في كل القطاعات كيف تصطف، كيف تتراجع، كيف تعيش٠٠ يعود لدار الحكم، يجلسُ مع حشد الصحابة الذين يتعالى كلامهم، يشيرون إليه في كل الجهات، عن السوق، عن الغناء المتصاعد في الليالي، عن الشعر القبيح، عن أخطاء حكام الأمصار، عن فقراء حرب الردة المتكاثرين والضحايا والقبائل الجائعة في الصحارى٠٠
عمر يصغي بانتباه وكأن كل كلمة تخصه، وكل فقير عين تحدقُ فيه، يسأل أكثر ويطلب الفتاوى من كلِ فم، ويتعبُ ويشعر بهذا الجوع العميق الذي يأكلُ جسمَه، وهذا النعاس الذي يتسلطُ عليه، ولكنه يهزُ رأسَهُ مرارًا ويصحو بشدة أكبر، ويخشى لكن الكلام لم يفته، والنومُ لم يغلبهُ والجوع لم يهدْهُ٠٠
ويكونُ آخر الجالسين وينفضُ المجلس إلا منه ومن مساعديه الأقربين، الذين يطلب منهم الذهاب للنوم، لكنهم ينتظرونه٠٠ فيصرخ:
- اذهبوا وخذوا قسطًا من الراحة!

ويخلو المجلس إلا منه، ويستندُ إلى الجدار، ولا تزال أصابع الغرور تناوشُ روحه، ما زال بعد يعتبر نفسه كبيرًا وخطيرًا، فيتذكر كيف اندفعت من فمه قراراتٌ كبيرة بسرعة وبلا روية، وأنه قال كلمات قاسية خاصةً لذلك الفتى الذي طلب نصحه في مسألة شخصية وغضب منه وصاح (كيف تطلب مني هذا ونحن نجندُ الجيوشَ ونرسلها للموت؟ ألا تكفون عن الاهتمام بأنفسكم فقط؟!). ما ذنب الفتى في جيوشك وحملاتك؟ جاء للحاكم لأن أباه ظلمه. (لا أستطيع أن أنام الآن وأنا على هذا الخطأ الجسيم! يا ابن الخطاب لماذا تظن نفسك الكامل والمانع القاهر! أعرفُ بيتَ هذا الشاب المسكين الذي كدتُ أن أمسك رقبته!).

خرج من دار الحكم وراح يمشي في الأزقة مدققًا في أبواب البيوت.

كانت حشودٌ هائلة في ميدان مدينة المدائن، موسيقيون يعزفون وطبالون يدقون، وجمهور يدور راقصًا، وفتيات زاهيات بملابسهن يدرن، وخيول تنطلق وفرسانها يقفزون وينتزعون الذبائح، وجوائز الملك تنهمر على الجميع، وأكياس تـُقذف والحشد يتساقط عليها، والضحكات والزغاريد تتعالى..

فكر رستم: ها هي فارس تتشافى، وسياخوش ملقى في حفرة، والملكة في الحبس بلا عينيها المبصرتين، والمدن تتعافى وترسل قوادها وجنودها، وغدًا سوف تزحفُ قطاعاتٌ هائلةٌ قوية لطرد البدو العرب من سواد العراق..

سيدوس كلمات عمر بن الخطاب: لا نريد سوى سواد العراق ولكم أيها الفرس ما وراءه فدعونا نحمي إخوتنا!

بل أيها البدوي ليس لك أن تعتدي على أسيادك وسنقبض عليك في دارك!

هو أمير الجيوش وقائد القواد والبطل المظفر الذي سيطر على المدائن، لكن هذا الملك الجديد الذي دفعه بقوة أمراء البلد وحكام الأقاليم يوقف زحفه على الحكم، ويناوشه ويحاصره..

هذا الشاب النزق يريد الهجوم الشامل على العرب ويتهمه بالكسل!

وهو تعب من هذه الاحتفالات الباذخة ويمضي إلى جناحه يتبعه الهرمزان وثلة من الضباط.

عندما يحدق في هذا الرجل يرى شخصيةً قوية غريبة طلعت من بين جحافل الجنود البسيطة، وتعلمت بسرعة، وصعدت إلى الأشراف.

يتمعن في الأفق المليء بالنجوم وثمة شهب سريعة صغيرة تضرب الظلمات وتكسر رؤوس الشياطين.

يتساءل في روحه: من سيبقى؟ من سيرحل؟ لماذا توقفت الأمجادُ فجأة وأحيط به من قبل المنافسين من كل جانب؟ أين المجد الهائل المنتظر؟ بماذا هرف أولئك المنجمون؟!

يجلس على مقعده العالي ويحيطه الخدمُ والحرس ويجلس تحته ضباطه محدقين فيه، ينتظرون إشاراته.

يسأل فجأة:

- لماذا هذا الملك متسرع هكذا؟ أتعتقدون أنه يريد إبعادي عن العاصمة؟

يقول الهرمزان:

- نحن يا سيدي نريد تكاتفكما معًا. صاحب الجلالة لا يطيق أن يرى شخصًا بعظمتك قربه، تتحكم في الحشود والجنود حالما تظهر بينما هو لا يعرفه إلا الخاصة!

- كيف يكون التكاتف وهو يدفعني دفعًا إلى الجبهة والحرب حتى لا أرجع!

ينهض من فوق الكرسي ويحدق فيهم لحظة ثم يعاود النظر إلى السماء، وقد شحبت أنوارُ النجوم، ولم تزل صرخات الجمهور تتدفق عارمة.

يقول الهرمزان:

- سيدي حين تحقق انتصاراتك الكبرى على البدو وتجلبهم أسرى ولعلك تقتحم جزيرتهم القاحلة وتصل إلى حاكمهم المدعو عمر وتعتقله وتضعه في قفص وتجلبه إلى المدائن، وحينذاك سيكون هذا الملك مطيعًا لك وتابعًا.. انتصاراتك ستدوي في السماء كما أخبرك المجوس!
- إنني حين أنظر إلى هذه الحشود الهائلة من الجنود الذين تدفقت بهم أرض فارس المعطاء، كما تتدفق الأمُ بالحليب لطفلها الجائع، أقولُ أي بلد عظيمة لدينا، أي جبال من الكتب لدينا، أي قصور وغابات وأراض خضراء لا يحيط بها البصر، فكيف تتجرأ جحافل البدو هؤلاء على الاقتراب منا، كيف تخدش هذا الأسد النائم، أيكونون طامعين في بعض المعونات والأموال؟!
يجيب الضابط فرهاد:
- مولاي هؤلاء الناس مسهم شيءٌ من الجنون ويعتقدون أنهم سوف يهدون العالم كله إلى دينهم، بعد أن كانوا يرعون الإبل والماعز لقرون!
- إنني لا أعيرهم أي اهتمام جدي، نحن قد بعثنا بقادة لهم سوف يتكفلون بإرجاعهم إلى صحرائهم وحين يرفضون ذلك تأتيهم الطامة الكبرى.
يقول الهرمزان بقلق:
- سيدي يجب أن لا نستخف بهؤلاء الغزاة الجدد، إنهم يصارعون الرومان الآن في مساحة هائلة وقد أطلقوا عليهم جحافل من هذه القبائل البدوية الجائعة التي لم تر الزرع على امتداد البصر..
- الغريب أن حماقتهم دفعتهم لمصارعة الرومان والفرس معًا. إنني سوف أنتظر لكي يسحقهم الرومان أو يقللون من خطورتهم..

- 6 -

صحا من النوم فزعًا. خافت زوجته من تلك القفزة الغريبة، ومن تلك الأنفاس الحارقة المتصاعدة. قالت:

- ما بك يا عمر؟!

- هو حلمٌ مرعب. رأيتُ كأنني أغوص في تربةٍ رملية راحت تسحبني إلى جوفها، وثمة مشردون من العرب يجرون إلى كل مكان وسراب، ولا أحد يتطلع إليّ ويسحبني على كل صرخاتي العنيفة!

- منذ أن تحملت هذا الأمر وأنت لا تنام جيدًا!

بعدهُ الليلُ ناشرٌ ظلماتهِ والصبحُ لم يشرق بعد، وثمة نداء من بعيدٍ يتغلغلُ في ذرات الهواء: يا عمر! يا عمر!

اغتسل وتوضأ ومضى للمسجد وصلى.

طريق فارس يأخذه دون غيره من دروب الفتوح والبلدان. لا شيء سوى الرمال والكثبان والتلال وبعدها السماء.

ماذا حدث في العراق؟ لماذا هذا الهجسُ المر الثقيل المرير؟

اللقمة في الظهر لا تدخل في فمه، وأبناؤه يتطلعون إليه، والصحابة في المسجد يحيطون به، وهو يوسع المسجد ويبني حجرة واسعة للنظر في شؤون الناس، ويترك للعامة مكانًا آخر للأحاديث وروي الشعر والأيام. إنهم يصدعون رأسه وهو يريد أن يتفرغ للكثير من الأشياء. أبو عبيدة بن الجراح كما يبدو لم يسلم الرسالة لخالد ليقرأ السطور التي تعزله عن قيادة الجيوش، ويعود لحجمه الطبيعي بدلاً من هذا الانتفاخ! أبو عبيدة صلب وقوي لكنه رقيق، لماذا لا يكتمل الإنسان؟! هل هو مكتملٌ؟ بل هو ناقص كثيرًا خاصة في اندفاعه الشعوري المتفجر الذي لا يعرف كيف يكبحه؟ إنه لا يعرف أن يسكت عن الأخطاء! ولماذا يسكت؟! لو سكت انحشرت الجمراتُ في صدره!

لا بد أن يُفرغ جزيرة العرب من أي دين آخر وتلك قضية أخرى، لا يمكن أن يخرج الرجال ويفرغ البلد منهم ثم يترك غير المسلمين وراء ظهره ثم إنه سوف يعطيهم أراضيَ مماثلة خارج الجزيرة العربية وربما أفضل ويحتفظون بكل حقوقهم. لكن لماذا استرخى أبو عبيد الثقفي عن مراسلته؟ كان هذا الشاب شجاعًا ولكنه واثق من نفسه كثيرًا. الآن هو يدرك الخطأ الذي وقع فيه، لقد كان يحتاج إلى تجربة، إذن لماذا يعزل خالد ذا التجربة؟ إنه فيه رهق وتسرع! أهو هذا التسرع فعلاً أم لا تزال ضرباته لكَ وأنتما صبيان تؤلمك إلى الآن!

(لا والله لم أكرهه أبدًا لضربه أياي وتفوقه عليّ! كنتُ أتمنى أن يدخل الإسلام بعدي. وكانت ضربته في أُحد كريهة لكنها لم تجعلني وأنا الذي هربتُ أحقدُ عليه. كانت معركة رجال! بل لفتت تلك الحركة الملتفة حول الجبل والتي أخذت المسلمين على حين غرة نظري إليه، لكن صلفهُ لم يتبدل! لماذا لم أحسمْ موقفي منه وتنتابني مشاعرُ متناقضةٌ وأحس بأنه مصيب وإنه مخطئ؟!).

إن المساء قد حل وهذا هو طريق العراق ثانيةً. ثانية وثالثة ورابعة والنجوم والتلال والأصوات الخفية نفسها، كأن النهر يتدفق حوله، ويرى جثثًا تطفو، ويسمع أصوات حيوانات غريبة..

(وثمة تدافع رهيب، ونداءات استغاثة عربية حادة؟ يا إلهي ماذا حدث؟!).
يتقلبُ في نومه ولم تعد زوجته ترقدُ قربه. يحب أن يتزوج امرأة أخرى.. به طاقة كبيرة وحب لهؤلاء النساء، يفكر في ابنة علي بن أبي طالب.. كيف يمكن أن تجري الحياة الخطرة الكبرى بغير حنانهن؟
(لكن من تقبلني منهن؟ دع النساءَ الآن وفكر في جيوشك. أية هزيمة كبرى ستجعل الرومان والفرس يتوغلون في أرض العرب!).
هذا هو طريق العراق والرمل وضوء العصر يشعلُ الترابَ ويجعلهُ كفضةٍ. ثمة نقاطٌ سودٌ في الأفق. إنها نقاطٌ تنمو لحمًا وأشكالاً وأصواتًا متجهة إليه. ها هم ثلاثة رجال مشاة، كأنهم من الجيش، ولكن لماذا ملابسهم ممزقة، وهيئاتهم رثة؟
يقتربون وحين يرونه يصابون بالذعر، ويركضون بعيدًا.
يصرخُ بهم:
- تعالوا، ماذا حدث؟
ويرى ثللاً أخرى تهرب بعيدًا!
ثم اقترب رجلٌ يركب بعيرًا، ووقف عنده. كان الإبل منهكًا وفمه مليء بالزبد. نزل عروة بن زيد الخيل.. يا لهذا الوجه القاتم!
هذا رجلٌ من جيش أبي عبيد الثقفي، وهو متجهم!
قال بهدوء:
- سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين!
- وعليك السلام ما وراءك؟
- القصة محزنة ورهيبة يا عمر..!
الرجلُ وهو يتكلم كان ثمة ماءٌ ساخن يضطرب وراءه، كان الرجال الذين أرسلهم هناك وراء الرمال، كان عروة يتكلمُ ببرودٍ شديد، كأنه لم يأتِ من مذبحةٍ، وراح يسردُ عليه كيف غامر أبو عبيد بالجيش وعبر النهر والجسر إلى الضفة الأخرى، فانعزل عن الصحراء وحُوصر في شريط ضيق وتقدم إليه جيشٌ فارسي كثيف ومعه مجموعةٌ من الأفيالِ أرعبت الرجالَ وداستهم وحاول أبو عبيد أن يقتل كبيرها، وتوقف عروة عن الكلام وهو يرى عمر متغضن الوجه وكأنه كان يموت مع كل فارس يسقطُ في النهر، وكأنه كان يقترب من الفيل الأبيض الذي داس أبا عبيد!
- هل أكمل يا أمير المؤمنين؟!
- أكمل!
قالها ببطء شديد وكأن الحروف معدنٌ ملتهبٌ على لسانه.
وعبرا الأزقة ومضيا إلى المسجد والناس تحدق في عروة وتندفع إليه:
- ما هي الأخبار؟ هل انتصرنا!
وعروة صامت يحدقُ في عمر. فوقف عمر على منبر المسجد وقال بصوتٍ قوي تشوبه رنةُ حزنٍ عميق:
- بل هُزمنا وأبو عبيد غامر وعبر الجسر فطحنه الفرسُ بسيوفهم وأفيالهم!
ارتفعت غمغمةٌ رهيبةٌ وتعالت الأصوات:
- اخترت قائدًا غضًا ودفعته للمعركة!

- سلمت أكبادنا إلى رجلٍ متسرع!
- قلنا إن الفرس لا يكسرهم سوى قائد فذ هو خالد بن الوليد!
- أعده يا عمر إلى العراق ليذيق الفرس مرارات الهزيمة كما فعل سابقًا!
- لن يعيده لأنه يكرهه!
- إلى متى يا عمر تمضي بهذه السياسة؟
رؤوسٌ كثيرة تتطلع فيه، وجوهٌ صارمة متخشبة، وعيون دامعة، وعروة صاحب الخبر السيئ يحدقُ فيه مستغربًا.
قال عمر بهدوء:
- أعترف بخطأي وتسرعي. لقد اخترتُ أولَ رجل تطوع لأنكم سكتم وتكاسلتم. وقد قلتُ له أن لا يندفع وأن يمكث ولا يعبر النهر وأن يسمع أصحابه لكنه ركب رأسه، ولم أكن هناك لأمنعه!
وهذه واقعة لتعرفوا كم تحتاج الحرب مع فارسَ من رجالٍ ونساء. إنني كتبتُ لهم بأني لا أريد أن أعبر إلى بلادهم وإني أريد أن أضع جبلاً بيننا وبينهم لكنهم استهزؤوا بنا وغضبوا لأننا دسنا طرفهم وأخذنا جزءً من أهلنا، والآن لقد عزمتُ على طردهم من العراق شر طردة، فأريد مساعدتكم. اذهبوا لكل قبيلة عربية وأحضروا رجالها، اذهبوا لكلِ قريةٍ وقبيلة وأحضروا خيولها وإبلها.. هذا زمنٌ يكونُ العراق فيه عربيًا!

يتطلع خالد بن الوليد إلى الحشود. جنودٌ بعددِ الرمال. معدنٌ مصفحٌ يجابههُ بطول الأرض وعرضها. لم يسبق أن رأى جنودًا بهذه الكثرة، ولم يسبق أن رأى خيولاً كمياهِ البحر!
إمبراطور الروم غضب غضبًا شديدًا كما يبدو وأرسل كلَ عتاده ورجاله إلى هذه البقعة الفسيحة من سهل الأردن.
اسم خالد جعله يقشعر ويرتعب وفتح خزائنه وأطلق قواده نحوه.
وهو ليس معه سوى ربع هذا العدد، وجيشه احتشد بقواد متعددين مبعثرين تقاربوا وتجمعوا هنا..
إن الروم محصورون بين جبل وبحيرة، وليس لهم من هرب. مسلسلون كأناسٍ مجبرين على القتال، والعرب فوق خيول حرة ووراءهم الصحراء الفسيحة!
في هدأة السلاح الطويلة هذه بين مجزرتين يستريحُ في خيمةٍ واسعةٍ حاشدة بأدوات الراحة، وأهمها حبيبة الرحلة والفواكه والزهور.
لا يعرف أن يكون مثل أبي عبيدة بن الجراح زاهدًا، بل هو يتدفقُ حبًا بالحياة، يشربُ من ينابيعها كأنه لن يشرب ثانيةً، كأنه يخافُ أن تختطفه الحربُ، ولكن هذا الشرب عنيف حاد، يلتهم المرأة التهامًا ويفجر ينابيعها الداخلية بحب الحياة والأبناء، وهو يجمع النساء الجميلات كما يجمع عقودًا فريدة!
ولكن أبا عبيدة تغير فجأة عليه، خاصةً بعد أن انسحبوا من دمشق المفتوحة وتركوها أمام زحف الروم، هل ذلك بسبب رسالة عمر؟ أم أنه يخفي أمرًا لم تستطع ملامحهُ الطيبة أن تخفيه؟!
إن عمر يترصده منذ زمن، ولن يتركه مستريحًا في جحيم الحرب هذا! وهو له طرق فظة وخشنة في الإدارة تصلح للسوقة من الناس لا للأمراء مثله!
أبوعبيدة ليته كان مثله! هذا الرقيق الهادئ القوي الجبار في الحروب، مثل صلابة السلاح ورقة الورد، مثل الإعصار في لحظات النزال ومثل الطفل في لحظات السلام!
لماذا لا يستطيع أن يكون بهذا التماسك الأخلاقي؟ لأنه لا يعرف للزهد مكانًا! هؤلاء عامة فقراء وهو ابن أغنياء كل حياته نعم، وهو أجبرها إجبارًا أن تتعلم كل صنوف الشظف لكن في الحرب لا في السلم!
لكن الآن فليتمتع مع هذه الزوجة الرائعة الجمال، يغرف من زمن السلام الشاحب لحظة حب عارمةٍ!
في لحظة خاطفةٍ مروعة، بعد غضب الشتاء وأمطاره وأوحاله، وبعد الربيع وامتلاء الشجر بالثمار، وهبوب القيظ بشمسه اللاسعة وغباره، حان زمن الانقضاض على الروم والعرب التابعين بسرعة شديدة وعبر اختراق القلب السئم!
تندفع خيوله في عمق الصفوف الرومية، تضربُ سيوفَ الفرسان بشدةٍ، وتخترق رماحُهمُ أعناق المشاة المذهولين المضطربين، المقيدين، وتتوسع الفجوةُ في اللحم البشري والحديد، ومجموعات المسلمين تتقدم على طول خط الجبهة الواسع، لكن خيل الروم اندفعت عليهم من كل اتجاه، قفزت

السلاسل والجثث واقتحمت صفوفهم وجندلت بعضهم، وترنح آخرون، وتراجع كثيرون من هذا الهجوم المضاد الحيواني القوي··

ورأى خالد صفوفه تتراجع وخطوطه تتقطع والخيل الرومية تستولي على الميدان، والحشود الهائلة من المجندين التابعين للروم تتقدم وتزاحم الخيل من ورائها··

هذه اللحظة مفزعة، رؤوسُ الرجالِ كأنها نبتات تـُحصد بمناجل ذات شفرات قاطعة، وحديد فرسان الروم لا تنفذ فيه السيوف، ومشاتهم تزحفُ بلغاتها المتعددة وتبدو السلسلةُ التي تجمعهم كأنها قيود تجمعهم في الحياة والموت، وهو ينظرُ إلى صفوف العرب المتراجعة، وخيولهم التي تحمحم، فندت منه صرخةٌ عارمة:

- أيها الأنصار المدافعون··

ويقولها ثانية وينغمها، ويدعو المهاجرين، ويسمع صرخات تتجاوب مع ندائه وهو بين حلقة من السيوف والرماح ورؤوس الخيل:

- لبيك يا خالد!

ثلاثمائة من الفرسان الذين بايعوا على الموت يتقدمون كأنهم كتلة واحدة من النار المحمية تتغلغل في جسد الروم، تتوجه لأمكنة التزاحم والقوة وتخترقها، والرماح تصل إلى الرقاب، والسيوف تضرب رؤوس الخيل فتفزع وتسقط ويترنح الفرسان العرب مضرجين بدمائهم، تتعالى فوق صدورهم سيقان الخيول وهم يحركون آخر ما بقي من قوة واهنة فيهم، يقطعون رجلاً أو يغلغلون سيفًا في بطن، ويأتي آخرون بمثل ضراوتهم، تـُطاح برؤوسهم وتبدو كأن الأجسام الباقية لا تزال تقاتل، يخترقون الصفوف ويتوغلون في عمق المجموعات الرومية ويضربون العبيد العرب المسلسلين، وتحمحم خيول الروم وهي مصهورة بين الحشود الأمامية والخلفية··

النسوة العربيات في الخلف يمسكن السيوف والدفوف ويضربن ويهتفن ويتوعدن الهاربين بالقتل··

يفتح خالد فرجةً للخيول الرومانية كي تندفع وتهرب مطوحة بالفرسان··

ويرى العبيد والمسلسلون أنهم بلا قادة ولا فرسان والفرق العربية الفدائية تواصل الهجوم والتغلغل بشجاعة مذهلة عليهم، يتراجعون ويهربون بخطوط موحدة منهارين في قيعان المنخفضات···

كانت الساحة الشديدة التنظيم، ذات الأردية الملونة الجميلة، والرايات المرفوعة، قد تغيرت فغدت فوضى رهيبة ؛ أجساد مقطعة، وأنين في كل مكان، وخيام محروقة، وحشود من الأسرى، ومن المتاع والأكياس والخيول··

وخالد يتقدم بهدوء لا يخلو من أسى· هؤلاء بشر يئنون، وأولئك مرميون في قعر الوادي، لا تزال السلسلة الطويلة تجمع بعض جثثهم، فيما أفلتت أجسامٌ أخرى بعد أن فقدت سيقانها··

هؤلاء عطشى وجرحى وهو يدعو بعض الجند لإسعافهم، وحشدٌ من العرب يجمع الغنائم ويكدسها في تلال كبرى···

يرى أبا سفيان بن حرب يمشي بثياب عادية، يحاذيه، فيقول الرجل بحسد وغضب غريبين:

- لقد غلبتم الروم! من سوف يقف أمامكم!

يظهر أبو عبيدة بن الجراح أمامه ولا تزال نظراته حزينة، فيهتف به:

- ما بك يا أخي لا تفرح في مثل هذا اليوم؟!

كانت الساحة تـُخلى شيئًا فشيئًا من الضحايا، والأرضُ تستردُ ترابها وفضاءها المفتوح·

يقول أبو عبيدة بألم:

- والله إنه كلامٌ ثقيلٌ عليّ، ولكني لا بد أن أقوله لك يا أخي خالد، وكانت الرسالة عندي منذ فترة ولكن لم أشأ أن أطلعك عليها حتى لا تغتم ويفسدُ أمرك.. لقد عزلك عمر بن الخطاب عن القيادة!

حدق فيه خالد وأبو سفيان وبعض الجنود المحيطين بذهولٍ شديد. كانت الساحة لا تزال تنثُ ألمًا، والغبار يصفع الوجوهَ، والريح ما تزال تثرثر بلا مبالاةٍ مع الجثثِ والطيور الجارحة..

صرخ أبو سفيان:

- أهذا جزاء الخير والفعل الشجاع؟ ألا يريد عمر إلا أن يكون وحده صاحب الأمجاد..!

وغمغم الجنودُ وانفجر أحدهم بالبكاء.

تقلقت روحهُ كثيرًا، وصعدت دمعةٌ عزيزة إلى نافذة عينه ولم تطل، قال:

- يا أخي أبا عبيدة إنني أقدر هذا الصمت والانتظار فيك.. ولكن كان ينبغي أن تخبرني رسالة أمير المؤمنين قبل هذا.. وحينذاك كنتُ أنفذها بكل.. صبر وطاعة..

- لقد تحقق نصرٌ كبير بفضلك يا خالد. لم تعد أرض الشام مثلما كانت قبل... وكنتَ مهمًا في هذه المعركة فبارك الله فيك!

لم يعدْ راغبًا حتى بالنساء! يودُ لو يصرخ ويهز الفضاء!
(أيعزلني أنا؟!! جئتُ بفرسانه من قلب الصحراء وعواصف التراب والمخاوف تهاجمها من كلِ حدبٍ وصوب، وتلك الثلل من العرب مرعوبة من اسم فارس، فلم تعد ثمة مدينة تستعصي عليّ.. الحاميات تستسلم، والنهر يخضع، واسمي يجعل الكتائب تلقي السلاح! ولكن عمر بكرهه العميق لي لم يرد لاسم خالد أن يعلو.. من أنا الآن؟ مجرد تابع لقائد).
المرأة تتطلع إليه وهو يمشي بعصبية في الخيمة، تقدم له شرابًا فيتطلع إلى وجهها، ولا يراه، ويشعر بصدره يختنق، ويسمع نداءً من وراء القماش..
يبعد المرأة إلى خبائها الداخلي، ويطل ليرى ثلةً من القواد، جاءوا بخفية. تمعن في وجوههم فرأى أبا سفيان وابنه معاوية وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم. ثلة الدهاء كله تقتربُ منه! وهو لا يجد أفضل منها لكي ينفس عن صدره.
يقول معاوية:
- يجب أن تهدأ يا خالد فأمير المؤمنين لم يفعل ذلك إلا لمصلحة الناس..
تطلع في معاوية باستياء لكنه كتم غيظه!
قال أبو سفيان:
- كيف ذلك يا ولدي؟ أنت تعرف عمر يريد إذلال رؤوس قريش ويحد على خالد أشد الحقد، وتعرف كيف كان يحرض أبا بكر رحمه الله على خالد، وحاول أكثر من مرةٍ أن يعزله فتصدى له أبو بكر لأنه يعرف عظمة خالد، وهو قد استغل استراحة المحارب التي يقوم بها خالد بعد كل حرب وتعرفون كيف كنا في حروبنا نلهو قبلها وبعدها ولكن هؤلاء لا يعرفون للفرح والأنس سبيلاً!
ابتسم خالد شاعرًا ببعض الراحة وقال:
- لو سمعك عمر لجلدك!
قال أبو سفيان:
- لو أن أحدًا يزيح عمر هذا. لو أننا نستطيع أن نقحم أحدَ أقربائنا في هذا الأمر لعدنا لما كنا فيه!
صرخ عمرو:
- كف يا أبا سفيان عن هذا اللغو!
- إنني تعب من شيخوختي ومرضي وأنتم شباب وأمامكم عمرٌ مديدٌ ولكنكم لا تفكرون في الغد. انظروا إليه كيف يحاسب الناسَ على كل درهم والأموال تأتي من كلِ حدبٍ وصوب!
والتفت إلى خالد وتطلع في عينيه بقوة:
- أنت لها يا خالد، أنت لهذه المكانة العالية وما هي سوى خطبة أمام هؤلاء الجنود حتى تزحف على المدينة..
صرخ عمرو:

- أجننتَ يا شيخ؟ أي حمق هذا ولكنه يأس الشيوخ والمبعدين عن كل جاه. ماذا تقول يا معاوية في كلام أبيك؟ ألا تشعر بأنه زل زلة كبرى؟!

- ليست سوى حمية سريعة..

- وأنت ما رأيك؟

- عمر أمير المؤمنين!

سأل أبو سفيان خالدًا:

- وأنت أتخاف أن تمضي على رأس الكتائب نحو المدينة وتنتقم لهذه الإهانة الشديدة التي فعلها عمر؟

تخيل نفسه على رأس الجيش يتجه للمدينة ويرفع سيوفه في وجوه أهله، وحشود الناس تصرخ وتبكي، والروم تعود، والفرس تتوغل في الصحراء ثانيةً...

قال:

- لن يجري ذلك في عهد عمر!

يفكر عمر وهو يمشي في أزقة الظلام وبكاء الأطفال.
ها قد فعلها خالد وقوادك في العراق لم يفعلوها. حزرت دائمًا بهوان شأن الروم، وها هي ضربةٌ كبرى لن تقوم لهم قائمة بعدها. سجدتَ لله، واندفع حولك الناسُ غاضبين لعزل خالد!
لماذا يبكي الأطفال في الليل؟ أهو مرضٌ ألم به؟! هذا البيت ينبعثُ منه هذا الأنينُ الحادُ المؤلم، بيتٌ صغيرٌ من الحصى ولكن الحجر لا يصد حشرجةَ الصغار!
يقف عند الباب. لو رآه أحدٌ لحسبه لصًا يريد القفز على هذا الجدار! هل يخجل أن يطرقَ ويسأل؟ إنهم لا يعرفون أنك لا تكره خالدًا، مهما قلت لهم فهم يعودون لصغائر غريبة وبعيدة عن مشاعرك!
طرقَ البابَ بقوة!
ثمة شيءٌ يتحركُ في الخفاء، الأموالٌ التي تنهالُ على الناس تغيرهم، لم يعودوا مثل السابق بسطاءَ، طيبين، بل بدأ الخبثُ يتسللُ والطمع.. لماذا؟
فـُتح البابُ وأطلت امرأةٌ تضع طفلاً على صدرها وهو يئنُ!
- لماذا يبكي هذا الطفل؟!
دهشت المرأةُ وتطلعتْ فيه بغضب:
- أتطرق عليّ الباب في منتصف الليل لتسألني هذا السؤال الغريب يا رجل؟!
- نعم، إنني كل يومٍ أمرُ على هذا الزقاق، وأسمعُ هذا البكاءَ الذي يحزُ في نفسي فأتقطعُ يا امرأة، فإذا كان ينقصكم شيءٌ من زادٍ أو شراب فإنني مستعدٌ لجلبهِ لكم؟!
- لا ينقصنا شيءٌ والحمد لله ولعمر..
- إذن لماذا يبكي الأطفال؟ هل هناك أقسى من بكاءِ الأطفال يا ابنتي! لماذا تتركونهم يتألمون؟!
- لقد فرض عمر مالاً للأطفال الذين يتم فطامهم فقط ولهذا نسرعُ بهم لكي يتركوا صدورنا ويفطمون بسرعة فيفرض لهم عمر عطاءً!
اسودت الطرقُ في وجههِ تمامًا، ولم يعد ثمة نورٌ في السماء، وكأنه يسمعُ في الأمصارِ البعيدة صراخَ طفل على ثدي أمه لا يريد أن يهدأ وهو يتذوق الصبر ويكاد يتقيأ! ويتذكر كيف يضربه أبوه بقسوة، ولم يكن له أكثر إيلامًا من تلك الضربات التي يجثمُ بعدها تحت صخرة، أو ينزوي في زقاقٍ ليبكي. كان يشعرُ بهوانٍ عميقٍ لا قعر له! كان يرى نفسه وهو يُجَّر للعمل، ويُدفع وهو بعدُ غضٌ ناعم فتدخل الصخور في جلده!
ليدع هذا الألم جانبًا، كلُ حسرة وبقاء في الحزن هو إضاعة لوقت الناس من قبل الحاكم المسمى أمير المؤمنين! بل قلْ معذب الأطفال. وها هم الجنود يغرقون في الضفاف البعيدة عن أهلهم وأطفالهم، ألا بد من هذه الحرب الطاحنة، ألا بد أن يخرج العرب من محابسهم الصحراوية لفضاء العالم الواسع؟!
يمضي بقوة إلى بيته.

ينامُ ولا ينام، غفواتٌ أشبه بكوابيس، والملائكةُ تحيطُ بهِ تسألهُ عما جنت يداه، وهذه الجيوش التي تتدفق والجوع الذي يضرب البشر، والأطفال الذين يضجون متطلعين إليه، وخالد ومجموعة خفية تتحرك في الظلام بأيديها الخناجر وتنتظرهُ في زقاق معتم، وهو يحملُ القمحَ لعائلةٍ مشردة من الحرب، والملائكة تتحول إلى مصابيح تضيء وجوه الرجال المتحفزين، وتتساقط وجوههم على التراب، ويتساقط طحينٌ ويغدو مثل نور منتشر، و يتقدم الرجالُ الغاضبون ويغلغلون خناجرهم في بطنه وهو يتأوه لكنه يسلم الأكياس لأطفال فوق أسرة ضاحكين..

ينهض وهو يتحسس الدم، ولا شيء سوى العرق، ويفكر (كل شيءٍ سيكون الآن للعراق، سوف يزول الفرس من هناك، ونعقدُ سلامًا، لا أريد سوى الوقوف عند تلك الحدود، يكفي عذابًا للناس!).

يغتسل ويتوضأ، ويفكر (أرجو أن لا يقتلني أحدٌ من المسلمين!). يأكل بعض الخبز ويهجس (سيتدفقُ العربٌ من الجزيرة لكل السهول، سيتكاثرون هناك ويسعدون).

مشى إلى المسجد وحدق فيه الحشد الكبير، قال:

- سيكون كلامي اليوم عن الأطفال. رأيتُ امرأةً فطمت طفلها قبل الأوان، وقد كنتُ قد فرضتُ عطاءً لكل طفل بعد أن يُفطم غير مدرك لعاقبة تصرفي هذا يا قوم. ولعل صغارًا تأذوا هنا أو في الأمصار، فلا تفطم أمٌ ولدها قبل الأوان، والعطاء لكل الصغار منذ الولادة. فكفوا عن تحميل وزركم وطمعكم على أمير المؤمنين! قولوا هذا للولاة والناس..

كان يزدجرد فوق قمة العرش، متلألئلاً بالذهب والجواهر، يحدقُ في قوادهِ بغضب، وهم تحت العرش في مقاعدهم الضئيلة، يسمعون صراخه الذي يمطرهم بالتأنيب والوعيد!
رستم تتناوشه عواطفُ شتى، بغض شديد لملك الملوك هذا، واحتقار، وعدم اهتمام بصرخاته مفكرًا في أحلامه التي تتدفق عليه بصورة عجيبة مؤلمة، وفيها تلك الحشود من النسوة الساحرات، اللواتي يبعدنه عن الماء، ويحرقن البخور ويوجهنه نحو الصحراء (أيردن أن يكون مسلمًا؟)، إنه يعرف شيئًا قليلاً من العربية وها هو يطلب من أحد المترجمين أن يفك له رموز القرآن. وحين ترجم له بعض الآيات لم يجد فيها شيئًا يختلف عن ما يؤمن به ؛ الإله الواحد والجنة والنار، والتمسك بالأخلاق الحميدة، إذن لماذا يحاربون العرب؟
كان الهرمزان معه، ولكنه كان حانقًا بشدة:
- يا سيدي لا تقترب من هذا الكتاب.. ينبغي علينا أن نسد آذاننا عن نداءات هؤلاء البدو ونحرق خيامهم ونقطع أعضاءهم لأنهم تجرأوا على الاقتراب من حدودنا..
- لماذا أنت متوتر هكذا، نحن إمبراطورية الفرس.. سوف نغلبهم بكل اقتدار..
راح يحدق في الملك الذي كان ينظر إليه ويقول:
- ماذا بك يا قائد رستم؟ أصبحت تسرح بتفكيرك بعيدًا!
- يا سيدي كنتُ أفكر مستهينًا بهؤلاء العرب ولكن غلبهم للروم في اليرموك أفزعني كثيرًا. فرحتُ أفكر وأقول لماذا لا نعرف هؤلاء الأعداء جيدًا!
ضج المجلسُ بالهمس وصرخ يزدجرد:
- ما بك يا رستم أنت تحمل اسم بطلنا التاريخي وأنت قائد جيشنا، كنتُ أود أن تنطلق إلى جزيرة العرب وتأتي إليّ بهذا المدعو عمر بن الخطاب، بعد النصر الذي تحقق في معركة الجسر، وإذا بك تنزوي وتقرأ وتطلب مترجمين وأوراقًا من هؤلاء البدو اللصوص!
- يا سيدي لا بد لنا من التمهل والدرس ونفكر كيف نصد هذه الجحافل التي استهنا بها. معركة اليرموك كانت مخيفة، لقد سُحق الروم.. هؤلاء البدو يا سيدي قضوا على الروم..
اندفع يزدجرد بصوته عاليًا محاولاً كتم ذلك الإيقاع الحكيم له:
- أيها القائد البارد هذه مجرد ضربة حظ، ولا تنسَ خالد بن الوليد هذا الرجل الذي يتعامل مع السحر والجن. لو أن أحدًا منكم كان عابدًا عظيمًا للنار، ولو أنه استعان بأهورا مزدا في كل أعماله وضميره لكان لدينا أكثر من عشرة مثل خالد بن الوليد هذا..
امتقع لونُ وجههِ، وأحس بحرارةٍ تملأه. وأراد أن يصرخ (أيها التافه الذي أجلستك على العرش مجموعةٌ تافهة وحقيرة من الأمراء كرهًا لي، من أنت وما قيمتك؟!).
قال بهدوء مرير:
- بل هي هذه الأقوال التي في القرآن، هذه الكلمات التي تجمع هذه الحشود من البدو وتجعلها كسيلٍ جارف!
- هيا أخبرنا يا رستم عما تقرأه سرًا!

- ليس سرًا أيها الملك· لكن تلك الكلمات الغريبة وحدت هذا الغبار البشري، جعلته مثل رمح طويل يخترق الدول القديمة الصلدة· ولو أننا فرقناهم وخلقنا بينهم كلمات أخرى وأوجدنا أصدقاء لنا منهم·· لتمكنا من تمزيق صفوفهم، أما الاندفاع وراءهم في الصحارى فليس من الحكمة، إنه يجعلنا نقع في الفخ الذي يريدون نصبه لنا بين رمالهم الكثيفة الواسعة·

نهض يزدجرد من على عرشه فانتفض المجلس وصرخ مجددًا:

- لا أريد مثل هذه اللغة الحمقاء يا رستم· أقول لك اهجم عليهم أينما كانوا ومزقهم واجلب هذا البدوي المغرور عمر إليّ··!

انفض المجلسُ ووجد رستم نفسه مثقوبًا بألف سهم، وحشد من الضباط والأمراء يمر به وكأنه قطة صغيرة، وهو يخفي تلك الأنصال التي ثقبت عنقه وصدره، ويمشي نحو جناحه بغضب رهيب·

الفصل الثالث

يندفع الهرمزان في البرية الكالحة ومعه ثلةٌ من الفرسان. لا شيء سوى الغبار وأشباح الجبال البعيدة، وليس ثمة دروب، غير أن القرى تظهر قليلاً قليلاً، وبساط الخضرة يبدأ في الظهور.
حقول القمح تمتد إلى ما وراء الأفق، وتبدو نقاطٌ بيضاء بشرية في هذا البحر الأصفر. أدغال من أشجار الفواكه تظهر على الطريق المتربة المتعرجة. تبدأ حشودُ الفلاحين في الظهور ؛ هياكلٌ عظمية ووجوه متبعجة وخرائط من الخطوط المحفورة في العظام، وغوص في الروث والطين، وأكواخ رثة على مدى النظر، وغابة من عظام الأطفال والذباب والبعوض..
توقف الركبُ. حدقَ الهرمزان في الشيوخ من الرجال و النساء الذين يحنون ظهورهم تحت سياط الشمس. فكر (هرب الشباب وتواروا في الهضاب والجبال والبراري!).
استدعى جنديٌّ بعضَ الكهلة الذين جاءوا بهرولة يتعكزون على عظامهم. سأل:
- أين أبناؤكم أيها الرجال؟
يطالعونه وهم يضعون كفوفهم فوق عيونهم ليبصروه من خلال الضوء، الأسمال تفوحُ منها روائحُ كريهة. غمغموا، تاهت أصواتهم:
- سيدي لقد أُخذوا للتجنيد!
- سيدي ماذا يحدث.. أعدادٌ هائلة تؤخذ من الحقول ونحن لا نستطيع أن نقوم بالحصاد..!
- سيدي ماذا يجري، من هؤلاء الرعاع الذين غزوا أرضنا؟
لم يهتم الهرمزان بأسئلتهم، وسأل أحدهم عن الطريق للمدينة والقلعة، فجرى وأشار بعصا نحو دربٍ بين البساتين.
أشجارٌ كثيفةٌ تجري نحوهم، وروائح الفواكه شذية، وأصوات طيور كفرقٍ موسيقية عديدة، وهو يحلمُ أن يجلسَ بين المياه هنا، ويعزفَ، ويقرأ، لكن الحصان كان يقذف الحصى الصغيرة من تحت سنابكه، منطلقًا في الدرب المحصور بين البساتين، يقودهُ إلى أقدامِ مدينةٍ ملوثة بالقذارات والبيوت الصغيرة والحشود، والعساكرُ تجرجرُ طوابيرَ طويلةً من الشباب المُسلسلين، والسياط تتعالى والصيحات تتدفقُ من أفواهِ الآمرين..
يسحبونهم بين الحشود التي تتطلع فيهم، وتمد أيديها، وتتعالى صيحات، والسلسلة لا تتوقف، ويحدقُ في هذا العدد الضئيل مذهولاً، وفي هذه السحنات الغاضبة، السئمة من الخدمة الوطنية العظيمة..
ويفرقُ الجمعَ وهو يتوغلُ فيه بثلته: مطالعًا هؤلاء الباعة القابعين في دكاكينهم الضئيلة يساومون الزبائن بلا ملل.
في غرفته بالقلعة حدق في المدى الأخضر والأصفر للأرض الإيرانية الهائلة، وتساءل عن هذا الخطأ الذي يجعل هذه الأمة العريقة تنزف مثل هذا الشباب الرث، الذي لا يكاد يعرف ماذا يجري خلف قريته، غارقًا في السكر والإجرام، ينتهز أي فرصة للهروب إلى الجبال والمدن الأخرى.
قال للضباط:

- ثمة تهديد خطر يواجهنا! وأي أعداد ضئيلةٍ هذه، نريد من هذه المقاطعة عشرين ألف رجل وليس هنا سوى مئات! هيا انطلقوا لكل قرية واسحبوا من تقدرون عليه، لدينا معركة كبرى فيها حياة أو موت. لقد جاء الأشرار البدو مرةً أخرى! أتفهمون ذلك؟

عرض عليه أحد المسئولين أن يرتاح وأن يجلب له أطايب الطعام والنساء فحدق فيه بغضب:

- أتعتقد أنني جئت من أجل هذه الأمور، قطعتُ مسافة طويلةً بأمر من القائد العظيم رستم لكي أسكر وألهو؟!

كان مذهولاً من جلافتهم وبرودهم وذهابهم الكسول لتنفيذ الأوامر، وتساءل: كيف استطاع الملوك العظام أن يغزوا العالم وهم يدافعون الآن عن حدودهم؟

(لا بد أن يكون ذلك لتغير النجوم والأفلاك، فثمة دورات غريبة في السماء تجعل هذه الأشياء تحدث كما يقول القائد رستم. إنه يضع الخرائط ويتطلع كيف تغيرت الأفلاك ويقول لي: صعود العرب يرجع لهذا الفلك، لو أننا استطعنا أن نفهمه.. ويقول حتى القرآن يشير إلى هذا أما تسمعه يكرر (والنجم..)؟!).

ينزل إلى الجنود فيراهم في قاعة مغلقة ويسمع ضجيجهم. يطلب من الحراس فتح البوابة.

كان الجنود جالسين بتناثر في القاعة في أسمال رثة، وقد وقفوا حين أشار لهم الحراس بذلك.

هذه الوجوه يراها في كل مكان. عظمية، ملأى بالشعر، ذات عيون خاشعة هادئة طيبة.

يقترب منها، يقول وهو يمسك بعضَ أكتافها:

- يا جند فارس.. يا جنود ملك الملوك.. ما بال هذا الحزن والخوف في وجوهكم؟ نريدكم أن ترفعوا هاماتكم وتندفعوا للقتال.. يواجهنا خصمٌ غريب رث جائع قادم من أعماق الصحراء لا يملك شيئًا ويطمع في حقولكم ونسائكم وحيواناتكم.. فلا بد أن تتمسكوا بعقيدة زرادشت نبيكم العظيم الذي يقول (أنا الذي بصلاتي أطرد عنك، أيها الرب الحكيم، العاصي وعقل السوء. وأحمي العائلة والقرية من الشر الذي يكمنُ عن قريب.. وأدفعُ الظالمين من القبيلة، ومن مرعى القطعان أسوأ الرعيان)() ها هم أسوأ الرعيان قد جاءوا ليأخذوا الزرع وبقرة القرية..!

() من كتاب ترانيم زرادشت، الألف كتاب الثاني.

رستم يحلم٠
موجٌ كثيفٌ يحيط به وهو يغوص يغوصُ إلى قعر الماء، حصى حوله، وفقاقيع تتدفقُ، وصوت المنجم يدعوه لعدم خوض الماء، والهواء يخرج من صدره على هيئة سهام تحفر في اللحم٠٠
ويستيقظ مرعوبًا!
السرير ذو الأعمدة الذهبية لا يمنع عنه الكوابيس٠
اغتسل طويلاً داخل الماء المعطر، وتحاوطته الجواري وتغلغلت فيه العطور، ولم يزل رذاذ الكابوس ينثر في بصره بقعًا من عتمة وألم٠ في الحديقة، وفي جلسة النبيذ بين الزهر والنغم، وفي هدأة المساء المقمر، تتدافع في رأسه الأفكار مندفعة ضاجة بزخم الماء القاتل٠٠
(هل هناك اختلاف بين ترانيم زرادشت وقرآن محمد؟ نبيان يسعيان لعبادة إله واحد، ونشر الأخلاق الفاضلة٠٠ لكن لماذا عمر هذا يدفع هذه الجحافل للاعتداء على الدولة العظيمة٠٠ هذه الدولة التي شادها الملوك عبر القرون وازدهرت بالحضارة٠٠ هل يتصور هؤلاء الرعاة الانتصار علينا؟ ربما! ثم سيتغلغلون في شرايين الدولة مثل النمل الجائع للسكر٠٠ سأدعهم طويلاً يتآكلون في صحرائهم وأطردهم عن الأراضي الخصبة٠٠)٠
يصغي لعزف الجواري وغنائهن الجميل وهو متمدد في ضوء القمر، يعصر دم العنب في شرايينه، ويمزج الغيوم ببصره وفكره٠
(هذا النجم الغريب الذي ظهر يخيفني٠ يشع كدائرةٍ مبهرةٍ من الضوء ولا يريد أن يغرب! ثمة شيءٌ مخيف في الأفلاك، ولعل أهريمان يتحرك عبر الصحراء من خلال الحشود البدوية لينقض على مملكة النور٠٠!)٠
يهمس الحاجب له بأن الهرمزان قد وصل٠
كان وجه قائده معتمًا جامدًا٠ ولم تنفع ملابسه العسكرية الباذخة في إضفاء شيء من الحيوية عليه٠ لقد غاب مدة طويلة في أعماق الإمبراطورية وكأنه عاد زاحفًا من قبو أو تنور مليءٍ بالرماد٠
كان تقريره رهيبًا:
- يا سيدي المعظم لم أجد سوى قرىً نازفة وريف واسع يخيم عليه الكهول والعجزة، أما المدن فحشود من الفقراء والهاربين والتجار الجشعين٠ سقنا فرقًا تقبض على الشبان والرجال الأقوياء، تنتزعهم من بين البيوت وكهوف الجبال ومستنقعات الأنهار، والآن تكون جيشٌ كبيرٌ٠٠ لكن أي جيش!
انقبض صدره أكثر، ووجه الهرمزان الصلد الشبيه بتمثال لقائد عسكري من القدماء بدا مشقوقًا٠ أين هي رؤى المنجمين العظيمة! (لن أشارك في هذا الحرب إلا بعد أن أحشد أكبر جيش في تاريخ الفرس!)٠
- أطمئن أيها القائد إيران تزخرُ بالطاقات، وهي تلد الرجال مثلما تلد النساء الأطفال٠٠ حشودٌ وراء حشود لا تعرف التوقف ومع كل غزاة تسكب الدم! تعال اشرب قليلاً من هذا النبيذ!

عمر على رأس جيش متوغلٍ في الصحراء·
خواطرهُ مبلبلةٌ، وهو يتركُ المدينةَ، ورغم أن عليًا بن أبي طالب قعد مكانه، إلا أنه أحسَّ بأن ثمة فراغاً وراءه· كأنه تحول إلى قائد عسكري لا إلى حاكم عام· وسيغدو منغمرًا بهذه الحرب ويترك شؤون المسلمين الكثيرة الأخرى، وحاجات الفقراء ستتيه بين الولاة وغياب الخليفة··
الجيشُ واسعُ الصفوف، كثيفُ الجنود، والقبائلُ النائمةُ في الصحراء تستيقظ، والخيام المنتشرة في البراري تتحولُ إلى هتاف وتدفقٍ من العظام والسهام، والصعاليك يتركون كهوفهم وواحاتهم ويلتحقون به، ويبدو الراجلة أكثر هذا الجمع العسكري المتدفق وهم يمشون بسرعة ولكن لا يلحقون بالفرسان، والركب لا يتوقف··
الليلُ يتحولُ إلى نيرانٍ كثيرة كثيفة، كأن الصحراءَ صارت حشدًا من النجوم، والصلوات تملأ الرمال رجالاً ونساءً، والرملُ يغدو ساحات للموائد، وتتراص الحشودُ وتندفعُ أيديهم في الثريد، وتتعالى الكلماتُ والأشعارُ والضحكات·
وعمر تتزايد هواجسهُ ويشعر الصحابةُ والقواد المحيطون بهواجسه، فيتجرأ أحدهم على القول:
- ألا جلست يا أمير المؤمنين في المدينة وتركتَ أمر الحرب هذه؟
قال بقوة:
- أرسلتُ رجلاً فتيًا لحرب كبيرة فاستشهد ولا أريد أن أخاطر بآخر··
- ألا يوجد في الصحابة من تثق به؟
فكرهُ مشغولٌ، والرسلُ تأتي وتذهب، خالد سار بهدوء وطواعية في أمر أبي عبيدة بن الجراح، جيوشُ الشام تتوغلُ في كلِ مكان، يرسلُ طالبًا مددًا من جيوشهم، رسالةٌ تصل وتخبره بمجيء مدد هام، وحتى في هذا الليل الصحراوي والحشودُ تحيطُ به، يتجول بين ثلل الجنود، ويرى كيف ينامون، ويسمعُ ماذا يقولون عن الحرب، وهو بينهم هيئة معروفة واضحة، وينام أخيرًا حين يحس بالمعسكر المتمدد الأطراف المحروس جيدًا، قد خلد للنوم··
يتساءلُ أنهم يحبونه ويخافون منه ولا يريدونه بينهم، فلماذا؟ هل لا يثقون بقدرته؟ هل هو أقل شأنًا من خالد؟ هل يمكن أن يخطئ في خطط الحرب مثل أبو عبيد الثقفي؟ وحينئذٍ يكون الفرسُ قد غلبوا مرتين، ذهاب خليفة المسلمين وانتصارهم العسكري، فتلك إذن مغامرة محفوفة بالمخاطر·· وحينئذٍ ينتهزها فرصة أي قائد طموح كخالد ويذل رقاب الناس!
ماذا يفعل؟ كيف يتراجع؟ لو أنه تراجع الآن سوف يحبّطون، ويقولون هذا هو الخليفة الشجاع حين اقترب من الحدود خاف! وكلما توغل في الأرض صعبت الردة إلى الوراء وترك الميدان!
الصباحُ مشرقٌ ومشعٌ في الصحراء، وجموع المصلين الجنود والقواد في صفوف واحدة كأنهم بحر من الموج الأبيض، والخيول تصهل، وغيومُ الربيع تمضي في السماء بدأبٍ لا يعرف الخشوع··
وأصبح السؤال كبيرًا في صدره حتى ضاق به وجمع حوله بعض الصحابة والقواد:

- أيها الإخوان إنني لا أريد أن أحبسكم عما في صدري من ضيق وقلق، فلا أرى خروجي معكم صوابًا، فماذا ترون أنتم؟!
تطلع فيه الجمع بهدوء بالغ، وبفرح لا يخفى، فصاح:
- أترونني ثقيلاً عليكم إلى هذا الحد؟!
رد أحدهم:
- لا ولكن نخشى عليك ومقامك في المدينة أفضل··
وأضاف آخر:
- تكون في المدينة وتعرف نتائج الحرب أولاً بأول وتسعفنا بالمدد وبالمؤن··
وأضاف ثالث:
- ولعل بعض الأمصار تنتفضُ إذا سمعت أنك أُصبتَ بشيء، وتكون في المدينة مداريًا الجميع··
قال بأسى:
- ولكني كنتُ عزمتُ عزمًا شديدًا على الجهاد وفداء الناس·· والآن سيقولون إنني جبنتُ وآثرت العافية، وربما أصيب الجندُ بشيٍ من ذلك!
تحدثوا جميعًا:
- تستطيع أن تخاطب الجمع··
كانت ثلةٌ صغيرةٌ من الفرسان والخيول تقتربُ من المعسكر، فصمتوا وتطلعوا إلى قائدها الذي نزل وتوجه للخليفة مباشرة· سلمه رسالة من سعد بن أبي وقاص· عمر يرحبُ بالقائد وجماعته ويجلسهم ويأمرُ لهم بزادٍ وشراب· ويفضُ الرسالةَ وهو يسأل:
- ولكن من غيري أندبه لهذه المهمة العسيرة؟
قال أحدهم:
- وجدته يا أمير المؤمنين!
- من هو؟
- هو سعد مرسل هذه الرسالة جاء لقدره !

في بستانه جلس يزدجرد في جوسق يتطلع إلى الينابيع والشجر والطيور وهو متوتر، لا يأبه بحشد الخدم والنساء الذي يقف بين يديه.

يقول في نفسه بحدة (ماذا ينتظر رستم هذا؟ يتلكأ في الحرب ويمشي ببطءٍ شديد وكأنه يريد أن يدع العربَ حدود العراق ويعودون إلى بلادهم! لا بد من عزلهِ ومعاقبته.. حتى الآن لم أفعل أي شيء كبير في حكمي! ولا يزال الأوصياء يتحكمون في خطواتي مثلما جلبوني إلى هنا وكنتُ نسيًا منسيا!).

سمع هينمةً وحركةً في دروب البستان، وجاءه فيروز بن سابور مسرعًا:

- مولاي الملك الأعظم حضر رستم ومعه جماعة كبيرة من قواده!

بوغت يزدجرد ونهض بذعر:

- أهم مسلحون وفي عيونهم الشر؟!

- بل هم هادئون ولكن يتقدمون مثل المردة!

- ولماذا سمح لهم الحرس بالدخول؟ أي حرس هذا!

- مولاي اهدأ.. ولا تدعهم يستفزونك..

- استدعِ كتيبةَ الحرس فورًا!

- لا يمكن ذلك الآن.. اجلس واسترخ ولا تتكلم بعصبية..

تقدم رستم وقواده في القاعة ببطءٍ وأبهة، ملابسهم العسكرية تتساقطُ عليها أشعةُ الشمس بوهج، ورستم يقتربُ منه بلا انحناء، قال:

- لقد استدعيتني مرةً أخرى يا يزدجرد، ماذا تريد؟!

حدقَ فيه بغضب، جردهُ من كل ألقابه أمام هذا الجمع، فنظر إلى فيروز الذي طالعه بنظرة ذات معنى فهدأ وقال:

- حشدت كل هذه القوات في المدائن ولم تخرج بعد لقتال العرب؟!

- سوف أخرج حين أريد فأنا أخطط لذلك طويلاً وبتأنٍ شديد، ولا أريد منك أن تزعجني في كل لحظة..

- أنا الملك الأعظم ومن حقي أن آمرك وأستدعيك!

- أنت مجرد رجل نكرة أُحضر إلى هذا العرش. لم يجدْ الأوصياء وموظفو القصر حين خلا العرش سوى أن يبحثوا عن أحدٍ من أبناء برويز، فعثروا في الدفاتر أن أباك شهريار قد نام مع إحدى الجواري وأنجب منها ابنًا هو أنت، وقد قال المنجمون إن إيران سوف تنتهي على يد حاكم به جزء ناقص من جسمه وأظنهم يقصدونك، وقد دعت هذه النبوءةُ الملكَ برويز أن يبعدكَ طويلاً بل أن يخفيكَ، وفي هذه السنواتِ السوداء تم إحضارك وإجلاسك على العرش ولم تكتف بذلك بل رحتَ تتصور أنك ملكٌ حقيقي، وتزعجنا بطلباتك وتدخلاتك، ونحن نواجه عدوًا مخيفًا خطرًا!

حدثَ هدوءٌ رهيبٌ في القاعة، وحانت التفاتاتٌ عديدة للورقِ اليابسِ المتساقط وراء الزجاج.

كان أفضل ليزدجرد أن يـُقطّعَ ولا أن يسمعَ تلك الكلمات التي ألقتهُ في بحرٍ من صورِ الذكرياتِ الخاطفة ؛ وجوده في تلك المدينة الضائعة وراء الجبال، القصر الحبس الذي عاش فيه، يحنُ للخروج والصيد، وثلةُ الحرس التي لم تكن تحرسهُ بل تسجنهُ وتعذبه، ولا يعرف سببًا لكلِ هذا الأذى، وأبوه رحل دون أن يفك له تلك الألغازَ وظن أنه ارتكبَ جريمةً قبل أن يُولد، وحين جرى الإفراج عنه وأُجلس في عربةٍ ملكية ذهبية تجرها عدةُ خيول، وواكبته فرقةٌ من حرس الشرف ذوي الملابس الزاهية، والوجوه الوسيمة، وقربته من مجمع القصور في المدائن، وأُدخل إيوان كسرى أنو شروان، وقعد على كرسي العرش العظيم والأشراف تحته مجموعةٌ من النمل، أُصيب بسكرةِ حكمٍ رهيبة، فهو لا ينام، ولا يقرب الشراب الذي يحبه، لأنه يزيد عرجه، ويقربه من السقوط بين هذه السلالم الفخمة والطوابق والردهات الواسعة الحدائق الغناء الواسعة، وهولا يكادُ يبصرُ حين يفتح الصناديق الجميلة الممتلئة بالجواهر وأكداس القطع الذهبية٠٠ وكان كل شيء يمضي في طريق الحلم الأخضر حتى سمع بمحمد وعمر٠٠

الآن هذا رستم يدخلُ في جسدهِ خناجرُ مسمومةٌ وهو يريد أن يثور لكنه يكتم صرخاته في روحه، وهو ممتقع الوجه، لا بد له أن يرد على هذه الوقاحة الفظيعة!

- إنك تصرخ دائمًا يا رستم٠٠ ونحن في مأزق كبير٠٠ هذا العدو يقترب٠٠ فلا تعطي صورًا مشوهة لملكك الأعظم أيها القائد، أنا من سلالة برويز الجليل٠٠ وكلامك هذا يقتلُ الروحَ المعنويةَ لدى القادة الكبار هؤلاء٠٠ أنا أعذرك بعض العذر لأنك منفعل وقادم من جيشك٠٠ ولكنني صبرتُ كثيرًا على وقاحة هؤلاء العرب الذين يريدون إرسال رسائل لنا، وتقديم دعاة يدعوننا للإسلام والسلام!

- انتظر رسائلهم واسمع لرسلهم ورد عليها ودعنا نعد أنفسنا على مهل وصبر ونحشد لهم عدة وعددًا تكنسهم وتلقي بهم كقمامةٍ في الصحراء٠ هذه هي السياسة وليس الاندفاع والتسرع وهذه الطلبات الدائمة التي تدعوني لها!

مضى بعاصفتهِ العسكرية، والرعبُ يخيمُ على من في القاعة، لكن يزدجرد لم يكن خائفًا، بل راح يفكر كيف يتخلص من رستم بأسرع طريقةٍ ممكنة٠

كان الهرمزان يحدقُ من نافذتهِ إلى الريفِ الواسع الممتد أمامه. أشجارُ الفاكهة والورد والنخيل والجداول وأشباح الجبال البعيدة لم تكن تتراءى له. كانت أصواتٌ عظيمةٌ تضطربُ في روحهِ وسمعه. حشودُ الجنود وصرخاتُ الآمرين والأفيال التي تُغذى وتدرب، والسيوفُ التي تـُضرب وتصقل، والقوافل التي تنطلق إلى دروب الحرب..

يتطلعُ إلى زوجته وأبنائه، وهم يأكلون ويتهامسون، ويطبع وجوههم في نفسه، ويهتف داخلها (هل سأراهم ثانيةً؟ هل سأعود إلى هذه الدار الجميلة وأضمهم إلى صدري أم ستغيبني حفرةٌ ما، أو يأخذني النهر وتأكلني الأسماك فلا تصعد روحي إلى السماء بعد أن يعرض جسدي لأمنا الشمس العظيمة؟ آه ماذا ستفعلُ الأيامُ بنا؟!).

جلس على مقعد رفيع وجاء أبناؤه يحيونه ويدعونه، كلهم يصافحه ويقبل يده، ويؤدي دوره ويتوارى في غرفته. ثم دنت زوجته وقبلت يده، وقدمت له حلته فنهض وألبسته إياها، فطالع شكله في المرآة فوجد نفسه مهيبًا.

نزل ووجد حراسه وعربته، فانطلقت به في الطرق الريفية شبه الخالية نحو المدينة، وألقى نظرة شبه أخيرة على قصره، الذي بدا كحمامةٍ بيضاء وسط دغلٍ كثيفٍ من الشجر، ثم توارى فجأة والعربةُ تنزلُ في طريق منخفض، وجاءت ضجةُ المدائن وحشود العربات والزحام في الأسواق، وطوابيرُ الجنودِ تنبعُ من كلِ مكان وتسير في كل اتجاه، فكأن الأرض تنبعُ سلاحًا وأصواتًا تدمدم.

أُصيبت عجلةُ العربة بكسر وكادت أن تنقلب. التم حشدٌ من الناس حولهم. نظروا إليه صامتين متخشبين، صاح:

- أليس منكم من يؤدي خدمة إليّ؟!

جر الجنود بعضهم إليه:

- ألستَ صانعًا؟

- لا يا سيدي، أنا عابر سبيل..

حدق في الناس فرأى أسمالاً وهياكل عظمية. قال أحدهم:

- ثمة حداد قريب من هنا!

- أحضره فورًا!

وتساءل عن هذه الحرب الملعونة التي تجعلهُ يسحبُ الناسَ من أسرتهم، وحقولهم، ومن أحضان زوجاتهم، ويقذفُ بهم في تنورها الواسع اللاهب، ثم يتعطلُ بسببِ عجلة مكسورة، وربما لو انكسرت وهو في طريقه الريفي المتعدد الدروب لقـُذف في قعرِ وادٍ وانتهى واستراح!

لكن الآلهة تدخره لأمرٍ عظيم، ربما ليشهد نصرًا عظيمًا، أو لربما يضعهُ يزدجرد حاكما لإقليم، ولعله يصير ملكًا، فيتغير موقعه من الريف إلى قلب المدن، ولعله يندفع في المشرق غازيًا، جالبًا الثروات لفارس!

قال الجندي:

- سيدي أحضرنا الصانع..

رأى رجلاً قصيرًا يتقدم نحو العجلة، وراح يشتغل بدأب ومهارة حتى نهضت العربة ثانية. وجلس فيها وتطلع إلى الحداد بطرف عينه، قال الرجل:

- يا سيدي ألن تعطيني شيئًا على عملي؟!

- أنت قدمت خدمة يسيرة للجيش يا رجل، فهذا أفضل أجر لك!

- ولكنني لا أعمل للجيش، أنا رجلٌ حر!

- اصمت وإلا صادرت دكانك!

وحدق فيه الجنود بحرابهم، فمضى الرجل وهو يهتز غاضبًا.

سار المغيرةُ بن شعبة في شوارع مدينة المدائن. كان يسير معه ثلةٌ من القواد العرب.
استدعاهم سعد بن أبي وقاص وهم جالسون في خيمة في معسكره الواسع، ودهشوا لأن اختياره وقع عليهم، وحدّق في بعضهم ببعض، وتساءلوا إذا ما كانت هيآتهم مقبولة للدخول على ملك فارس.
وكان المغيرة أشدهم تأملاً، وأيقن بأن مكوثه داخل الحشود المغمورة قد آن له أن ينتهي، فذلك الدبيب الطويل مع الأعراب والجثوم في الخيام وأطلال مدينة بابل سوف ينتهي في لحظة ما وتتدفق الغنائم من كلِ حدبٍ وصوب، ويصبحُ شيئًا وليس نسيًا منسيًا.
تأمل بيوت المدائن الفخمة وشوارعها الواسعة وأشجارها وأسواقها العامرة بالدكاكين المفتوحة والممتلئة بالبضائع، وحشودها من الفرسان والمارة والنساء الجميلات والعاملين، فأحس بلحظة من الخجل لملابسه التي لم تزل بعد معفرة ومكرمشة، ورأى الناس يحدقون بهم وكأنهم يرون ضببةً قادمة من الصحراء تريد العيش في حديقة.
وازداد خجله وهو يسأل بفارسية مكسرة عن قصر الملك! ورأى بضعة أشخاص يتحلقون بهم ويضحكون على ثيابهم:
- هذا الأعرابي الجلف يسأل عن قصر ملك الملوك!
- من هؤلاء؟ أيريدون شراء بعض الخيول من إسطبلات القصر؟
- انظروا إلى أحدهم إنه يمشي حافيًا!
- بل طالعوا هذه الثياب الغريبة المتسخة!
قال لهم المغيرة وشيءٌ من الغضب يتصاعدُ في نفسه:
- أيها الناس إننا رسلُ أمير المؤمنين إلى كسرى!
ولم يتوقف الضحكُ، وازداد الجمع المحيط بهم عددًا، وارتفع بعض الأطفال فوق الأكتاف وتمعنوا في الرجال الغرباء، وتحدثوا بصخب:
- هذا الرجل يعرف الفارسية..
- يتحدث عن كسرى..!
- الملك الآن يزدجرد..
- يقول إنهم رسل من ملك العرب، هذا البدوي الذي يريد أخذ بلادنا..
تحدث لهم المغيرة عن شيء من تاريخهم الذي يعرف بعضه، رافعًا رأسه بأنفه بينهم، وقال:
- أريدُ رجلاً مسئولاً بينكم، أو أن تدلوني على القصر!
انفرجت الدائرةُ وسكتت الأصوات وراحت الوجوهُ تحدق في هذا البدوي القوي المتحدث بأدب وجرأة، وقادهم جندي إلى شوارع واسعة تحف بها أشجار كثيفة، ورأوا حدائق مذهلة، ثم لاح بناءٌ عملاق أبيض في مساحة واسعة، فبدا لهم كجبل محاط بتلال خضراء من الشجر.
تجمدوا عند البوابة، ولمس المغيرة حديدها الصلد وتخللت أصابعه قضبانها، ورأى الدروب الداخلية الواسعة، وحشودَ الجنود الشاكية السلاح، والخيولَ الأصيلة التي يركبها الحرس، ورأى

تمتمة أصحابه وارتجافات شفاههم، وسمعهم ينبسون:
- أنحن نحلم، أهذا بناء.. أشيده بشرٌ؟!
- أيمكن أن نقابل صاحب هذا القصر، أيسمحون لنا برؤيته؟
- قل هل لنا بغلبته!!
قال المغيرة بصوت عالٍ:
- بل انظروا للناس كيف هم متفرقون!
جاءهم آمر ووراءه ثلة من حراس، وتمعن في خطابهم الذي سلمه المغيرة، وطلب من الحراس أن يفتحوا لهم البوابة، وشعر المغيرة بأن كل ما يحيطُ به هو زائف، وتافه، فهذه الجدران العالية التي ترتفع إلى السماء، وأواني الذهب والرياش والممرات الواسعة المصقولة، والقاعات الواسعة ذات السقوف البعيدة، والثريات المتدلية، والسجاجيد الباذخة، هي كلها أقل قيمة من خيمته ومن بيته البسيط ومن ثلته التي تتساند وتتدفأ بأجسادها معًا.
هنا يبدو كل شيء متعاليًا مغرورًا بلا ابتسامة أو لفتة أو نظرة من أحد، هنا أشياء فخمة لكن أين الناس، أين اللمسة باليد الحانية، أو العناق والمصافحة الحارة؟!
وكلما قابلهم جمعٌ ما في هذه الممرات الباذخة كلما أحس بهم جزءً من الجدران والسجاجيد، ووجوههم منطفئة في دواخل هذه الأشياء الهائلة، حتى دخلوا قاعة العرش، حيث هناك تتجمع الأنوار وتحتشد الثريات وتصرخ السجاجيد بألوانها، ويظهر عرشٌ عال مصبوغ بالذهب، فكأنه صفار بيضةٍ كبيرة.
هناك رجلٌ ما فوق ذلك الكرسي المذهب، ذو تاج أحمر مشع، وكأنه عروس من عرائس الأكراد الملونة بكل أنواع الثياب والأصباغ. فشعر بأنه يريد أن يضحك أكثر مما يريدونه أن يرهب ويخاف.
قال لهم ذلك الجالس فوق العرش بلغة هادئة صلدة:
- اجلسوا!
جلسوا في مواقعهم على البلاط، فسمعوا أصوات الجمع تتعالى بين همس وضحك مكتوم. وقال الملك:
- اجلسوا على الكراسي أيها الرسل، ولا تقعدوا على الأرض!
فقال رئيس الوفد:
- نحن لا نحب الجلوس على هذه الكراسي، جلسة الأرض أكثر راحة!
سأل يزدجرد بوقاحة:
- ماذا تريدون أيها الرعاة من ملك الملوك.. أتريدون شراء بعض الإبل؟
فقال رئيس الوفد بصرامة:
- نحن جئناك أيها الملك رسلاً من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، وهو يدعوك إلى ثلاثة أشياء، فإما أن تقبل الإسلام ونصير إخوةً في الدين وتنسحب جيوشنا ونتعاون على البر والتقوى، وإما أن تدفعوا ضريبةً لنا، أو أن تختاروا الحرب..
رد يزدجرد بغضب:
- أية وقاحة هذه؟ أيجرؤ رجلٌ في بوادي العرب أن يبعث برسالة تافهة مثل هذه؟ أتعرف يا رجل كيف كنا نحول بعض قبائل العرب إلى حراس لنا على الماشية وعلى الحدود، وكيف كنا نختار

من بينهم خدمًا وملوكًا بأثمان، ونتجول في بلادهم كما نتجول في حظائرنا بين الغنم والخيول؟ شيخ القبيلة هذا ندفع له لكي يقتل أقرباءه في قبيلة أخرى، وذاك يغزو فيجلب لنا نساء العرب الصحراويات لكي يحلبن الحليب لأميراتنا، وإذا تمردت بعض القبائل توغلنا فيهم بجيوشنا فقطعنا رؤوسهم وحرقنا مراعيهم، فما الذي تغير حتى رفعتم رؤوسكم هذه الملتفة بهذه الثياب المغبرة، وتركتم مص أثداء الجمال، وتركتم قصع القمل، لتناطحوا ملوك العالم وتتحدوا أسياده الكبار وأنتم شذاذ آفاق ولصوص ليل؟!

ولما سكت رئيس الوفد وجثمت لحظة صمت رهيبة، انفرجت فيها وجوه الحاشية الرابضة تحت عرش يزدجرد، ولوت شفاهها سخرية واستنكارًا، تقدم المغيرة قليلاً إلى الأمام وقال:

- أيها الملك إن الذي غيرنا هو رجل بسيطٌ من بيننا وحدنا، علمنا أشياء عظيمة لم نكن نعرفها، أذاب تلك العداوات بيننا، وجعلنا نتوجه لإخوتنا في كل مكان كي نرفع عنهم عبء ظلمكم الذي تحدثت عنه بنفسك، فنجعل الراعي مثل السيد، والخادم مثل الأمير، وننزع هذا السوط الذي تحفرونه على ظهور الناس!

وقف يزدجرد فوقفت القاعة كلها، وارتجفت الجدران واهتز السقف الفخم، وصاح وهو يوجه إصبعه نحوه:

- لو أن الرسل يقتلون لعرفتك ما هو مقدارك أيها الرجل، ولكن الرسل لا يقتلون فاذهب من هنا قبل أن يحل غضبي عليك، وافعلوا ما تريدون وسوف نأتي إليكم ونعيدكم إلى ما كنتم فيه من رعي الغنم والإبل وكان ذلك أفضل لكم!

يمشي عمر في السوق.
لم تعد المدينةُ كما كانت. هناك صخبٌ غريب مريبٌ!
الحشودُ تجري نحو بقعة ما في السوق، والكثيرون من الرجال يشمرون عن ثيابهم ويكشفون سيقانهم ويندفعون، مصطدمين بالصبية والنساء بلا اهتمام!
أين ذهبت هيبته؟ أين الأخلاق؟ ماذا يجري حقًا؟ ألا يرون الخليفة يمشي بثوبه شبه المرقع، محدقًا في الباعة الفاسدين، أينما ظهروا؟
يمضي وأسلم لا يستطيع أن يتابع خطواته!
وهو لا بد أن يمضي لتلك البقعة التي يعرفها.. بقعة بيع العبيد!
يزيح الناس ويمضي بخطواته العملاقة لكن الزحام كثيف، والناس تتطلع وراءها، فإذا لمحته ذعرت وفتحت الطريق المزدحم بالأجساد والبضائع إليه.
منذ أن حدثت الانتصارات الهائلة في الشام والقوافل القادمة من هناك لا تتوقف. الإبل مثقلة بالصناديق، وقطع النقود الذهبية والفضية التي عليها رؤوس الأباطرة تنهمر تحت نعله، وأكداس ثياب الحرير النسائية، وتلال الفواكه والخضار والقمح، تنتشر في الأسواق والجموعُ تتدفعُ وتغرف وتأكلُ بنهم مجنون، وبطونٌ تتفجر على آلام شديدة، وأيدي الإخوة يلوي بعضها بعضًا حول قميص أو ثوب، أو حفنةٍ من فضة تبدو كأشعة نار..
(ماذا تفعل يا عمر؟ أهو صوابٌ أم خطأ؟ أهو خيرٌ أم شر؟ أهو نصرٌ أم هزيمة؟ لماذا ترتفع أنت إلى ذرى الفقر والنور وتكتفي بقطعة خبز وزيت وضمة لزوجة عزيزة وتصلي ثم ترى الوجودَ كله رائعًا عظيمًا وهم يندفعون إلى ذبح الخراف بمجازر رهيبة، وتـُوضع نيرانٌ كثيفةٌ تحت القدور المليئة بجبال اللحم، والثريد غدا أشبه بمستنقع كبير من الأعضاء المقطعة والعيون المنتزعة من محاجرها؟! أي نهمٍ هذا؟ هل يعتقدون أن الفتوح وشهادة الأبطال لكي يموتوا هم من تخمة اللحم؟!).
صرخات من الرجال النخاسين، وثمة نساء جميلات معروضات للبيع على دكة خشبية، والشهوانيون محيطون بكتلِ اللحم الرقيقة وكأنهم يريدون أكلهن..
صرخ بهم:
- هيا ابتعدوا! من أمركم بالبيع هنا!
تسمر النخاسون بدهشة ورعب. أزاحهم وكأنه يلقيهم من مكانهم العالي.
- أعطهم يا أسلم ربع الثمن ولا أريد أن أرى وجوههم في المدينة..
وطالعه الرجال بتوجس وابتعدوا عن ساحة البيع. وصاح هو مجددًا:
- ضعوا عليهن عباءاتهن!
ولم يكن للروميات عباءات، فوضعوا عليهن أي ثياب ساترة لأكتافهن ولصدورهن البيضاء المتألقة. وتطلعت فيه النساء بدهشة، وكن يتهامسن بين بعضهن البعض بلغاتهن الغريبة ويحدقن فيه مبهورات.

وقال لأسلم بمرارة:
- وزعهن على الفتية المحرومين القانتين وأحسنوا معاملتهن··
(ماذا سيبقى من الناس وكيف ستواجه النساء اندفاع الرجال للجواري والحسان القادمات من كل فجٍ عميق؟ أي هول هذا؟ ما الذي وضعني في هذا الاختبار الكبير؟)·
ثمةً فرسان وراءه وهم ينادونه، والحشد من الناس يقترب منهم· ترجل أحدهم وقدم له رسالة مختومة، ففضها بسرعة وقرأ كلمات من أبي عبيدة بن الجراح يخبره بنصر جديد وهزيمة جيش رومي حاول أن يستعيد دمشق ثانيةً·
قال بفرح:
- كيف حدث ذلك؟
واقترب حشد الجمهور منهم أكثر، وراح يصغي برؤوسه الكثيرة وبعيونه المتعددة النظرات لهم:
- يا أمير المؤمنين لقد تقابل جيشا أبي عبيدة وخالد بقائد رومي والذي لم يقم بأي حركة طوال النهار، كأنه يتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وراح أبو عبيدة يتعارك مع قسم آخر من الجيش· وفي الصباح لم ير المسلمون جيش الروم الذي تسلل بهدوء واندفع في ظلام الليل نحو دمشق، لكن خالد أسرع نحوه هو الآخر وحين وصل الروم إلى دمشق كان جيش خالد من ورائهم ففوجئوا وأطبق عليهم جيشُ المسلمين في دمشق وجيش خالد!
صاح الناس:
- الله أكبر!
- هذه أفعال خالد العظيمة!
- هل كان أحدٌ ينتبه ويسرع مثله؟!
أمر عمر للفرسان بأمكنة مبيت وطعام وشراب، ومضى وهو مسرور أشد السرور وكأنه هو الذي فتح، وكأنه يسمع صاعقة خالد وهي تنقض من وراء، وذهول الجيش الغريب من هذه الانقضاض، وراح الخبر ينتشر بسرعة، والناس تنزل، وما حمله الفرسان من غنائم ينقل لبيت المال، وبدأت القدور الكثيرة تظهر، والمآدب تقام·
فكر عمر (كان أبوبكر أعلم مني بالرجال!)

يدخل خالد بن الوليد مجلس عزاء لعائلة سفيان بن حرب·
ينظر إلى الوجوه المألوفة الغريبة في ضوء جديد· مجلسٌ متواضع ولكنه واسع، ومليء بالدموع على أحد عائلة الشيخ الحقود! وفي الخارج احتفالات دمشق بزوال نفوذ الروم إلى الأبد!
سمع كلمات الجنود في اليرموك (ذلك العجوز وأصحابه يجلسون على تل ويراقبون المعركة وكلما تغلغل الروم في صفوفنا فرحوا!)، والآن ها هم أولاده على ذروة المدينة! وأنت مراقب من قبل الجميع، وانتصاراتك تدوي بين الناس وتـُحسب كلُ قطع الدراهم التي تسقط على أصابعك!
لماذا تمتلئ عيونهم بالدموع هؤلاء الضباع؟ كم حرضه أبو سفيان وكم دغدغ غروره (هيا يا خالد ماذا تنتظر؟ أنت الآن في ذروة المجد، حين تنزل أي سوق، الباعة يعطونك السلع هديةً! هذا عمر قتر على الناس وحبس الخير·· حين تمضي إلى المدينة بجيشك تصيرُ ملكًا متوجًا على كل العرب! آه ملك كم تدغدغني هذه الكلمة! فعلاً لقد ألقاها في تربة روحي العطشى! وكأني أرى نفسي في قصر وثمة حشد هائل من النساء الجميلات، حشدٌ أتمرغ فيه ثم أوجه قوادي لفتح العالم كله! لكني الآن أخاف ممن يمدحني والشعراء يتجنبونني وكأني مثل أي قائد مغمور!)·
هاهم أبناء سفيان بن حرب جامدون يقظون يحيطون الناس بهم، ويوزعون هداياهم بهدوء ودهاء، ويستقبلون شعراء يمدحون ذلك الماكر، غير ذاكرين له فعاله في التصدي للمسلمين·
يقول لمعاوية بن أبي سفيان الجالس قربه:
- أتتذكر يا معاوية كيف التقينا قرب المدينة ثلاثتنا أنا وأنت وعمرو بن العاص، وكان الغبار رهيبًا، والشمس حامية، وكأنا أضعنا الطرق وضاع أدلتنا، ودهشنا جميعًا كيف التقينا في تلك البقعة، وحين وصلنا المدينة ورآنا النبي قال لأصحابه(رمتكم قريش بفلذات أكبادها)·· أتذكر ذلك؟!
تطلع فيه معاوية وهو يسبر غوره:
- كانت صدفة يا خالد فلا تعول عليها كثيرًا!
- أظنها لم تكن صدفة!
- ماذا تقصد؟!
- لعلكما سمعتما أنت وعمرو أنني سوف ألتحق بالمسلمين فأسرعتما لكي تسبقاني وتحتلان مكاني!
- لا والله ومن نحن أمامك وأنت القائد المظفر عند قريش؟!
- أي قائد مظفر·· غدوتم أنتم حكام المدن المفتوحة وأنا مجرد قائد عسكري تحت قيادة أبي عبيدة·· يا لدهائكم يا بني أمية!
قام حانقًا، واخترق حشد المعزين القادم، رؤساء العشائر ورجالات القبائل، وأحس بأن كل أبنائه الذين ظهروا يعيشون في ظلال الأحداث والأشياء، وهو يغوص في المعارك ويفكر بخططها، ويتأمل تواريخها، وليس ثمة حشد من الأبناء معه، أو ثلة قوية وجماعة ذات دهاء، وهؤلاء يغوصون تحت الماء صانعين ركائز خفية، وفي سمعه صرخات الجنود وحرائق الأسوار،

وسقوط المنجنيق وصور سلالم الخشب والحبال وهي ترتقي الحجر وتصنع الهزائم، وليس في يده سوى قبض الريح !

الفصل الرابع

سهولٌ على مدى النظر، وغابات الشجر، وخطوط الأنهار كأنها عروق لجسد هائل، وحشود هائلة من البشر والخيول والأفيال، وهواءٌ منعش وثمر لا يحصى، ولكنهم يتقاتلون ويزيحون غابة الأجساد نحو الحفر، ويقطعون ضحكاتها وتناسلها ومحبتها وأعراسها وأحزانها، ليحولوها إلى تراب ورماد وعظام لا تصلح لشيء، وحتى النسور لن تأكل جيفها وتمضي بها إلى عالم الأرواح!
يتأمل رستم السهلَ بأسى شفيفٍ وهو يشربُ النبيذ، ويتساءل عن هذا الحزن الذي ما انفك يغمره، وهو في ذروة العسكر، وعلى أكتافهم، وهذا النمل البشري يحمله إلى أي مكان يريده، وسيكون عبر النهر وعبر الصحراء حتى كهوف الذئاب العرب.
كيف يمكن له وهو القائد أن يصير حكيمًا متأملاً في وقت يتطلب أن يُعملَ سيفه في الرقاب؟
لماذا راح يترفقُ بجيشهِ وهو يراه يُسحب من حقوله ومستنقعاته ومدنه وأسواقه وحفلات أعراسه ثم يُحصر بين الماء والتراب؟
ما ذنب كل هؤلاء الرجال أن يحرموا من زوجاتهم وأطفالهم؟
حين يبصر الجندي بملابسه الرثة وطاعته المخيفة يتسلل الخوفُ إليه! ماذا يستطيع هذا الإنسان أن يفعل؟ كيف يستطيع هذا الجبان أن يقذف بجسده خبزًا في تنور الوطن؟!
يقول للهرمزان:
- أنت بك حماسة هائلة للتراب والملك والوطن ولا تشعر بأي خوف أو تردد، فلماذا؟
يحدقُ فيه الهرمزان بدهشةٍ وهما جالسان على تلك المنصة الخيمة المفتوحة على السهل:
- أستغرب من قائدي العظيم أن يطرح مثل هذه الأسئلة ونحن نريدُ المواجهة بأسرع وقت مع هؤلاء الرعاع؟!
- لماذا بأسرع وقت؟ هل الحرب نزهة ولقاء بالسيوف العابرة فقط؟
- ماذا تقصد يا سيدي مرةً أخرى؟!
- أنت متوتر ومندفع وصاخب فلماذا؟ ماذا تجني من الاندفاع للحرب التي لن تكون سوى مذبحة هائلة!
- أذهل أن يكون هذا هو كلام سيدي القائد. نحن جلسنا هنا أكثر من شهر، نمشي ببطء، حتى عسكرنا في مقابل بابل والقادسية، وانتظرنا أوامرك ولكنك تتمهل كثيرًا كثيرًا حتى مل الجنود!
- أنظر إلى هذه الزجاجة الجميلة من النبيذ، أنظر إلى هذا التفاح! أنظر إلى هؤلاء النسوة الجميلات اللواتي نحملهن معنا ونستمتع بهن وكأننا في رحلة إلى الخلاء، أنظر إلى كل هذا فقد تكون هذه هي آخر أيامك، وغدًا سوف تنهش في لحمك الطيورُ الجائعةُ من جزيرة العرب..
صمتَ الهرمزان طويلاً، واسترجع منظرَ بيته والأسواق التي مر بها وتساءل: لماذا هذه الحماسة تخضه من أجلِ أرضهِ فيما هذا القائد الكبير الذي نهشته الأفاعي الساحرة وعضتهُ رمالُ الصحارى القائظة مترددٌ؟ أتراه يخافُ من الموت؟ لم يشعرْ أن لديه أي خوف ولا هو ينظر لقصورهِ المتناثرةِ في الأرض الإيرانية، ولا لحشودِ الخدمِ والنساء، ولا للأراضي الخصبةِ التي لا

يستطيع أن يحيطَ بها بصرُهُ، بل هو يفكرُ بأشياءٍ غريبةٍ مثل قدر وحكم النجوم وهذه الأمم التي تتداولُ الملكَ وتتداولُ مصيرَ الناس؟! ماذا يريدُ من كل ذلك؟

رستم يتكلمُ بهدوءٍ عميق يرتسمُ على وجهه الجلدي المصفح بأنفه الشامخ الكبير وكأنه تمثال أبو الهول، يقول:

- قد تفكر أنني خائفٌ من الموت، ولكني أفكر بالحياة.. لماذا نقاتل هؤلاء؟ هل هناك طريقة أخرى غير الذبح؟ ماذا فعلنا نحن في مصير الأمم في هذا الشرق الذي حكمناه خلال قرون، ماذا استفدنا؟ لا شيء! غير الثروة والنساء وبناء القصور.. اليونان خلقوا أشياء كثيرة مبهرة، ونحن لم نفعلْ شيئًا!

- يا سيدي لا تفكر كثيرًا في هذه الأمور بل فكر في خطتك وكيف تشتت جموعهم وتقسم صفوفهم، وتسحقهم!

لا يتطلع رستم إلى وجه محدثه، وقد سئم كل هذه الأفكار والخواطر التي تقلقل عظام عقله ليل نهار، وتندفع في نومه كأمواج متلاطمة تغرقه، وهؤلاء المحيطون به جهلة وأغبياء، ولو كان ينطق بأعماق نفسه لعزلوه وقتلوه!

يقول:

- لا بد من ذلك.. إنني أريد أن أمزقهم لكنني أتأمل في هذه اللحظة الفاصلة بين مجزرتين..

يستدعي رسل العرب. يتأمل ثيابهم ووجوههم، ويسمع كلامهم وقرآنهم. يشعر بشيء غريب نحوهم. فقرهم وبساطتهم وتماسكهم تكّون لديهم قوة لا تخاف الموت، وهو الأمر الوحيد القادر على هزيمة الجنود قبل المعارك.

قال له رسول منهم:

- نحن ليس لدينا لك سوى الإسلام أو الجزية أو الحرب!

غضب وقال:

- أمسكوه واقتلوه، هذا ليس رسولاً ولكنه إنسان وقح!

وجر الجنود الرسول وضربوه وقربوا نصل السيف من رقبته لكن ظل هادئًا ساكنًا. أراد أن يروعه أكثر وقرب الجنود نصلاً حاميًا فلم يتأثر.

ليس لدى عمر سوى القنديل والليل الطويل، وهذه الوجوه التي تطلُ عليه من كل مكان، وكأن ثمة صرخات تأتي إليه، من بعيد، من فلاح جائع في مكان ما، من راعي غنم تدحرج على الجبل، ومن الحشود الواقفة بين ضفتي دجلة تستعد للإجهاز بعضها على بعض··
يكتب لسعد بن أبي وقاص··
لو أنهم يقبلون بالسلام أو يتركون الأرض، لو أن الرسل أفلحوا في إقناعهم، ولكن حتى أحد دهاة العرب لم يفلح في إقناعهم· لو أنه يتكلم مع هذا الملك الفارسي المتجبر فسوف يقول له (لديك ملك عظيم كبير في ما وراء النهر، أراض شاسعة فلماذا لا تريد إلا هذه البقعة العربية؟ لنعش جارين ونتقاسم الماء والكلأ والنخل)·· لكن الرجل المتغطرس يغضب غضبًا شديدًا لأن راعيًا من جزيرة البدو يتقدم في قصره ويطالب بذلك··
لكن لماذا هو متأكد من النصر هكذا؟ ألم يهزموا سابقًا؟
يمضي في هدأة الفجر إلى طريق العراق ولكن ليس ثمة أحدٌ قادم من هناك· سعد بن أبي وقاص يرسلُ له كتبًا كلما استجد شيءٌ، لكن الهدوء الغريب في ساحات دجلة مثير للأعصاب، ويبدو أنه سيطول·
يرى قادمًا على فرس· بقعة غبار تتحرك نحوه·
(أهو ورد؟ أتكون الواقعة قد جرت؟!)·
هو ورد نفسه· هذا الرجل يغيظه بحملِ الأنباء السيئة، لكنه لن يتطير·
اقترب وصافحه:
- إن سعد بن أبي وقاص غدا مريضًا!
- كان في منتهى الصحة وهو في المدينة، ماذا جرى؟ أي وضع سيئ هذا الذي يصير في العراق؟
- إن حكةً غريبة قد ملأت جسمه لكنه يقول إنه سوف يواصل، رغم كل الأوضاع السيئة!
- أحدث شيءٌ سيء آخر؟!
- نعم، لقد ثار العاملون في الزراعة على المسلمين وطردوهم من كل مكان· وكان ذلك بخطة ماكرة من رستم الذي حرض الدهاقنة وقربهم إليه· لقد غدت القرى مكانًا ملتهبًا!
- ليس لديك إلا الأخبار السيئة يا ورد!
- أقول لأمير المؤمنين الحقيقة·
- أحسنتْ، وامضِ إلى بيت الضيافة واسترح لكي آخذ منك دقائق الأمور· سوف نرى ما نفعلُ غدًا·
- سوف أمشي معك يا أمير··
- لا أذهب وكلْ ونم قليلاً··
يتوغلُ فكرهُ في صور النخيل والقرى والوجوه والنهر الجاري أبدًا للجنوب· كأنه يمشي هناك· يحدقُ في أكواخ الفلاحين، ويرى أطفالهم وهم يغوصون في الماء والوحل، والنساء وهن يحملن الغلات وجرار الماء· كأنه يحس بالأسواط التي تلسع ظهورهم··

(لم ترسل سوى جيوش يا عمر! كأنك توجه جماعةً من اللصوص لا أهل رحمة وعدل! ورستم المتباطئ الذي لا يندفع للقتال عرف كيف يجر أولئك الناس لطاعته بينما أنا أجعلهم يثورون عليّ! كيف لي أن أعرف كلَ شيء، وفي كل مكان..؟!).

يحدق يزدجرد في قادتهِ العسكريين وخاصةً في رستم باستياء. لا يستطيع الآن أن يقضي عليه بعد أن غدا محبوبًا أكثر. إن طرد العرب من كل القرى وانحصارهم في الصحراء قد قرب من هزيمتهم القادمة، وكان إعطاؤهم أهمية كبيرة خطأً جسيمًا، فهم يطردون بكل سهولة!

قال:

- لقد فعل قائدنا الكبير رستم كل شيء مفيد لدولتنا، وقد منحته قلادة المملكة لكني بعد أنتظر منه إنجازًا أكبر من ذلك. فقد اتضح تفاهة وضع العرب وخوفهم الشديد من دولتنا، فلماذا تتلكأ أيها القائد؟

رستم الذي كان شديد التوتر، كان يفكر في كل الخضم الذي أثاره، الذي كان فارغًا وتافهًا حيث وزع أموالاً طائلة على رؤساء القرى وأمرهم بالثورة، ولكن شيئًا حقيقيًا لم يتغير، فحشود العامة جثمت في الحقول بصمت، ولم تأبه كثيرًا لكل ذلك. كانت الغوغاء هي التي معه، وهذا الملك لا يعرف أي شيء، وحين حدثت تلك الاضطرابات وهرب العرب احتضنه وقربه! الآن عليه أن يشرح له أن الموقف لم يتغير، وأن أولئك العرب مخيفون؟!

قال بهدوء:

- لدي أكبر جيش في تاريخنا، ولكن الجنود يجرون جرًا لساحة القتال. إن روحهم المعنوية ليست ممتازة يا جلالة ملك الملوك!

- ومتى كان لهؤلاء قيمة؟ جرهم واقذف بهم في أتون المعركة وينتهي أمر أولئك الغزاة.. أريدك أن تفعل هذا غدًا ليس ثمة وقت لدي لأضيعه مع هذه التفاهات!

هتف علية القوم لصرخة الملك العظيمة.

إنه يدفعه دفعًا، وحتى صديقه وتابعه الهرمزان يصرخ مع هذه الجوقة، ويتعطش للصراع المرير.

قال بقوة:

- إن جنودنا ليسوا شجعانًا، إنهم يهربون من المعسكرات.. إنني قمتُ بالكثير من الخداع لكي أجعل بعض المرتشين واللصوص يحدثون أكبر فوضى! لقد سربت عيونًا ومثيرين للشغب ولم يحدث ذلك بسبب كره الناس للعرب.. إن حشودًا كثيرة من القبائل تنضم إليهم.. إني اقترح أن نتفاوض مع حاكمهم، ونعرف ماذا يريد ونتوصل إلى حل!

جرت فوضى وعاصفة، وتخشب يزدجرد في مقعده العالي وحوله دائرة من الضوء الباهر.

- أية أقوال هذه التي يبثها القائد رستم؟

- هل جبن فجأة؟

- أنتفاوض مع قطاع طرق تافهين من الصحراء؟!

- هل يريد منا نحن الإمبراطورية الكبرى أن نقدم الطاعة والجزية لرجلٍ مجهول في البادية العربية؟!

- هل أصيب بالبله قائدنا الكبير!

لو كانت شروط عمر مختلفة، لو كان هؤلاء الناس تعرف اللغة العربية، لو قرأوا القرآن، لربما لم يجدوا شيئًا كبيرًا مختلفًا. لكن كل طرق النجومِ متعاكسة، وأقدار شعوب تتصادم بقوة، مثل شلالات الأنهار المتدفقة في مجارٍ ضيقة، فتتساقطُ جثثٌ كثيرة، وتفقد فرصها للعيش، لقرارات ثلةٍ تعيش على قمة جبل، والشلالات تصبُ المياه والأنهارُ تقلعُ القرى والضلوع والآهات، ويُدفن اللحمُ والحلمُ، وتزرع السيوفُ في الحقول والبطون..

حدق رستم في وجوهِ الجمع، ورأى انكسارات، وانقلابَ النهار إلى ليل، وكأن غيمةً سوداء كبرى قد مرت فوق القصر، وكان الوقتُ صيفًا، ولا أنباء عن عواصف مفاجئة، ولكن وجوهَ علية القوم تتداخل، وألسنتهم تغدو في عيونهم، وتتفككُ جماجمهم، ويأتيه صراخٌ من مكانٍ عال، ويرى الماء يفيض من الحجر، وهو يسبح محاولاً الوصول إلى تلة مرتفعة عن الفيضان..

نظر الهرمزان بارتياحٍ إلى عبور حشد فرسانه نهرَ دجلة وهي تتقدم وراء كتلةٍ هائلة من الجنود المشاة والأفيال الضخمة، فكأن درعًا هائلاً من اللحم يحميه.

الرجالُ والخيولُ يتأرجحون فوق الجسور ولكن الغابة البشرية تتمدد فوق الماء وتتنفس هواءً وكلامًا وحمحمةً، وسحابة الحديد اللامعة المصقولة تتوغلُ في اللحمِ والثياب والهواء والأعناق، والأفيالُ جبالٌ تمشي فوق الجثث والصراخ وتدوسُ الخيلَ وتمشي بين كتلِ الأجساد، تقذفُ بها في أعماقِ النهر، وتكوّنُ ثغرةً هائلةً في جسد الجيش العربي المذعور، وتنزلُ السيوفُ كالصواعقِ الناريةِ على العظام، تكسرُها فيسمعُ لها دويٌ عظيم، وتنفرجُ صفوفُ المقاتلين العرب ويتراجعون للوراء..

(كانت مخاوفُ رستم كبيرةً وهواجسهُ بلا حد وغير معقولة، وحتى في الليلة السابقة للمعركة كانت ظنونهُ تلسعه. والآن هو يقودُ في قلبِ المعركة، على هودجه أو على فرسه، مطيحًا بالرؤوس، ومكانهُ دائرةُ رعب لا يقترب منها سوى من باع نفسه.. هذا هو القائد الحبيب!).

فرسانه هو الآخر لا يخافون، ويقتحمون ميسرةَ العدو مصطدمين بخيول عربية تصهل وترفع قوائمها، والسيوف تتضارب منذ الصباح حتى هذه الظهيرة الكالحة، وأسنان الحديد تتوغلُ في الرؤوس والأعناق، والأجساد تتطوح هنا وهناك، ولم تزل الصفوف في مواقعها، وكلما سقط جسدٌ ظهر جسدٌ آخر مكانه، وكلما نفقتْ خيلٌ جاءت أختها، وبحرُ العرب البشري لا يتوقف عن التدفق، أمواجهُ من الرمال والرؤوس والكوابيس، أجسادُ المقاتلين الرهيفة النحيفة تهرب من حدود السيوف، تراوغ بمهارة، وتندفع بقوة، وكلُ الحشود التي تتدفقُ عليها لا تخيفها ولا تزحزحها عن مواقعها، وقد بدأت الشمسُ تميلُ للغروب، والجوع أكل الرجال، وهدهم التعب، والعدو لا يتوقف عن التدفق، كأن الرمالَ من ورائهم، وثمة صيحاتٌ من ورائهم، وثللهم القليلة تنبع ثللٌ أخرى منها، كأن التلال انحازت لهم، وهم يصرخون بكلمة إلههم ثم يضربون حتى تتصدع عظامهم، ويتساقطون على الرمال..

بدأ الظلامُ يخيمُ، والكتلُ المتراصةُ تأبى أن تفارق مواقعها، والأنصالُ تغوصُ في الأجساد، وبحرُ البشر متلاطم، يذبح بعضه بعضاً، والأفيالُ تتحسسُ طرقَها الملأى بالعظام، وصائحٌ يصيحُ من الفرس:

- هل نتوقف للراحة والنوم؟!

وآخر يصيح:

- أي حربٍ هذه التي لا تتوقف!

- أين القادة ليوقفوا الذبح قليلاً!

- أين القائد رستم؟

لكن القتل لا يتوقف، وهو شعرَ بتعبٍ شديد، وكلَّ ساعداه وهو يضربُ في كل جهة، والبحرُ البشري الأسود صار مجردَ بقعٍ أشد عتمة، وصارت الكتلُ السوداءُ تصدرُ أنينًا موجعًا، لكن العرب لا يتوقفون عن التدفق، بعض المصابيح صارت تومضُ، مبينةً وجوهَ المحاربين القريبة،

وكأن الصفوف تباعدت قليلاً، وكأن الجثثَ ملأت المكان، وبدا أن صفوفه الخلفية صارت أقلَ عددًا، والجنودُ المشاة المسلسلون يتقدمون ببطء، وهم يئنون ويتذمرون..

وظهر النورُ..

ساحةٌ شاسعة محاطة بالماء والرمل، وعليها أكداسٌ من الجثث، وكان الفطور رؤية هذه الأجسام الممزقة وسحبها، وغدا مضغ الخبز متحدًا بالأنين، وبالثياب المغسولة دمًا، وبكتلِ الجنود العرب التي راحت تتقدم بكثافة شديدة، وتزحزحهم عن مواقعهم، وتحيطُ بالأفيال وتضربها بالسيوف، لكن هذه الأجساد الكبرى تتقدم وتدهسها، وتجيء مجموعةٌ صغيرةٌ من الفرسان يقودها القعقاع وتقطعُ خرطومَ الفيل الأبيض قائد الأفيال وزعيمها، فيجأر بصوتٍ فظيع، ويندفعُ هو للإغارة على ما وراء صفوف هؤلاء الفرسان، لكن قوى أخرى تضاف إليهم، وتبدو سلسلة جنود الفرس المسلسلين تتقطع ويجر بعضها بعضًا للوراء، وتتعالى آهاتهم على نحو فظيع..

الفيل الأبيض يـُقطع خرطومه تمامًا، فيتدفق شلالٌ من الدم، ويقطع خرطوم فيلٌ آخر، وتتحرك سلسلةٌ الأفيال مزعزعة الجنود العرب، الذين يهجمون عليها بكثافة شديدة، وتتراجع الأفيال وتدوس الجنود الفرس، وهؤلاء يصرخون ويدوس بعضهم بعضاً، لكن الأفيال تجأر وتتراجع جميعها في سلسلة طويلة، ويسقط الفيلُ الأبيض في النهر، جارًا السلسلة من الأفيال معه..

وحشدٌ هائلٌ يدفعه هو أيضًا نحو الماء، فيسقط عن فرسه، ويغوصُ في المياه، يفقد الهواء، تبدو له أجسادٌ كثيرة تترنح في قعر النهر، بعضها يقاوم والبعض الآخر استسلم للموت، والأشباح الكثيرة والظلال والمرئيات والصور ما تزال مشعةً فوق الماء، يمضي إليها، دافعًا ساقيه بقوة، محاولاً الحصول على قبضة هواء، ولكن أجسادًا أخرى تسقط فوقه، وتعيده للتراب والحشائش الغريبة، والسمك المذعور والهارب، ويشق طريقه نحو النور..

كانت قافلةٌ قادمةٌ من طريق العراق، انبثقت في غبش النور الشرقي وحولها غبارٌ مثارٌ وصياحٌ. تدفقت إليها حشودُ البدو من المضارب، واندفعت الإبل تطلُ برؤوسها.
وعمر لم يكن وحده مع الرمال الآن. وقلبه الذي يرجفُ مع ارتجافات التراب والريح غدا سعيدًا متوهجًا. لم يعد ثمة خبرٌ لهزيمة بل نصر، والقلةُ من الرجال اندفعت وملكت دجلة وسماءها.
يركعُ ويرفعُ يديه وتأخذ الحشودُ رجفةً وهيبةً فيعمُ الصمت.
القافلةُ تصل وإبلها محملة بصناديق لا تحصى. والرجالُ الذين يقودونها يتدفقون بالكلام، والناس لا تتوقف عن السؤال عن المعركة، والشهداء، وأخبار الفرس، وريف العراق، وعن هذا النهر العربي المتدفق في كل مكان..
وقائدُ القافلةِ يسلمُ عمرَ الأشياءَ والرسائل والأخبار:
- كانت ثلاثة أيام رهيبة يا أمير المؤمنين. أفيال ضخمة تغلغلتْ في صفوفنا وداست على عظامنا. جنودُ يزدجرد يملأون الأفقَ كله وكأنهم أطول من النهر. ونحن قلة على الضفة الشرقية ورحنا نثير الرمال حتى نزيد أعدادنا وهمًا وتضليلاً. وجاء القعقاع من الشام بكتيبة لا تعرف الخوف، وراح يتوغلُ في الصفوف ويجندلُ الرؤوسَ وكأنه يحصد قمحًا. ثم استطاع أن يقطع خراطيم الأفيال ويلقيها في النهر..
علت الهتافات والصرخات!
الناسُ تحيطُ بالقائدِ وعمر يتذكرُ وردَ الذي لم يأتِ هذه المرة راويًا الكوارث. وراح النهر يتلون بالدماء، وتظهر من بين الزروع والنخيل وانحناءات الضفاف وأدغال الحشائش الجثثُ، وتتصاعد الآهات، وتنفتح الدروب للهاربين..
- واندفع مقاتل إلى رستم وهو على فرسه فضربه فجرى نحو النهر ولحقه المقاتل وطعنه.. فصرخَ بقوةٍ شديدة (قتلتُ رستم.. قتلتُ رستم!) فدهشنا لتفكك الجيش بسرعةٍ مذهلة وهروب الجنود وكأن الصرخة كانت إيذانًا لهم بفك الأسر، فكسروا السلاسل وفروا شاعرين بالفرحة لنجاتهم وانطلاقهم.. فتركناهم يعودون لأرضهم وأعمالهم وأسرهم!
تحولتْ فرحةُ عمر إلى قلقٍ وخوفٍ حين فـُتحتْ الصناديق وظهرت كتلٌ من الذهب والنقود الصفراء والأقمشة الحريريةِ الزاهية، وجاءت حشودٌ كبيرةٌ للمسجد ودار الخلافة، وتراصت وتزاحمت وانتظرت النقود!
أمر عماله بتوزيع كل شيء على الناس. ذهبتْ أكداسٌ إلى بيوت الصحابة والفقراء والنساء الأرامل وبيوت الشهداء. ولم يبق من الصناديق سوى الهواء، وجلس مع عماله هادئًا صامتًا.
سأل الرجال:
- ما بك يا أمير..
- أشياءٌ كثيرةٌ تقلقني، لا بد أن نأخذ من هذه الأموال نصيبًا نضعه في بيت المال. ونرسل بعضًا لفقراء الأمصار ولأي كوارث تنشأ.. المال يتكدسُ هنا فتمتلئ البيوتُ بالشجار، ويذهب الرجال للبحث عن الجواري والملذات، تغيرهم حفنةٌ من ذهبٍ بسرعة شديدة! وأي رجال هؤلاء الذين

تهزهم ريحُ المالِ هكذا؟! لماذا لا يتعففون بل سرعان ما يسترخون ويملأون بطونهم ويكثرون من النوم والكلام؟ ماذا نفعل حقيقةً هل هو خير أم شر؟

وصمت لحظةً وقال:

- هل تسمعون شيئًا؟!

- نعم، ثمة شجار..

ومضى أسلم ثم عاد قائلاً:

- أب وأبناؤه تصارعوا على المال!

يتجول في الطرق. الساهرون يخفضون أصواتهم، والمغنون يحتفلون، والأطفال يعودون لمنازلهم، وترتفع أصواتهم من وراء الجدران، يرفع صوته:

- دعوا الأطفال ينامون. لا تسهروا طويلاً.

يقول في نفسه(لا بد من نصيب ما لأهل الحقول البعيدة، تزيل الشقاء الذي خيم عليهم طويلاً. العطاء لا بد أن يصل لأبعد قرية وأبعد راع في الصحراء. أريد سعاةً وعيونًا تحقق وتدقق في سيول النقود المتدفقة على الولاة والقادة.. سأكتفي من فتح العراق إلى هذا الحد، لنجعل الجبال حدودًا بيننا ونكتفي بأرضنا..)..

بعض عماله يمشون وراءه وقد تعبوا. يتطلع فيهم ويصرخ:

- لماذا تتبعونني اذهبوا وناموا!

خرج الهرمزان من الماء تعبًا مبللاً، وارتعش ونفض المياه.
كان أفق النهر ليس به سوى حشود العرب وراياتهم والنخيل المتناثر في كل مكان. ووراء النهر كانت سيولُ الجنود الهاربين تمشي، وآخرون كثيرون يطفون على الماء، أو تقلبهم الأمواجُ على الشطآن.
لو كان بمقدوره أن يوقفَ زحف الهاربين!
لكن أين رستم ماذا جرى له هل هرب هو الآخر أم بلعته المياه؟ لعله سار مع كل أولئك العائدين، ربما ينظمُ المقاومةَ مرةً أخرى؟
العرب يركضون في كل مكان يجمعون الخيول والأشياء. شيءٌ غريبٌ ومذهلٌ ومخيفٌ أن يقدِرَ هؤلاءُ العراةِ والهياكل العظمية على اختراق وهز.. يمةِ جيشِ فارس الهائل!! هزيمة.. هزيمة يا هرمزان، كارثةٌ كبرى لحقت بفارس العظيمة..
لم تعد ثمة أفيال وخيول، وعليه أن يمشي إلى المدائن.. ربما يرى رستم هناك ليعيد تنظيم الجيش.. ثمة مسافة كبيرة قبل أن يعبر أولئك العرب النهر..
يلحقُ بجماعةٍ من الجند، يقول:
- أيها الإخوة لا بد من تنظيم صفوفنا مرةً أخرى..
يحدقُ في وجوههم المتصلبة، وثيابهم الرثة، والجروحُ التي تبدو من الفتوق والخرق، وكانوا يتهامسون ويتطلعون فيه. غدت نظراتـُهم وقحةً على نحو مفاجئ:
- هل أنت ضابط؟
- إنه من الضباط الذي دفعونا لهذه الحرب..
- صار يلبسُ خرقةً مثلنا الآن!
- لم تبق من ملابسه العسكرية سوى أشلاء!
يقول لهم:
- لا بد أن تعودوا معي للجيش. سأذهب نحو القصر الآن..
- اذهب بعيدًا عنا!
- لم نصدق أن يـُهزم ذلك الجيش..
- حتى قائده رستم طـُعن وسقطَ وغرقَ في الماء..
- ربما كان لا يعرف السباحة!
راحوا يضحكون بجفاف وغضب. وهو تجمد في موقعه. رستم الصديق والقائد رحل! بهذه البساطة مثل فقاعة أو فرس، حتى الأفيال قـُتلت بصورة أكثر دويًا وتقديرًا. والآن الأسماك القذرة تأكله! لم يوضع على جبل شاهق لترحل روحه إلى النور. أية موتة هذه؟
ترنح على الأرض، واستند إلى جذع نخلة، وكانت العصافير تتشاجر، والرطب استوى في عذوقه دون أوامر من الملك، والجوع الذي ينخر في أحشائه دفعه لأكل الرطب المتناثر على الأرض، مبعدًا التراب..

بيته ليس قريبًا وربما وصل العرب إليه، وتحولت امرأته وبناته إلى جوارٍ في سوق الرقيق، من يدري عما سيحدث، لكن لا بد من المقاومة!
ينهض ويسير بهمة، وكانت الحشودُ تتدفقُ من حوله، وتتسربُ في طرقِ الجبالِ والقرى والواحات والهضاب، تغدو مثل نقطٍ صغيرة ذائبة في البياض والصفار، وتغدو فارس موحشةً، وحيدة..
كانت طرقُ المدينة أكثر ازدحامًا، وثمة فوضى في كل مكان، جنودٌ يتدفقون في الشوارع ويضربون اللصوص، قلة من الجنود المبعثرين الهاربين تعود إلى المدينة..
يقترب من القصر فيجد حشود الجنود تحيطه من كل مكان. حمد الإله لأن الملك لا زال حيًا والأرض لم تزل واسعةً حرةً.
عندما أُدخل وأراد أن يذهب ليستحم ويلبس ملابس جديدة ليقابل الملك فوجئ باستدعائه إلى بهوه، ووجده يمشي عاقدًا يديه وراء ظهره، والتفت إليه لحظةً وذُهل.
كان ينتظر موقفًا آخر لا تلك الصرخات التي انبثقت من فمه:
- ما هذا كيف هزمتم هكذا؟ أي رجال أنتم؟ كان لديكم أكبر جيش؟ ثم تأتيني أيضًا بدلاً من أن تغرق نفسك في البحر! وزال قائدك المغرور بتفاهة.. بعد كل ذلك الانتظار والاستعداد! اذهب عن وجهي..
- مولاي كانت معركة رهيبة.. رهيبة..
- بضعة أيام قليلة وتفقدون كل شيء! سنقاوم هنا. سوف أريكم كيف تكون المعركة والقيادة..
- سنكون تحت إمرتك ونفدي بلادنا يا سيدي بكل شيء..
- لا بد من ذلك.. لا بد من ذلك..
وراح يمشي قلقًا.
- اذهب واغتسل واستعد!
- تحت أمرك يا مولاي..
رغم كل شيء كانت كلمة اذهب واغتسل مريحة له على نحو كبير. إنها تخرج من فم ملك الملوك الذي يرعاه ويبدو مهمومًا بشكل هائل بمصير الوطن..
وحين صحا من نومه القصير سمع ضجةً هائلة. قال له أحد الضباط:
- إن العرب يحاصرون المدائن ويريدون عبور النهر.. كارثة أخرى تحدقُ بنا!
- لكن ضفة النهر واسعة وأسوار المدينة سوف تصدهم. هل نظمتم المقاومة؟
- لقد عبروا الضفة وعملوا من القوارب جسورًا، وها هم يتسلقون الأسوار!
كانت الفوضى تعم القصر.
القصر الكبير الهائل الأبيض، إيوان كسرى العظيم، مركز حياة الوطن، نقطة تجمع كل خريطة العظمة والمجد، يغدو مهددًا من بدو الصحراء!
يمشي في الممرات نحو البوابة. كتلٌ من الخدم والنساء والقواد تصطدم به. لا يكاد يتنفس. يصرخ. لا أحد يأبه. الكل يجمع أشياءً وصناديق ويندفع نحو البوابات الخلفية.
_ أيها الجنود لا بد أن ننظم المقاومة، لا تتركوا المكان..
أحد الضباط يصرخ في أذنه:
- يزدجرد رحل من القصر فجأة!
- ماذا تقول يا أبله؟!

- أخذ ما يقدرُ عليه من كنوز وأموال وقال لنا سوف أذهب بعيدًا عن هؤلاء العرب لكي أقود الحملة ضدهم!

شلال الأجساد يدفعه نحو الجدار، والصناديق تكاد تضربُ رأسه، والرجال الذين كانوا ينحنون بشدة للملك، والضباط الذين كانوا يحمون الأبواب والكنوز، كل من هؤلاء يجمع أي شيء يصادفه ويحمله ويجري!

قال له الضابط:

- لا بد أن نرحل بسرعة، ونمضي إلى أي مدينة أخرى، أو نلجأ للجبال·· ونجمع هناك من نقدر عليه ونتصدى للغزاة!

وما في يديه سوى قبض الريح!

الفصل الخامس

الصحراء مترامية الأطراف وهم يسيرون جماعة.
عمر على قمة الإبل يحدق في الصحراء.
تأتيهم جبال صفراء وسوداء، وتلال لا أول لها ولا آخر، وكثبان ورمل شاسع، وتبدو الأرض العربية كأنها خالية من البشر. ثم أطلال من أحجار هائلة وبيوتٌ منحوتة في الجبال، وفوهات براكين خامدة.
في هدأة المساء يجلسون على الأرض وعمر يفرش شملته ويجلس عليها. يظهرون الزاد ويشتركون في أكله.
يقول عمر:
- أعتقد أنه من الصواب أن نتوجه إلى بيت المقدس ونعاهد أهلها. هذه البقعة ليست عادية. هذه قلب لأرضٍ واسعة، وإن كانت كل بقاع الناس والأرض سواء.
عمر في ثوب به رقعة، والنهار يتسلط بنوره على جسمه، وقد نزع الكوفية وبدت صلعته ساطعة وهو يتقدم في برية المدينة.
وبدا على البعد المستقبلون ؛ حشدٌ من القواد في ملابس زاهية، وأتباع، وظن أن الروم لا زالت في الأرض العربية، وأن هؤلاء ليسوا أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، بل هم نفرٌ غريب..
نزل من على الإبل غاضبًا، وأمسك بعض الحصى وقذف بها نحوهم، فطارت سحابةٌ من الغبار على ملابسهم!
- سرعان ما تغيرتم وتبطرتم!
سارع نحوه القادة وهم يضمونه ويقول أبو عبيدة:
- هذه ملابس عسكرية يا أمير المؤمنين، هي مجرد ثوب خارجي..
- حسبتُ أنكم زهوتم على الناس وأصبحتم مثل من سبقكم!
ساروا وراءه وهو يركب الحصان متجهين نحو بوابة القدس.
يحاذيه أبو عبيدة ويقول:
- يا أمير المؤمنين لو أنك بدلت هذا الثوب المرقع، وهذا الحصان..؟
- ماذا تريدني أن أركب كأنكم أصبحتم متعيرين من أصلنا وحياتنا؟!
- لا، ولكن هي هيبة الملك، وأنت تذهب لأناس لم يروا الحكام إلا في أبهة وعظمة، وحين تكون على مثل هذا الحصان العادي الباهت الشكل واللون سوف يظنون أننا شديدو الفقر والضعف.. وتلك من علامات السياسة.. لا بد أن نكون بمظهر قوي حتى لا يستضعفوننا..
ابتسم عمر:
- أتعتقد أن الهيبة هي بثوب زاه وبلا رقعة، وأن أدخل بيت المقدس بركب مخيف، هل أصبحتَ هكذا يا أبا عبيدة، جعلتك المعاركُ والانتصارات وحشود السبايا والقصور التي دخلتها والبشر الذين أخضعتهم مترفعاً، لكن كل هذا زائل، فلا مجد الملوك يبقى، ولا تبطر الحكام يسود..

- ولكن نحن سنبقى بعدك هنا يا عمر، ونسوس هؤلاء القوم، وبدون هذه الأبهة سوف يحيطون بنا ويطردوننا!
- ماذا تريدني أن أركب لأحافظ على أبهتك هذه؟
- أركب برذونًا!
- وهل هذا البغل هو الذي يجعل للحكام أبهة؟!!
- إنه بغلٌ من نوع خاص، ولا تستعمله العامة أبدًا بل تستعمله الخاصةُ..
- كيف صرتم تتغيرون هكذا؟!
ركب عمر البرذون وانطلق الركب، وكان البرذون ضخمًا ويسير بشكل غريب، وراح عمر يتراقصُ فوقه منزعجًا، فضربه بشملته ونزل. وكانت نقعة أمامه، فنزع نعليه ووضعهما تحت إبطيه وخاض النقعة، فسمع الركب ضحكًا من المستقبلين أهل بيت المقدس..
اندفع إليه أبو عبيدة وقال:
- ماذا فعلتَ يا أمير المؤمنين؟!
- ماذا فعلت ثانيةً؟! هذا البرذون لا يصلح إلا للرقص!
- لقد خضتَ في النقعة وحملت نعليك، أنحن حكامٌ هنا أم خدمٌ؟!
وقف بقوة وصاح ضاربًا أبا عبيدة بشملته:
- أأصبحت يا أبا عبيدة من الحكام المتغطرسين، أو تعتقد أنك أفضل من الخدم، لم أظنك يا أبا عبيدة قد وصلت إلى هذا الدرك!
كانت المجموعتان تتطلعان إلى هذا المشهد، وما كان مضحكًا غدا متوترًا فجأة، وحدق أهل بيت المقدس من القساوسة والآمرين في هذه الصورة، وظنوا أن هؤلاء القواد المسلحين سوف ينقضون فجأة على هذا الرجل الأعزل الذي يشبه الشحاذين ويقذفون به بعيدًا، لكن القائد أبا عبيدة هو الذي انحنى خجلاً واعتذر!
وقف عمر على هضبة مشرفة على حقول كالأبسطة الخضراء مستوية و متناسقة، وتنطلق فيها أشجار الزيتون والبرتقال والتفاح، وتندفع في سمائها سحابات الطيور..
انحنى وركع ركعتين..
هنا مر القادة تصحبهم النيران والعربات الحديدية والسيوف والرماح، هنا كانوا يسبون الحشود ويحرقون المنازل، هنا سار الأنبياء حفاةً ينشرون حكمة ويتلقون الحصى على أجسادهم، هنا كانت الكراهية تصارع وتصرع بأسنة الرماح والقلاع والمنجنيق..
تأمل عمر المدينة كسجادة من الحجر حيث يتوارى البشر خائفين من الفاتحين..
رأى منازل الفقراء المعلمة بالزحام والصغر وحشود الأطفال والأسمال..
أحاط به القساوسة والمطارنة وحشدٌ من علية القوم، ودخل عمر المدينة على حصانه، وكان ثمة حشدٌ قليلٌ يحدق في هذا الرجل الأصلع ذي الثياب العادية والذي يحاذي قادة المدينة، وهم يتطلعون فيه بدهشة وسخرية..
القسيس الذي قاده للقصر توقف مستغربًا وهو يدع المكان، ويجثم في بيت صغير، ويرقد على شملته ويتوسد زوادته..
أحاطوا به ووضعوا أمامه وثيقة الصلح فقرأها ووقعها، ووقعها القادة العرب الآخرون.
حان موعد الصلاة فقال القسيس:

- صل هنا يا عمر··
فقال:
- إذا صليت ربما يأخذ من يأتي بعدي هذه الكنيسة·· فسوف أصلي في الخارج عند تلك المزبلة··
- ولكنها مزبلة!
أحاط الناسُ بهذا الرجل الغريب القادم من الصحراء، الذي يغادر الكنيسة البراقة ذات الحجر الصوان، ويبحث عن مكانٍ لصلاته، ويقومُ بكنس المزبلة، يحدقُ فيه القوادُ العرب، وينزلون من فوق أحصنتهم، ويندفعون لمساعدة عمر، وفي خلال ساعة كان المكان نظيفًا·
حشد المقدسيين أحاط بهذه الثلة وعيونه مذهولة، ولم يعودوا الآن مسلحين، ومتحدثين، بل صامتين، متوجهين إلى بقعة جنوبية، متحدين في ركوعهم وسجودهم على التراب··
في الظلام وفي هدأة الحجر ونوم العصافير لم يجد القسيس عمرَ في فراشه، وظن أنه يقرأ، أو يصلي، لكنه رآه يمضي في الأزقة مع خادمه!

من الطين، من المستنقعات، بين قبور المعارك، من المدن المحتلة، يمشي طابور مبعثر من نحو مدينة تستر.

يتأمل الهرمزان الحشد الهزيل، بملابسه الرثة، وأشكاله الهزيلة المتخشبة؛ (هؤلاء هم من يحمل الطاعة لملكنا.. لكنه هل يستحقها، هذا الذي هرب بسرعة شديدة وترك المدافعين على الأسوار؟ أين مضى الآن؟).

ثمة حقولٌ مفتوحة، وما زال المزارعون يشتغلون كأن شيئًا لم يكن. شجرة ضخمة تعطيه بعض الظلال والراحة.

(كانت كلمات رستم مدهشة، قال إن ثمة تغيرات غريبة في الأفلاك وهي تشير إلى أن ممالك جديدة ستنشأ ويذهب ملوك عظام إلى النسيان. لماذا أهرب من قدري؟ لماذا لا أكون مع هؤلاء العرب؟ أعتنق هذا الدين، دين الأقوياء؟ هل صاروا أقوياء؟ من يدري ربما تمكنا من هزيمتهم.. لماذا عليّ أن أحمل هم بلدي؟ ويظل هؤلاء الجهلة يعيشون مصرين على التشبث بهذا الأكل البسيط والإنجاب الذليل؟)..

تقدم له رجل وامرأة وراحا يتطلعان إليه، كان أولادهما يتناثرون وراءهما.

- أنت جندي هارب، أليس كذلك؟

- أريد شيئًا من الأكل..

أعطياه خبزًا وبصلاً فراح يلتهم ثم يشرب ماءً، وينام على الحشائش..

كان رستم يتقدمُ إليه، جسدٌ شامخٌ، مليءٌ بالطين والدم، يجلس قربه، ويقول(متى ستبدأ المعركة؟ أنت جبان، تنام الآن؟ علينا الآن قتل الأفيال التي لم تفدنا بشيء، والآن سيكون القتال خلف الجدران.. هيا انهض)، لكنه لا يعرف لماذا صرخ عليه (أنت الجبان الذي هربت من المعركة، ولذت بالقصر.) قال رستم (تعرف أن يزدجرد مات وتم إدخاله في جوف حمار وحُرق!). رد (حصلتُ على جارية عربية جميلة). صرخ رستم (أي أوهام هذه، بيتك أُخذ ونساؤك سبين إلى الحجاز، هل تعرف الحجاز؟ سأذهب إلى هناك وأقاتل!).

صحا وكان الليل، والمزرعة المفتوحة للهواء والطرق والسماء، وكان هو في بحيرةٍ من الماء والتراب. ورأى كوخ الفلاح مضاءً، وسمع صرخات وضحكات تنبعث منه. ورأى شبح رستم يدخل من الباب.

راح يبكي.

(لماذا لا تنقذنا يا إلهنا؟ لماذا تركتنا وحدنا نُهزم ونهرب ونضيع في أرجاء البلاد الواسعة، وهؤلاء الناس يواصلون حياتهم البليدة وكأن شيئًا لم يكن! لو أنني أرى عمر هذا لغرزتُ فيه خنجري!).

نهض غاضبًا وتوجه إلى الكوخ ووقف في الضوء، فحدقت فيه العائلة الكثيفة برعب..

صرخ:

- مدينتكم، عاصمتكم.. ذهبت وأنتم تضحكون..؟!

كانوا صامتين والأطفال بكوا بخوف·
قال كهلٌ:
- أتريد أكلاً يا بني؟
ترنح على الأرض، وطالع أن ليس ثمة بذلته العسكرية الجميلة ذات النياشين ولا أسلحته ولا صناديق ذهبه، هو الآن في حقل تافه، مع عائلة بائسة، تنظر إليه بعيون شتى، وتساءل ماذا سيكون مصير هؤلاء الأطفال وأي دين سيعتنقون؟
- أعطني أي شيء·· أريدُ فقط أن أعيش لأصل إلى مدينة توستر·· أتعرفون ماذا يجري؟ هناك غزاةٌ قادمون لكم! أعطوني هؤلاء الفتية ليحاربوا!
- نحن كبرنا وهؤلاء هم الذين سيحرثون الأرض·· ديوننا كثيرة·· والدهاقين لم يفروا بل جثموا في بيوتهم ينتظرون ماذا سوف يحدث·· كأن ألف سنة انقضت وبدأت ألف سنة جديدة لا ندري ماذا سيحدث بها··
- ولكن هؤلاء الغزاة سوف يأتون إلى هنا ويأخذون أرضك وعيالك!
لم يقل الرجلُ شيئًا، وبدا حائرًا حزينًا·
أمامه طريق طويل لمدينة (ن)، والجبال تأتي والهضاب والطرق الملتفة والمستنقعات الملحية، ويرى طابورًا عسكريًا يتقدم في الطريق نحوه· اندفع إليهم، وفوجئ بإحاطتهم به، والتحديق فيه، آمر الفوج يسأله:
- من أنت وإلى أين ذاهب؟
- أنا الهرمزان نائب القائد رستم·· وأنا قادمٌ إليكم··!
- كثيرون ادعوا أنهم رستم نفسه، خذوه!

كان عمر يأكلُ إفطاره المكون من خبز وزيت وبيض، ومعه أسلم وقد حفل طبقه بالبيض والزيتون والخبز. وبين لقمة وأخرى كان عمر ينظر في جلود الكتابة. وبين مضغة وأخرى كان وجهه يتصلب.
سأله أسلم:
- اليوم سنغادر يا أمير المؤمنين؟
توقف عن الأكل وسأل:
- لماذا لا تناديني بعمر.. إذا كنا وحدنا؟
تطلع فيه الآخر بدهشة وابتسم، فرد عمر:
- نعم، لا بد أن نسرع للمدينة..
- هل جرى شيءٌ جديد؟
- أخبار فارس لا تسر بخير. يزدجرد يحشد مجددًا..لا أعرف ماذا أفعل مع هذا الرجل، كلما توقفنا ولذنا للسلم حشد لنا الجيوش..
- إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا الآن.. لكن لم لا نبقى هنا، الأرض حديقة من البرتقال والزيتون، وأنت لم تتجول بين الجبال والأنهار، وتعبتَ كثيرًا بين الأزقة والحقول..
نظر عمر في وجه أسلم لحظة. هذا الرجلُ يعتني به أكثر من أبيه وزوجاته. لقد أتعبه معه. قال:
- إذا كنتَ تريد أن تبقى هنا فأبق..
فكر بالطرق التي قطعها، تلك البيوت الرثة، في كل مكان ينتشر الألمُ، في كل مكان خناجرٌ تغوصُ في أجساد الناس، وتلك الحارات المظلمة، والحقول الرثة التي تغذي المدن، وهذا الجوع الذي لا يتوقف والأمراض، يقول للقادة (ادفنوا جثث الروم، هم بشرٌ مثلنا، الأرض نتنة!)، كلما مر من زقاق تراكض إليه الناس، هؤلاء المساكين الذين يخشاهم القادة العرب، يحدقون فيه باستغراب، يدعوه فلاحٌ إلى العريش في حقله فيجلس معه، ويتدافع الفلاحون نحو (الملك) العربي!
دخل علية القوم عليه ؛ قساوسة وقوادٌ عرب وجند، قال أحد القساوسة:
- من الصعب أن أتحمل مفارقتك يا أمير.. المؤمنين!
يتقدم إلى القس ويمسك ذراعه بمودة:
- وأنا كذلك، لقد تعرفتُ إلى هذه الأرض بفضلك. إن لها تاريخًا عظيمًا.
حين يخرج الجمع إلى الطريق كان هناك حشدٌ من الأهالي، يتطلع إليهم. ساروا فتكاثر الناس، وسمع عمر بكاءً، فهزته الدموع، توقف غاضبًا، ربما ثمة جندي مسلم اعتدى على أحد؟ ربما قام الوالي الذي عينه بابتزاز الأهالي؟
رجع إلى الحشد مخترقًا الجندَ والقساوسة. مقتربًا من الوجه الباكي الضائع بين وجوه الجمع. فرأى أن ثمة عيونًا عديدة باكية.
قال له رجلٌ كهلٌ:
- لقد أحببناك.. أيها الملك!

- لستُ ملكًا يا أخي··
واندفع الحشدُ حوله، فلم يركب الحصان، وسار مع الناس، حتى كانت المدينة تحتهُ جميلةً، تناسق فيها الحجرُ والشجر، وكأنه رأى خطىً لأنبياء، وآثاراً معتمة لمحرقة، وأصوات الفقراء لا تزال تسأل··
ودع القادة العرب، وحين احتضنه أبو عبيدة قال له:
- يا لهذا الثوب الجميل يا أمير المؤمنين؟!

كانت جحافل العرب تقترب من مدينة تستر. حشودٌ غريبةٌ استطاعت أن تخترق الجبال والجيوش والمستنقعات والأخاديد، فبدوا كأنهم جنٌ قادم من تحت الأرض لا يوقفه شيءٌ!
تأمل الضابطُ الهرمزان في مدينتهِ - القلعة، هذا الجرادَ الرمادي بقلقٍ.
كان يتجولُ فوق الممشى الحجري في أعلى القلعة، وحشدٌ من الجنود والحديد اللامع وكرات النار تنتظر الغزاة.
(هنا سوف يتم إيقافهم. هذا الجحفلُ ليس أمامه سوى أن يعود للوراء. هذه مدينةٌ مليئةٌ بالجنود وأسوارها صخورٌ وحولها أوديةٌ تفغرُ أفواهَها التي تبلعُ جيوشًا بأكملها، وسيكتبُ التاريخُ أن بطلاً من عمق فارس أوقف الزحف العربي ورده على أعقابه!).
وحدق في الأفق الشاسع حيث الجيش القادم نقاط ضئيلة، ووراءه لم تزل برية واسعة، يهرب فيها حالما يشعر بأي هزيمة ما.. ولكن كيف الهزيمة؟!
وهو يجتمع مع القواد الآخرين واصلت شكوكهُ الكثيرة إزعاجهُ، فهل يستطيع أن يهزم جيشًا وهو خائفٌ رابض في قلعته لا يخرج منها لملاقاة جيش ضئيل العدد؟ أي رعب هذا؟
يقول لهم:
- لا تخرجوا أبدًا من هذه القلعة، اقذفوهم بالنار والحديد ودعوهم في البرد والمطر حتى يتسرب لهم اليأس..
فرد فيروز وهو يجسد مخاوفه:
- هذه خطة سيئة وجبانة، بل علينا أن نخرج من الحصن ونهاجم العدو، فنحن جيشٌ هائل مكون من عشرات الألوف ووراءنا سكان المدينة، ثم هناك ملك الملوك يزدجرد وراءنا وهو الذي يبعث لنا المدد دومًا، وهو جاهز بجيش، فلم نخاف؟ أظن أيها الأخ أن هزائمكم في العراق قد حطمت نفوسكم!
صمت لحظة، ثم قال:
- إنني مصرٌ على موقفي..
- السكان سيتضايقون من الحصار الطويل!
تدفقوا في الأسفل ووضعوا حاجزًا جديدًا هائلاً كله أسنانٌ حديدية تضم أية أجساد تتهاوى عليه.
الجيش الصغير الماكر لاذ بصمت طويل، وفي غفلة كان يتدفق على المدينة القلعة من أبوابها الأساسية، وتنهالُ عليه الحمم والسهام وكرات الحديد، فيعود أدراجه.
ابتسم الهرمزان وتطلع إلى الضباط المراقبين للمعركة في الممشى المطل على السور والساحة الخارجية، محدقين في جنودهم، وطرق عملهم، وفي العدو الذي يتراجع ثم يهجم ثانية، مطلقًا ضرباته بلا جدوى.
يوم وآخر والعدو تأتيه إمداداتٌ ويقف في مواجهة المدينة المغلقة، غير قادر على الالتفاف حولها، بسبب الأودية العميقة، ويفكر الهرمزان بأنه لا بد راحل، بسبب هذا البرد الليلي القارس، ولا تنفع الخيام والنيران المشتعلة، ولا تجدي الضربات والحبال المقذوفة إلى الجدران، والسلالم تحترق،

ويسمع في الليل الهادئ جدالاً متصاعدًا ورغبات للجند بفك الحصار، ويتساءل هل سيلقن العرب هزيمة كبيرة أقسى من هزيمة معركة الجسر، لا تقوم لهم قائمة بعده، ويتحقق حلمه؟ ويعود إلى بيته؟ هل بقى له بيتٌ الآن أم زال وسبيت نساؤه وضاع أولاده؟
يلتف بمعطفه وتحته بذلته العسكرية ويجثم في البرد بأعلى السور يراقب، ويرى فيروز يتقدم نحوه ويجلس قربه، ويقول:
- لقد تضعضعوا كثيرًا بعد هذه الأيام القاسية، قتلى، وجرحى، وعذاب في البرد والمطر.. لا يبقى سوى أن نهجم عليهم هجمة قوية كبرى ونزيلهم تمامًا!
- لا تفعل ذلك. دعهم حتى يرحلوا عن هذا المكان تمامًا، بعدئذٍ نطاردهم وهم عائدون..
- هذا التردد يضعفنا.. تكفي هذه الروح المعنوية الخافتة!
تخرج قوةٌ من القلعة وتهاجم العرب، صفان طويلان يتقابلان وسيوف تصطدم ويندلع من الشرار، وتتجندلُ أجسادٌ، وتسقط خيولٌ، والصفان لا يبرحان مكانيهما حتى المساء، والوجوه لا تتضح، وأضواء النجوم لا تكفي، وبيوت النار بعيدة، والنوم بعدها كجثث..
ومرة أخرى تظهر قوةٌ من الحصن وتغرز أنصالها في الأجساد، وتلك الصفوف من العرب لا تنشق، بل هي تزعزع الصفوف الفارسية، وتفتح ثغرة كبرى بها، وتتعالى الصيحاتُ من الجانبين، ويبدو العرب قد شكلوا رمحًا هائلاً في عمق الجيش، لكنه ينادي التعزيزات، فتتدفق حشود من عمق القلعة، وتسدُ الطريقَ على العرب المتقدمين الذين يصابون بضربات ويتراجعون مذعورين ويعودون إلى الوراء وقد فقدوا مواقعهم الأولى، واضطربت صفوفهم الأمامية، فاندفع الجيش الفارسي فرحًا، وهو كان يرقب الموقف بتوتر، وبشيء الفرح، و لكن الحشود المتدفقة المستعجلة من القلعة لم تجعل في نفسه أي شكوك، وبدا أن الحلم سيتحقق، وهاهم العرب يندحرون، وجيشهم يتمزق، لكن فجأة توقف ذلك الجيش المندحر واستوعب الجيش في داخله، وظهرت فرقٌ على الجانبين وانقضت على جيشه..
كانت لحظة مخيفة، اصطكت فيها كل القوى، وظهر الفرسان العرب بقوة رهيبة، ممزقين الصفوف، متوغلين في الحشود، منثرينها في كل اتجاه، وارتعبت الصفوف الخلفية وتراجعت وأحدثت اضطرابات مخيفة، وازدادت الضغوط مع تدفق المشاة العرب، فراحت صفوف جيشه تتكسر، وراح يضرب بكل قوته، وينادي جنوده للصمود، لكن الجنود كانوا يتراجعون بلا نظام وبرعب، واصطدموا بالحاجز الحديدي الرهيب الذي وضعوه هم أنفسهم، فتغلغلت أسنانهُ في أجسادهم، وذعرت آلاف أخرى وتساقطت في الأودية بخيولها وأسلحتها..
كانت السيوفُ العربيةُ تحيطُ بجسمه، وثلةٌ من الرجال تنتزعهُ من أرضه..

كانت قافلةٌ طويلةٌ تتوغلُ في الصحراء..
خيولٌ وإبل وأسرى وجنود وأسربة وسماءٌ كالحة وأرض مجدبة على مدى النظر!
فكر الهرمزان (من هنا تدفق هؤلاء الرعاة ليقوضوا مجدنا، من هذه الأرض الجائعة للأزهار والتفاح والبرتقال والنساء! والآن عليّ أن أواجه مصيري الرهيب، قطع بشعٌ للعنق وانقطاعٌ أبديٌ عن الأرض والأهل!).
يمشون وهم مقيدون وهدوء غريبٌ يخيم على هؤلاء الناس، سوى من غناء ينبعث من أفواه طليعة القافلة من هؤلاء الرجال الذين تقرحت أقدامهم على هذه الرمال الساخنة، وأحد الرجال الذين امتطوا الخيول رجلٌ يعرفه ورآه في مكان ما، لكن لا يتذكر أين..
تمتد الرمال على مدى النظر، وتتشكل على هيئة تلال، ثم تتمدد، وتظهر جبال سوداء وصفراء، وتظهر أودية معشوشبة، والقافلة لا تتوقف عن المسير سوى في الليل ووقت الظهيرة، وفي أوقات النهار الساخنة تظهر خيامٌ وتتمدد الأجسام فيها، وفي الليل تتساقط هذه الأجساد على الرمل الناعم البارد، ويغدو العشب نديًا بعد أن كان يحترق في الظهائر.
الأسرى الفرس الآخرون جنود بلا أسماء، سوف تضيع حياتهم في هذه الأرض القاحلة، لكنهم صابرون هادئون بل يثرثرون أحيانًا بمرح:
- لقد شاء أهريمان أن نكون هكذا..
- سنعود ذات يوم إلى بلادنا..
- يبدو هؤلاء الناس غريبين جدًا بل.. طيبون!
لكنه يهمسُ لهم:
- سوف يبيعونكم أو يقتلونكم، هؤلاء البدو لا يعرفون الرحمة، انتبهوا جيدًا!
في وقت الغداء أو العشاء، تفرش بعض الأسمطة، ثم يظهر الأكل من الأكياس، أو يُطبخ، ويدعون إلى ذلك السماط نفسه الذي يجلسون قربه ويأكلون.. الأكل لذيذ في الصحراء الليلة، لكنه في الظهر يغدو شاقًا مع العرق ولفحة الهواء المحمل بالرمل..
يلحظ أن الرجل الذي يعرفه ولا يذكر اسمه يراقبه. ويتحدث مع الجنود عنهم، ثم يرى أنه يبعد عن أولئك الأسرى، فيدهش من ملاحظتهم.
يصر خ في نفسه (بعد كل هذه الكوارث وتعتقد أنهم سذجٌ؟! هذا شعب ماكر.. لكن كيف هزمنا هكذا؟ كيف تدفقت عشرات الألوف في أخاديد الأرض وكأنهم ماعز؟ كيف اختفى أولئك البشر ولم يدافعوا عن أنفسهم؟ يا للمكر العربي..! كيف استطاع هؤلاء الرعاة أن يكونوا بمثل هذه القوة المدهشة؟ لا بد أن يكون ملكهم عمر شيئًا مخيفًا، رجلاً أسطوريًا كأنه من عمالقة الفرس أو من آلهة اليونان!).
يلاحظ كذلك أن الرجل يقترب منه، يقول بلغة فارسية:
- أليس من الأفضل يا هرمزان أن تستجيب الآن لشروطنا التي قلتها لكم!

تطلع فيه بتمعن فتذكر ذلك الرسول البسيط الذي جاء مع وفد لملك الملوك، وخاطبه بوقاحة واعتداد. إن الاسم لا يلوح في ذاكرته.

- يا رجل إنني الآن أسيرٌ لديكم فافعلوا بي ما تشاءون..

- إننا نقدر ما فعلته من أجل بلدك، هذا كان واجبك!

حدق فيه بذهول، لكن وجه البدوي الهادئ لم يكن يشي بسخرية بل بجدية تامة. وفي هذا المكان الصحراوي المُفعم بالهدوء والبساطة، وباحتكاك هؤلاء الرجال وأحاديثهم العادية، وصلواتهم الجماعية، وتماسكهم الغريب، راحت مشاعره تحتدمُ مرةً أخرى.

أكمل الرجل حديثه:

- إذا آمنت بالإسلام فسوف تكون منا، وننسى كل ذلك الماضي.. وتكون أخًا لنا!

وصمت. هذه فرصة كبيرة لنجاته، تـُعرض بسهولة شديدة ولكن عليه أن يفكر ولا يستغبي هذا البدوي الماكر. قال:

- كيف يتحول الإنسان من عدو إلى أخ؟!

- نحن كنا أيضًا أعداء وتحاربنا، ولكن اتحدنا ونسينا ذلك الماضي.. أنا المغيرة بن شعبة قد أكون أخاك إذا قلت لا إله إلا الله!

(كيف لي أن أنسى وطني ومجده وكل أولئك الضحايا، ماذا يقول هذا الرجل؟! كيف لي أن أنسى كل هذه الأنصال التي مزقت روحي؟ أين إلهي يحميني؟).

- لابد أن يعلمني أحدٌ ما هذا الدين.. ولكن يا سيد لماذا تعرض عليَّ مثل هذا العرض الكبير، وما أنا سوى أسير لم يعد لي من قيمة لديكم؟!

- أنت رجلٌ من علية القوم وتعرفُ أسرارًا كثيرة، ويمكن أن تفيد جهادنا، وتكشف لنا أشياء كثيرة، فتنضم إلينا وتعيش كما نعيش..

(أي خيانة وضيعة يعرضها هذا الرجل، ويريد أن أكشف له الأسرار وربما الثروات المدفونة!)..

- لابد لي من التفكير في هذا. إنه تغييرٌ كبيرٌ في حياتي، وحتى الآن لم تزل صلصلة السيوف تقرع أذني، والحبال التي ربطتموني بها تحزُ في جلدي، وهذا السير الطويل المهلك حطمَ جسمي..

- فكر وتأمل، فديننا بسيط جدًا، تنطق الشهادتين وتؤدي الفروض وتحسن معاملة الناس فتصبح مسلمًا!

- عليّ أن أعرف يا سيد مغيرة معنى الشهادتين وهذه الفروض.. الأمر طويلٌ كما يبدو..

(حتى لو أحرقتموني بالنار لن أتحول إلى مسلم، لن أنضم أبدًا إليكم، تملأ نفسي عواصفٌ رهيبة وهو يقول تصير منا!).

حين كان عمر يجالس عليًا بن أبي طالب ويبحثان بعض قضايا القضاء، دخل وردٌ٠ فحدق فيه عمر بتوتر وقال:
- ألديك أخبار سيئة هذه المرة كذلك؟!
فاندفع ورد صائحًا فرحًا:
- بل هو النصر الكبير يا أمير المؤمنين٠٠ لقد سقطت مدينة توستر وكأن فارس فتحت جميع أبوابها، وها هي الغنائم تتهادى في الطريق إليك!
كبر عمر وعليٌ وهلل الحاضرون , ثم قال عمر بغضب:
- هذه الغنائم ليست لي يا ورد بل لبيت المال٠٠ سوف نسجلها ونوزع بعضها، ولكن أنا لا أريدُ منها شيئًا!
- لم أقصد أنها لك٠٠
- كنا نودُ أن لا نقاتل هؤلاء الناس ونقتحم بلدهم ولكن ذلك الملك الأرعن لا يريد أن يهدأ من تجييش الجيوش ودفعها نحونا! لكن قلي كيف حدث هذا النصر؟
وقبل أن يجيب دخل محمد الخادم وقال:
- يا أمير المؤمنين إن بعض إبل الصدقة هربت من الحظيرة!
تقدم ورد أكثر مقتربًا من الخليفة لكن عمر نهض فجأة وقال:
- ارتح قليلاً ريثما أمسك هذه الإبل٠٠
- يا أمير المؤمنين أنا أحدثك عن غنائم قادمة تملأ هذه الدار وأنت تريد البحث عن إبل؟!
- كلها أموال الناس٠٠
اندفع عمر في الدروب ملاحقًا محمدًا الذي سبقه في الجري، وراح في تلك الظهيرة يتأمل حاله فكأنه يجري أبدًا من أجل أشياء الناس، ولم يفكر في نفسه، وغدت مهمة الحكم شاقة متعبة، لكنها ضرورية لأنه لا بد أن يقوم بها إنسان مرهف لحاجات الآخرين وآلامهم، ولو كان شخصًا آخر عادلاً لساعده، لكن أبا بكر ووصيته النافذة في قلبه حتى الآن٠٠ وتحت هذه الشمس الآن، والبيوت هاجعة، وبعض الناس ينظر إليه مستغربًا، وحين يعرف بالأمر يمشي معه مساعدًا، هؤلاء الناس حين يلمحونه فكأن به مسٌ يجذبهم نحوه، وها هم يعاونونه لكنه لا يريد معاونتهم، فهذه الأموال هو مسئول عن ضياعها، لم يزرها ولم يدقق فيها، وهو المحاسب عليها٠٠
حين عثر على الإبل الشاردة قادها بنفسه، وكان في مكان إبل الصدقة عليٌ ينتظره ومعه كتاب الأموال، فراحا يحسبان الإبل ويسجلانها، حتى تأكدا من اكتمالها٠
عاد إلى المجلس وكان فيه بضع أفراد وشعر بالارتياح وهو ينفذ مهمته فجثم على الحصير وغفا٠
وصلت ثلةٌ فيها المغيرة بن شعبة والهرمزان وبعض قادة القافلة٠
في الطريق إلى المجلس كان المغيرة يقول له إنك سوف تقابل الآن الخليفة عمر، لكن الأبنية راحت تتضاءل أمامه وتصغر، والدروب تزدادُ اختناقًا، وكأنه يدخل حارة لحدادين أو نساجين، فأين القصر الذي يقوده إليه؟ وأين جماعات الحراس والموظفين وأمراء البلاط؟!

فكر لعله ينتظر في هذا المجلس الوضيع أحدًا ليقوده بعد ذلك إليه، لكن المغيرة جثم في المكان وهو يتطلع إلى رجل نائم على حصير، ويبدو في منتهى التعب. وكانت الثلة التي في المكان تحدق فيه هو بدهشة.

سأل:

- ألن نذهب لخليفتكم أو ملككم؟!

- هذا هو أمامك..!

- أين؟

- هذا الرجل النائم..!

حدق الهرمزان في هيئة الرجل العملاق الأبيض الوجه، الأصلع، الذي كان يغفو بهدوء، ووراءه جيوش هائلة أطاحت بكل عوالمه وأحلامه.. كان يركز نظره عليه بشدة. كان يهتز ويرتعش في مكانه. الذهول الذي سيطر عليه كان كبيرًا ومخيفًا، أشياء كثيرة طافت في باله ؛ أصوات المعارك، الأحلام الفظيعة التي راودته بقتل هذا الرجل، الإعجاب الذي كان يتسلل إلى نفسه لمرأى الجند العرب يقاتلون بشجاعة هائلة، الرغبة المحمومة وهو يسير برؤية هؤلاء الذين هزموه وهزموا قومه.. الأبهة الهائلة التي توقعها لم تكن موجودة أبدًا، ليس ثمة سوى رجال بسطاء فقراء، فأي سر في هذا؟

تململ عمر في رقدته وجلس بهدوء وراح يتطلع في الحاضرين الذين وجدهم تغيروا ورأى المغيرة ففرح، ثم رأى رجلاً غريبًا ذا ملابس زاهية غريبة ملونة فاقعة، وعليها خيوط من الفضة، فهتف:

- من هذا أهو ملك أو حاكم ما؟

قال المغيرة:

- هذا قائد من قواد الفرس واسمه الهرمزان..

اقترب عمر وراح يحدقُ فيه، والهرمزان استغرب من دهشة عمر به، ما الذي يراه فيه مذهلاً؟ في حين إنه هو المذهول به، فكيف يكون هذا الرجل هو عمر الذي يدوي اسمه في كل فارس وفي بلاد الروم والشعوب مرعوبة منه؟!

قال عمر:

- لا بد أن يبقى بلباسه هذا لبضع الوقت حتى يرى الناس كيف تم ذل الملوك.. أترون هذا الرجل كأنه طاووس!

سأل الهرمزان المغيرة عن ترجمة هذا الكلام لكن المغيرة سأل عمر:

- ماذا ستفعل بهذا الأسير يا أمير..؟

- هذا الرجل قائد دوخ جيوشنا وقتل الكثيرين وانتقل من مكان إلى مكان محرضًا ومتزعمًا.. فلابد أن يُقتل!

صاح المغيرة:

- لقد قلتَ قبل قليل إنك تريد أن يعيش الرجل ليراه الناس؟!

الفصل السادس

تأمل الهرمزان السماءَ الصافيةَ الملأى بالنجومِ وهتف في روحهِ: (أيمكن أن يكون هذا حقيقة؟! أيمكن أن أعيشَ وأغدو حرًا ومستمتعًا بحياتي وأسكن غرفةً وأتنفس الهواء؟ وأتعلمُ العربيةَ لغةَ العدو البغيض وأصيرُ مسلمًا!! لا بد أنني أحلم. صمتتْ السيوفُ وغرُزت الرماحُ في الرملِ وهدأت الطبولُ، وليس ثمة سوى رستم يطوفُ بأحلامي مغسولاً بالدماء وهو يغرقُ وينادي! لكنني لن أدين لك يا عمر بحياتي بل لهذا الرجلِ الذي قابلته في الصحراء، المغيرة، صاحب الكلمات السحرية، الذي أحسُ بشيءٍ مشتركٍ غامضٍ وغريبٍ معهُ!.. لكنني وحيدٌ في هذه المدينة، مُراقَّبٌ من أكثر من ثلاثةِ رجالٍ أشداء، وبين لحظةٍ وأخرى يطلُ عليّ وكأنه أحد أفراد الجن الذين ينبثقون من الهواء!

يحدثهُ عمرٌ بشكلٍ غريبٍ ساحر:

- يا هرمزان ألم تر أننا عاملناك بشكل لم تتخيله؟!

- نعم، يا أمير..

- ومع ذلك أنت تحملُ علينا في نفسكَ أشد الحمل؟!

صمتَ وقلبهُ يدقُ بقوة!

- ماذا يفعل رجلٌ كان في مكانةٍ عالية ثم رأى بلده ينهار ويؤخذ أسيرًا؟!

- صدقتَ كل الصدق في هذا ولكن نحن كنا نحاول أن نتجنب الدخول في بلادكم لولا يزدجرد وحماقاته.. والآن كلُ شيءٍ تغير وسوف تزول هذه المجوسية وينتشر الإسلام فكن معنا، لنتحول إلى إخوة!

يمضي الكلامُ عابرًا أذنه..

يتذكرُ البلاطَ وذلك الرجل الملك وكيف كان مندفعًا لخدمة بلده، ولكنه في لحظاتٍ يقومُ بأحمق التصرفات فيلوذ بالفرار، ويحمل كنوز الذهب، ويتوارى، وهو الآن هناك لم يزل يقاومُ، وهذا شيء عظيم، برغم كل شيء لم يستسلم..! رجل عظيم أحمق مضطرب كيف يكون، وهل يستطيع أن يفعل المعجزة وتصمد نهاوند وتغير التاريخ؟!

قال بتأمل عميق:

- كيف تريد من رجل حاكم مثل يزدجرد أن يسلم بلاده؟

- ليست تلك بلاده، تلك أرض عربية.. أما كان لكم أن تشيروا عليه، أو تضعوا أيديكم فوق يديه حتى لا يلقي بكم في المهالك كما فعل وكما ترى نفسك الآن؟

ابتسم هو في حزنه الشديد!

قال بمرارة:

- كان رستم أكثر حكمة وكان يريد التمهل والانتظار.. كان يخشى المعركة.. لكن يزدجرد كان ينخسه دائمًا!

التفت إليه عمر فجأة بتوتر:

- ماذا تريد أنت أكثر مما فعلناه لك·· تعيشُ حرًا، تصلي معنا، ولكن روحك بعيدة ونظراتك غريبة؟!
يخشى هنا الكلام، وأن يفصح عن ما يدور في فكره، والصلوات لديه حركات وهيمنة وصمت، وهو يرى هذه الألبسة الغليظة والنعالَ الجلدية الصلدة، والوجوهَ الخشبية الماكرة، والأزقةَ الوضيعة، والبشرَ الصغار، الذين يجب أن يقدم لهم كل فروض الطاعة، وإبلهم تحلسُ وجهه، وماعزهم تثغو في نومه، وجرابيعهم تأكل أحلامه، أيكون مصيره أبدًا أن يعيش في هذا السجن، وهو الذي كان في القصور يعيش تواريخ الملوك، وينادم رستم وبهرام وغيرهما من القادة الأفذاذ؟!
ربما هم فقط يعيشون على قوة هذا الرجل عمر، فإذا ذهب تفرقوا وتنازعوا··! لكن كيف السبيل إلى إزاحته؟! إنه يمشي وحده أحيانًا، وينام في المسجد، وليس لديه حرسٌ خاص، لكن الناس كلهم أشبه بحراس دائمين حوله، وهم جيش يندفع لأول إشارة من يده، وهم يفدونه كلهم بأرواحهم، فما أصعب الوصول إليه!
يسأله عمر:
- هل تصف لي مدينة نهاوند كيف هي؟
- ولماذا يا أمير؟
- أنت تعرف بأن يزدجرد يجمعُ جيوشًا في هذه المدينة لتنقض على المسلمين··
- وماذا تستفيد يا أمير المؤمنين من هذا الوصف؟
- أنت لا تريدُ أن تخبرني!
- أعجب من رجل يجلسُ هنا ويريد وصفًا لمدينة بعيدة لن يشارك في حربها!
(لا بد أن أعطيه ما يريد بدقةٍ وصدق حتى لا يظن بي الظنون، فماذا سوف يفعل بهذه المعلومات؟ ما هو إلا بدوي ساذج، لا يلبث الملك العظيم من هزيمته والقدوم إلى هنا وتحريري من الأسر!)·

مشى المغيرةُ بن شعبة في أزقة الكوفة محاذرًا، وقرع باب أحد المنازل ففتح له، وظهرت له امرأة فاتنة وعبرت به الحوش وأدخلته حجرتها الواسعة، فضمها بقوة إلى صدره وهو يصيح:

- كاد شوقي أن يقتلني يا أم جميل!

- أأنت أمير أم محبوس في هذه المدينة؟!

- لا أعرف ذلك بالضبط. عمر بن الخطاب يحولنا إلى أسرى له. يطلق علينا العيونَ التي تترصدنا، فلا نأكل ولا نلبس ولا نملك إلا سجلته تلك العيون. ومع ذلك نمتلك بعض اللحظات الخاطفة ونجمع المال ونستمتع يا روحي!

- استمتاع في ظلال الخوف!

- أهذا الحوش يطل على بيت؟!

- نعم، يجاورنا بيتُ عزاب، هم أغلب الوقت يتشاجرون ويتحدثون..

- ألا يطلون عليكِ؟

- أنا محجبة ومنعزلة في هذه الحجرة لا أظهر إلا لحبيبي!

- تعالي إذن..

ضمها بقوة، وهو مأخوذ بهذا الوجه القمحي والعيون الواسعة الزرقاء، فيندفع في احتضانها وتقبيلها..

وفجأة كان ثمة قرع مخيفٌ على الباب فانتفض المغيرة ولبس ملابسه بسرعة، ولكن الباب اهتز وكاد يتحطم، فاندفع لفتحه فإذا أربعة رجال أمامه ينظرون إليه بحدة وغضب:

- أمير الكوفة يختلي بامرأة ويقوم بفعل الزنا معها..؟!

كانت ملابسه عليه، ولكن كأنها ليست عليه، فعمامته تكاد تسقط عن رأسه، وثوبه مكرمشٌ، والسؤال كان حادًا مباغتًا، والوجوه الأربعة تتطلع فيه بسخرية وحقد، وسوف تجلجلُ الفضيحة في كل البلاد، والأخطر أن رسالةً ستذهب لعمر وتصوره وهو يحتضن المرأة، فأين يذهب الآن بوجهه؟!

قال بهدوء لا يعرف كيف استله من فوضى روحه:

- جئتُ أقضي حاجةً للمرأة...

ضحك الرجال وقال أحدهم:

- نعم إنها حاجة معروفة ولذيذة!

- اسالوا المرأة، ألم آتِ لكي.. أعرف ما تحتاجينه.. عليها ديونٌ.. كثيرة.. وإذا لم يقم الوالي بواجبه من يقوم عنه؟

حدق الرجالُ بعضهم ببعض مذهولين ضاحكين، واختلطت أصواتهم:

- عليها ديون.. قل لديها سيقان فاتنة!

- لقد رأيناك من شق وأبصرنا كلنا ما تفعله.. فأي ديون هذه!

- أنت الذي تدين لها بالأجرة الآن!

- دعوه إنه لم يكمل عمله··!

أبعدهم عن طريقه، ورأى الناس يتجمهرون، والرجال الأربعة يرفعون أصواتهم، وكلمات (الوالي)، (الزنا)، (رأيناه رأي العين) تدقُ جدران عقله بعنف، وسوف تبلغ هذه الكلمات دار الإمارة وبيته وآذان زوجته، وأبناءه، وتغدو فضيحةً مدوية، فعليه الآن أن ينشر روايته، فالعالم كله روايات، أي رواية تنتشر وتسود هي التي تصيغ العقول والأحوال··

يدخل دار الحكم بهدوء، ويعطي أمرًا بإرسال مساعدة عاجلة لدار أم جميل بسبب شكواها وحاجتها الماسة، ويتكلم مع بعض حراسه عن ادعاء بعض الرجال عليه بأنه مارس الزنا مع امرأة في حين أنه ذهب لحاجة لها·· فيحدق فيه الحراسُ مذهولين، ويضربون أيديهم بين الدهشة والابتسامة!

وهو يبادر بالكتابة إلى عمر في ظل زوبعة راحت تلف المدينة، وخصومه يكتبون إلى عمر أيضًا، وزوجته تجافيه وأبناؤه يستغربون، وجموع المصلين في المسجد تمنع دخوله وإمامته، والحراس محايدون، لا يأبهون بأوامره، وبسخريات الناس منه··!

كان خطاب عمر القادم إليه سريعًا باترًا:

(أحضر إليَّ أنت والمدعون عليك، والسلام)·

ذهبت الولاية ورحلت الكنوز، وبوابة العراق المفتوحة على ذهب فارس أغلقت في وجهه!

ووجد ابن عمر عبدالله الذي استنكر فعله أشد الإنكار· ولم يجد من يريحه سوى صديقه مروان بن الحكم، الذي استضافه في داره وقال له:

- ما هذه الزوبعة المثارة عليك؟!

- لقد ضـُبطت يا مروان ضبطة صعبة··

- وسوف تذهب لسوط عمر· يا إلهي أي ذل نعيشه مع هذا الرجل؟

- هم رجالٌ أربعة وكأنهم شهود مرسلون إلي بدقة عظيمة!

- سأبعث ليزيد ولمعاوية ليكتبا لعمر·· لا يمكن أن يـُذل الأشراف بهذه الصورة المريعة ويتم جلدهم على رؤوس الأشهاد!

- لا تبعث شيئًا، فلو بعثت لظنوا أن لنا ربطة ما·· ونحن لا نريد أن يحسوا بأي شيء··

- إن بك لجلد عظيم على هذه المشاق ودهاء أعرف كيف ستستفيد منه لتخرج من هذا المأزق!

- الاتكال على الله!

وودع أصدقاءه ومعارفه، ومر على صانعه الفارسي أبي لؤلؤة، الذي كان في دهشة شديدة من الحكاية، وقال:

- يا سيدي كيف غدروا بك هكذا؟ وما هو مصير الدكان هنا؟

كانت قافلته تمضي في الطريق إلى المدينة والرجال الأربعة خصومه كانوا يمضون معه، بدون أن يحدثوه أو يأبهوا لوجوده·

كان ثمة حشدٌ كبير يحيط بمجلس عمر. رجالٌ جاءوا من الأمصار، بدو توافدوا من كل مكان، مقاتلون فقراء يستعدون للذهاب إلى فارس ومصر.
كلهم كانوا يحدقون فيه، لا تلتمع في عيونهم نظرات الغضب بل الهدوء والحنو وهم في تجمعهم الغريب المحيط بالخليفة!
كانوا يخاطبونه:
- يا عمر وزع الأرض علينا!
- لا نريد هذه النقود الزائلة بل هذه الأراضي الزراعية الباقية لأهلنا!
- نحن نسلم أرواحَنا ودماءنا فتبخل علينا بحقنا؟
- وهذا من الشرع وآية الأنفال واضحة يا أمير المؤمنين..
يحدقُ عمر في القائل الأخير بصرامة وغضب:
- أتعلمني بالقرآن يا هذا، ثكلتك أمك!
يرد الرجلُ بخجل:
- معاذ الله ولكن ذكّر فإن الذكرى تنفعُ..
قال عمر بصرامة:
- ألا تثقون بي أيها الجند؟ ألا ترون أن مصالح الناس الباقية هي مدار الشرع وهي أمانة الحاكم؟ أأريدُ أن أضع قطعةً صغيرةً من هذه الأراضي الشاسعة لي أو لأحد أبنائي؟!
هتفوا جميعًا:
- لا ونربأ بك أن تفعل ذلك!
- بل حتى نريدك أن تأكل وتلبس مثلما نفعل!
يقول بهدوء:
- أيها الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً، هذه الأرض يجب أن تكون لكم جميعًا، هذه الحقول الشاسعة، هذه البساتين العامرة لا يجب أن تتقسم.. أريدها أن تكون لكم جميعًا ولنسلكم من بعدكم!
يحدقون فيه ويفكرون. كأن الكلمات التي تخرجُ من فمه لها مفعول السحر. هذه الوجوه المعروقةُ تفكر وتتأمل. هذه الملابسُ الرثةُ تعتدل. تلك الحشود القادمة بتذمر وقلق تذوب في الدروب والضحكات. الرؤوسُ تحدقُ في الآتي بدهشة.
لم تبق سوى ثلة صغيرة راحت تمشي مع عمر وهو يتوغل في الشوارع، يكلم صحابيًا في متجره، ويدخل مجلسًا يأخذ منه بضعةَ رجال، ويخاطب عماله لكي يخبروا كبار الصحابة، فيحضر جمعٌ ويحتشد في مجلس.
تتدافع الآراء في الفضاء، تتصادم، بعضهم يبغي توزيع الأرض على المعدمين، بعضهم على الجنود المضحين، بعضهم على الناس أجمعين.
يقول علي بن أبي طالب:
- أرى أن تكون الأرض للناس جميعًا، وتوزع خيراتها على الجنود والعرب وأهل الأمصار ولا تقسم.

كان عمر صامتًا طوال الوقت، وحين طرح عليٌ رأيه، بدا أن الجمع كله صار مقتنعًا بالفكرة.
فقال عمر:
- هذا هو ما كنتُ أفكر فيه، أحسنت يا أبا الحسن.
خرج الجمع للناس المتجمهرين الذين أصغوا للأمر الذي توصل له المجتمعون فتحدثوا قليلاً ثم انصرفوا إلى بيوتهم.

كانت وراءه سحبٌ من الدخان والصرخات. حين يمر تتفتح الحصون وتـُدك الأسوار، خالد بن الوليد يمضي كتيبة من إعصار، تتصدع الجيوش التي يقف قبالتها، كانت مدينة تستتر بأسوارها الهائلة وحشود قبائلها العربية العسكرية، تأبى أن تتصدع، وهذه القبائل تخرج وتنقض عليهم وتعود سالمة إلى الحصن، ثم تستسلم وتعود لنقض عهدها فيسوي بجدرانها الشامخة الأرض ويهزم جموعها ويذيبها في الأرض..

لكن كل ما يفعله قبض ريح، وأفعال في مدن صغيرة وجهات تائهةٌ في الأرض، كان العراق ساحته، والآن قواده هناك هم الذين برزوا فوق جبال التاريخ، لقد استطاع عمر تقزيم حضوره..

والكثير من طاقته الكبيرة يصرفها في شئون قلبه، لا يكف عن الزواج كأنه شره أبدًا إلى النساء، ويتدفق أبناؤه من صلبه مثل المطر المدرار. الحب يعيده للحياة ويخرجه من الحزن والسأم بعد المعارك الضارية، ويدخله في أنهار من اللذة والحنان والمتع..

ها هو الآن يعود إلى دمشق مع امرأة فاتنة ليقضي استراحة المحارب الممتعة، ويصغي إلى فحيح بني أمية. لقد جاء معاوية لزيارة أخيه يزيد، وثمة حية أخرى قدمت من العراق وهي مروان بن الحكم، وحين يجتمع هؤلاء الثلاثة فإن ثمة أمرًا عظيمًا يجري.

في مجلس يزيد جثم هؤلاء الثلاثة، وتحدثوا عن أشياء بعيدة، سألوه عن فتوحه العظيمة، ومدحوه بإفراط، وغمغم معاوية:

- مثل خالد يـُعزل عن القيادة ويتولاها زاهد عابد لا يعرف شيئًا كبيرًا في أمر الحرب!

قال مروان:

- لقد وقع المغيرة بن شعبة في قبضة عمر أخيرًا!

فوجئ خالد وتساءل فقال مروان:

- نكح امرأة بلا زواج.. وشهد شهود أربعة ضده.. وهو أمير المدينة والمتصرفُ فيها، أفلا يستطيع أن يعاشر امرأةً ما..؟!

ردد خالد بلوعة:

- هذه سقطة مروعة!

قال يزيد:

- هي مكيدة عليه..

قال مروان:

- إن عمر يبالغ في كل شيء ويقيد الولاة تقييدًا شديدًا، ويجعل هؤلاء الدهماء يتحكمون في ولاة الأمر، وقد سيق المغيرة كمجرم عادي، وأولئك الشهود معه في القافلة نفسها وعلى قدم المساواة!

هتف خالد:

- هل تريد أن يـُكافأ؟!

- انظر ماذا فعل بك يا خالد لأخطاء تافهة تم عزلك ووضعت تحت تصرف من هو أقل منك مكانة.. وتتم مراقبتك كأنك مشتبه به!

وواصل مروان:
- لكننا لم ندع صاحبنا يساق إلى الجلد وتحدثنا مع أولئك الشهود الأربعة لزحزحتهم عن شهاداتهم·· وتمكنا من أحدهم، فغير شهادته وفاز المغيرة عليهم!
صرخ خالد:
- ويحك يا مروان حولت الشهود إلى مذنبين والمذنب إلى منتصر!
قال معاوية بهدوء:
- على رسلك يا خالد·· المغيرة ليس شخصًا عاديًا ليجلد·· غدًا قد يفعلون بك مثل هذه لأقل غلطة··
قال مروان:
- نسيت حوادثك مع عمر في خلافة أبي بكر وكيف أراد تطبيق الحد عليك مرارًا، وشنع عليك حين كنتَ تتزوج بعد حروبك الطاحنة؟!
رد خالد:
- لم أكن مصيبًا حينها وكنت متسرعًا مرارًا·· وكلما مر بي الوقت أيقنت بصواب كلام عمر·· كان بي طيش، وغرور··!
قال مروان:
- بعد براءة المغيرة لم يعده عمر للكوفة، وجعله شخصًا عاديًا يعيش في المدينة مثله مثل الآخرين من الصحابة المحبوسين في تلك المنطقة··!

حشدٌ آخر ذاهب إلى مدينة نهاوند·
يتقدم المغيرةُ على حصانه مقتربًا من الخليفة الذي يتحادث مع قادته· ينزل من على الحصان ويسلم على عمر·
حزين لأن عمر اختار قادةً آخرين على رأس الجيش· ينفردُ به وهو يقول:
- يا أمير المؤمنين هذه المدينة تحتاج إلى حرفيين مهرة ولي حرفي أريد أن أدخله·· هنا··
- من أين هو؟
- إنه فارسي واسمه أبو لؤلؤة وهو صانع ونقاش ويجيد عدة حرف·· والعرب ليس فيهم مثل هؤلاء··
- لقد قلت لكم إنني لا أريد أن أدخل أناسًا غير عرب وغير مسلمين إلى الحجاز··
- وماذا نفعل في حاجاتنا والناس راحت تبني البيوت الكبيرة وتستجلب الأثاث وتريد من يصنع الأبواب ومن ينقش الجدران ·
- أحضره·· واحد فقط!
ثم حدق فيه بريبة:
- أنت في جيش ذاهب للغزو ومع هذا تفكر في تجارتك واستثمار مالك؟!
- حاجة القوم تفرض عليّ ذلك·· الكل صار يفكر ببيوته وأثاثه··
- والله إنني خائفٌ من هؤلاء!
يصحبُ المغيرة أبا لؤلؤة إلى الحارة ويفتح له الدكان والبيت الصغير· يتأمل أبو لؤلؤة المكان بضيق· كان يمشي بتثاقل· قال المغيرة:
- ماذا بك··؟ قلتَ إنك تريد سكنا مستقلاً ومكانًا للحرفة واسعًا، ها هي كل طلباتك قد تحققت أيها الرجل!
قال أبو لؤلؤة:
- إنني جئتُ من مكان بعيد، ووقفتُ طويلاً حتى أذن لي خليفتكم بالدخول إلى المدينة·· تركتُ أهلي هناك في الكوفة، وصحبي، ثم أُخذتُ في قافلة وكل العيون تترصدني، وكل القلوب تخاف مني·· أنتم تحتاجون إلينا وتذلوننا!
- إن لسانك لا ينقط سكرًا يا أبا لؤلؤة··
- أهلي هناك وأنت تقول إن الخليفة، رجلكم الحاكم هنا، لا يريد الفرس·· لماذا أحضرتني إذن وجعلتني أعبر كل هذه الصحارى الوسخة الحارة، ثم أسكنتني في هذه الحارة القائظة الضيقة؟
- سيكون لديك عمل كثيرٌ هنا· إن الكثيرين من الناس قد حصلوا على الكثير من الذهب والفضة والأموال والكل يريد أن يبني ويصنع الأثاث ويهدم بيته القديم·· وكل هؤلاء سوف يجيئون إليك، فتعمل كثيرًا، وتمتلئ يداك بالنقود··
- هل سيدفعون جيدًا؟ لكن الكثير من المواد تنقصنا، ولا بد أن تقول لهذا الرئيس الذي وضعته فوق رأسي إنني أحتاج إلى الكثير من المواد والأدوات··

- كل شيء جاهز·· لو أنك تعمل وتترك هذا التذمر!

- ثم إنك ستذهب للحرب وتتركني مع هذا الرئيس الجندي الفظ الذي يراقبني ويراقب مصروفاتي·· عمومًا إنني عبدٌ لكم أيها العرب··! لقد أذللتمونا·· فماذا سوف أستطيع··؟ وأنت ذاهب إلى الحرب·· ستغزو مدينتي نهاوند التي عشتُ فيها·· أنت تدخل مدينتي بسيفك وأنا أشتغل هنا وأصنع أبوابًا ونوافذ وأسرة لكم··!

- سنكون إخوة كلنا··

- أي أخوة··؟ ثم إنني لا أستطيع أن أعمل كل هذا العمل وحدي·· أريدُ مساعدًا·· أحضر فيروز أو بهمند·· كلاهما عامل ممتاز·· ثم سيكون هناك رجل فارسي أحدثه بدلاً من كل هؤلاء الأعراب الذين يحيطون بي!

الفصل السابع

عمرٌ يحلم٠٠
يخوضُ في ماءٍ واسع، ويصعدُ تلةً كبرى، وحشود الجيش تملأ الساحات، وتصطك كتل الحديد وتشتعل النيران، وذلك الرجل الذي لا يعرف وجهه، رستم، لا يزال هو الذي يقودُ الجيشَ٠
يحمل الذهب في الأزقة، تجتمعُ حوله الأمهات، كان صراخهن يصك أذنيه، لم يكن في يديه معدنٌ أصفر بل موتى يحدقون فيه٠٠
صاح على قائد المعركة النعمان المزني: اصبر واصمد فسوف يتحقق النصر، لا تكل، لا تتعب٠٠
صحا من نومه٠
تحدث في نفسه (يا للجراحات التي تصيب الناس، سيوف تتوغل في أجسادهم، وهؤلاء الرؤساء يرفضون أن يستسلموا ويقبلوا بنا٠٠ ما ذنب كل هذه الأمهات؟ ما هو مصير الأطفال؟ هذه الحربُ مثل الحجارة المتدحرجة من قمة جبل تكبر وتكبر وتصطدم برؤوس الناس٠٠ ألا تنتهي؟ ألا يستسلم يزدجرد؟)٠
فكر أن يذهب إلى هذه الأمصار المفتوحة ويتوغلُ في أزقتها وقراها، لابد له من أن يداوي جراحها، ذهب السادةُ الذين يذلونهم، فلا بد أن يروا شيئًا آخر٠ رحمة إنسانية تطل عليهم٠ عمرو بن العاص يريد أن يحول مصر إلى بستان له ولأبنائه٠ ليس هذا ما أردناه٠٠ يضرب ابنه فردًا من المصريين، ألهذه الدرجة بلغت بهم الوقاحة؟!
ها هو الآن جاثم في داره لا يعرف لماذا استدعيته!
هتف في نفسه(هل أرسلناهم جباة وشرطة للناس؟! يحملوننا وزر تعنتهم وحبهم لذواتهم ولعوائلهم؟ وكأنهم فراعنة جدد٠٠! لو أنك يا عمر تغدو بهؤلاء المتجبرين فرعونًا آخر، يا رب أنقذنا مما يفعلون!)٠
في المجلس كاد يصطدم بالهرمزان الذي دخل بثوبه البسيط وهدوئه وجثم يطالع ماذا يحدث٠ سمع بأن حاكم مصر الذي فتح ذلك القطر الكبير المعروف، وهو المشهور بالدهاء وانتصاراته تدوي في المدينة لفترة طويلة، ولكن لشيء غريب وخطير استدعاه عمر هو وابنه٠
وعمر كاد يصطدم به ولكن تنحى عنه وسأل عن حاله، وحاله مدمرة بسببه، وهو ملقى بعيدًا عن وطنه الذي يحتاج إليه، ألا يدرك هؤلاء العرب شيئًا اسمه الوطن؟
(لعلي أستفيد من عمرو هذا شيئًا!)٠
دخل عمرو بن العاص وابنه وجلس في مواجهة عمر٠ نهض رجل غريب في عمق المجلس٠
قال عمر:
- من اعتدى عليك يا هذا؟
رد الرجل:
- هذا الشاب ابن هذا الرجل، والي مصر٠٠
- ماذا فعل بك؟
- شتمني وضربني بالسوط!

- خذ السوط واضربه··

توجه الرجل قرب ابن عمرو وضربه بالسوط عدة ضربات·

ذهل الهرمزان صاح في نفسه (لماذا يفعل ذلك؟ أيريد أن يذل الكبار دائمًا ويرفع هؤلاء الصعاليك والمغمورين؟ أي حقد هذا؟ وانظر كيف انكمش عمرو بن العاص··؟! أهذا وال وقائد عسكري؟ أين فتوحاته؟ لا بد أن أحدثه وأسانده·· لربما اندفع إلى المدينة بجيشه وأزاح هذا الرجل أو تعاركوا قليلاً!)·

قال عمر:

- أتريد أيها المصري أن تذل وتضرب ابن الأكرمين هذا الذي اعتدى ابنه عليك ولم يعتد عليك إلا لمكانة والده الذي لم يعاقبه أو يراقبه؟!

رفع المصري السوط لحظة ثم أنزله:

- إنني أعفو عنه يا أمير المؤمنين!

حدق الهرمزان بذهول وأسى (يا إلهي أيمكن أن يرفع أحدٌ هذا الرجل المغمور فوق ولاته وساداته؟ لابد أن المجلس سوف يضج كراهية لتصرفات عمر هذه!)·

لكنه رأى بغيظ أن عمرو وابنه توجها إلى عمر وسلما عليه طائعين خفيضي الجناح، واستسمحا منه، لكنه نهرهما وقال وكان يتطلع فيه هو:

- متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

كان الهرمزان على فراشه محمومًا..

(وحدي هنا يا إلهي. غريبٌ في هذه الأصقاع. أي وحدة وأي ألم؟ كيف تغمر الوحيدَ الأحزانُ الفادحة؟ يمتد جبل لانهاية من الرمل بيني وبين أهلي. أي حلم هذا؟ عمر يزورني؟ يطمئن على صحتي؟ يقول - ألم تكن واحدًا منا؟ - لا أنا عدوكم! - سأرسل لك طبيبًا. يا سيدي دعني، أنت خذلتني في نفسي، لقد رأيتُ شيئًا فيك بهرني. أنا الذي أكرهك رحتُ أعجب فيك. خذلت كرهي وهزمت حقدي، في لباسك الرث، في استقامتك المدهشة، في حبك لهؤلاء البشر، انتصرت عليّ.. رحتُ أحبك! وأغضب بشدة لأن كل عالمي الذي عشتُ فيه كان غريبًا عن روحي هذه، تحولت كلُ القصور وجبال الماس والذهب والفضة إلى هباء. لم تستطعْ أن تعالج عصفورًا واحدًا ضاع في الصحراء. أي شيءٍ تفعله الوحدة من ضنى قاس؟ ولا يبدو فعلها المرير سوى في الحمى. حين يعاديك حتى فراشك.. كنت ضابطًا كبيرًا وقريبًا من الملك، وأمضي حرًا في ضياع لا أول لها ولا آخر، والآن أنا شخص محبوس في مدينة ولا أكاد أتجاوز بضع أزقة فيها.. سوف أقتل هذا الرجل، إنني أكرهه شديد الكراهية فلو لم يكن موجودًا لما فكر أحد في الدخول إلى فارس.. هو السبب.. على بساطته.. معنى ذلك أن أموت.. وأقطع عرقي بأهلي وموطني.. ليكن.. الوداع.. لكن كيف.. أنا أخشى على نفسي.. لماذا أقتلُ نفسي؟ لماذا أنا خائف؟ ماذا بقي من العمر؟...).

كان ثمة شيء بارد يرطب جبينه، وبضعة أشباح تدور حوله، وهمس خافت يتردد، وكأن لغة أهله الحبيبة تشتعل قربه، وهو يمد يده إلى حديقته، وسوف يصافح أبناءه، لكن وجه عمر كعباءة كبيرة رمادية راحت تغطي وجهه وتخنقه، وراح يصرخ: أتركوني، لم أقتله، لم أقتله، وظهر خنجر كبير، وتقاربت رؤوس ودخل السيف في عمق بطنه، وراح يصرخ: لم أقتله!

كان صباحًا مختلفًا، ذهبت زوبعة النار من جسمه، وأحس بجوع شديد، لكنه لم يستطع أن ينهض، وأبصر أحد عمال عمر جالسًا قربه، وفزع فلربما سمعوا هذيانه، ورأى البيت مرتبًا أنيقًا، وثمة رائحة أكل شهي، وأطلت امرأة، وتطلعت فيه وقالت بالفارسية:

- هل تريد أن تأكل يا سيدي؟

هذه لفحةٌ من بلاده، ونبضها الصوتي كأنه نسيم من الحدائق هناك. فتطلع إلى الرجل:

- من هذه؟!

- إنها جارية سوف تخدمك. كدت تموت يا رجل من المرض والإهمال وعدم الأكل!

ازداد شكهُ في نفسه ومنزله. جلس مذهولاً، وراح يزدرد اللقمات، ومضى الرجل، وحدق في المرأة مستأنسًا بوجهها الصبوح الباسم، وأصبح للبيت الصغير الفارغ طعم، ومن يدري لربما سمح له عمر بالعودة إلى بلده، ليعود إلى أهله ويسترخي في منزله وحديقته، ويلاعب أحفاده، لو أن هذه الحرب الملعونة تنتهي!

- ما اسمك!

- مرجانة يا سيدي..

- من أين أنت؟
- من المدائن يا سيدي··
- تعرفين الفارسية والعربية كذلك؟
- كان جدي عربيًا يا سيدي·

مثل نهر دجلة ينبع في بلد ويتجول في بلدان أخرى ويصب في بلد، من يسأل عن جنسيته؟ هذه فرصةٌ لكي تقرأ وتحادث سلمان الفارسي، وتستمتع بالحياة في الأسر· أي يوم غريب؟

(يدهشني هذا الرجل بتصرفاته غير المتوقعة الغريبة، إنه يتجاوز مداركي وعالمي، لا أعرف كيف أصنفه ؛ عدوًا أم صديقًا عزيزًا!)·

ساحة المعركة هائلة، والجيوش الفارسية لا أول لها ولا آخر. ومدينة نهاوند خلفه. ولا مجال للعودة لها. وقيعان الوادي لا قرار لها.
يتأمل المغيرة الصفوف التي أمامه، ويعجب كيف يتقدمه أناسٌ مجهولون على كثرة جهاده ومسؤولياته. لم يعد عمر يثق به. لكنه سيبقى في المعارك والحياة وينتظر ما سوف يتغير.
هذا الجيش الفارسي هو ذروة عسكرهم، جاءوا إليه من كل مدنهم، نزفوا كل عظامهم وشبابهم فيه، إذا انكسروا هنا فلا بقاء لهم، ومع هذا فيزدجرد ليس موجودًا وهو دائمًا وراء الجيوش يغذيها برجاله وكراهيته، لكن لا يظهر أبدًا.
صفوف الضباط والأمراء الفرس عليها ملابس زاهية، مرسومة بالفضة، حشود خيولها ثروة هائلة، ووراء الجيش خيام العتاد..
قائد الجيش صحابي بدوي من هؤلاء الذين يثق بهم عمر ويسحبهم من أعماق الناس والعسكر، ويوليهم الصفوف الأولى!
لا يأبه بطعام، أو شراب، يسير أناء الليل وأطراف النهار، يتعبد، ينام قليلاً، يدع الخيول لغيره، ويدع أفضل اللحم للقريب منه، ويشتهي الموت في المعارك!
ها هو النعمان المزني يطلب أن يكبر الجيش خمس تكبيرات، ثم يندفع نحو خصمه الهائل العدد..
(سأكون في الصفوف الخلفية، أتجنب الصدمة الأولى الهائلة للقاء الجيشين، وهاهما الآن على خطوةٍ واحدة، واندفعت الخيول بأقصى قوتها وسرعتها، وكأنها في ميدان مفتوح، لكن الميدان لم يكن مفتوحًا، بل هناك خيول أخرى وفرسان عليها يشهرون السيوف ويغيصون الرماح في الصدور، والفرسان التي عليها يترنحون ويسقطون على رؤوسها، وهي تحمحم وترتعب، وتهتاج، ها هم يقتربون مني، فأندفع..).
يشهر المغيرةُ سيفه بقوة، في كتلة من الأصدقاء لا ترتد إلى الوراء، بل تقف صامدة وتقتحم الصفوف وتفتح ثغرات، ولكن من أمامهم سدود من المشاة ذوي الحديد الذين يُضربون وهم لا يتزحزحون، يسقطون ويدوس عليهم رفاقهم، فتظهر سدودٌ أخرى من الحديد..
سقط القائدُ الأول من المسلمين، اخترق عنقه سهم، أمسك الرايةَ آخر، من هؤلاء البدو الغلاظ المحبين للموت، الذي استلم الراية وحشدٌ هائل من الفرسان الفرس حوله، كل يحاول أن يطعنه، وهو الذي بلا درع يجندل الرؤوس ويتلقى أطراف السيوف ويشخبُ بالدم، ويحملُ الراية، ويتغلغل في الصفوف، ويوسع الدائرة بالضحايا، فيخاف منه العدو، وكأنه وحش ظهر فجأة، لا يخاف ولا يتراجع، وينضم إليه آخرون يحاولون التغلغل في تلك الصفوف الهائلة من البشر، وتلك الدائرةُ تتسع، وينضم آخرون من العرب وإذا هم جسم شبيه بالرمح الطويل الغائص بقوة وعنف، لا يعرفون العودة إلى الوراء، لا يدرون بالوقت الذي انتصف فيه النهار، والشمس تنور فوق الرؤوس، وأجسام الجنود الفرس المقيدة والمزردة بالمعدن، تمتلئ بالعرق، وتتصادم، وقادتها ضاعوا أو ديسوا..

يصرخ المغيرة على المشاة العرب ليسرعوا ويضغطوا ويتكدسوا في ذلك الرمح الطويل الحاد الذي يكاد ينكسر، فتتدفق أجسادهم النحيفة القوية وتمتد سيوفهم أمامهم لا تعرف إلا جندلة الرؤوس، لا تأبه بأي طعن، والحشود من الفرس الفقراء المرعوبين الخائفين على حياتهم يتراجعون ويهربون، كانت عيونهم تتراءى للمغيرة وكأنها تصرخ(ما ذنبنا إن حوصرنا هنا؟ أين رؤوسنا؟)، والضغط الهائل من الجسم العربي لا يعرف سوى إبعاد هذه الكتلة الهائلة من اللحم البشري عن هدفه··

في هذا الرعب كان يحدسُ بأن هذا الدم سوف يغسله هو من الأوشاب، وينسى الناس حكاياته المزعجة، ويرتفع على أكتاف كتل الجنود المنتصرة، التي راحت مع اقتراب المساء ودنو الظلمات، تعيد المجوس لما كانوا يكرهونه، للظلام··

إنهم يتساقطون في الهوة الهائلة بهذا الخوف الذي تملكهم، بهذا الحب الصغير للأشياء، متصورين تلك الهوة شيئًا صلدًا، من هذه القيود التي منعت أرجلهم من الهرب المؤدي للحياة··

يمنع المغيرة السيوفَ من أن تمتد إلى الآخرين وإلى الذين سلموا··

ولم يكن الميدان المليء بالجثث يستحق أي فرح··

حين يحلم عمر ببحيرات من الدم، وأشلاء تطفو عليها، وتتدفق صرخات النساء من كهوف المدن، ينهضُ فزعًا.

يرفع يديه تضرعًا، يبكي، يهتف (يا رب لماذا بلوتني بهذا؟ يا رب إنني لم أُرد سوى نشر دينك وما أردتُ الموتَ لأحد! فلتكن آخر معركة، لينتهوا إلى السلم.. أغثني.. أغثني).

(كلُ طاغية لا يريد أن يزول إلا ببحار من الدم، وهو مرعوب لأن جبال الذهب قد أُنتزعت منه.. لا بد أن أنهض وأمشي بين كل هذه المدن، والقرى، أداوي كل جرح من هذه السيوف، أرمم البيوت المهدمة، لابد أن أذهب إلى الشام وأرى حاجات الناس، لم أكن مسئولاً لأعيش هنا فقط، وهؤلاء العيون لا يبعثون بكل شيء عن أخطاء الولاة، وربما رفعوا الأسواط وأثخنوا ظهور الناس والزراع.. أأجلس هنا فقط منتظرًا رسائلهم؟!).

كان المجلس وكانت القافلة الطويلة وكانت حشود الناس المتلهفة للفضة والذهب والديباج والجواري، ورفع عمر تاج كسرى وصاح:

- من يريد تاج كسرى؟ أي فقير يريد هذا التاج الذهبي؟ أي صحابي شارك في المعارك يبغي هذا المعدن الزائف الزائل؟.. ها هو تاج كسرى..!

ألقاه على التراب وأسرعت الأيدي وتداخلت الأصابع وتغلغلت الأظافر في اللحم..

حمل فأسًا وراح يكسر في جبل الذهب، ويلقي على الناس، يحملُ قطعًا ويرى أكثر الناس بؤسًا ويضعه في جيوبه..

ثم توقف وراح يبكي!

توقف الناس عن التهام المعادن، وتخشبت عيونهم وهم يرون الخليفة المحاط بتلال الفضة والفيروز والأبسطة الثمينة، ينهمر بالدموع..

تجمدت أيديهم، حدقت أبصارهم فيه.

اقترب منه نفرٌ، وقالوا:

- ما هذا موعد حزن يا أمير.. ولا اليوم يوم بكاء!

- إنني أبكي عليكم.. اندفعتم بقسوة وقوة وكأن كل الحياة في هذه المعادن والأشياء، مزقتم جلود بعض لكي تحوزوا على شيء زائل، ولو اكتفيتم بخمس تمرات وشربة لبن لكان هذا أفضل لكم.. الآن سوف تذهبون لتكدسوا اللحوم في بطونكم ثم تتشقق جلودكم.. تحسبون هذا خيرًا؟ خذوا خاصةً أنتم أيها الفقراء خذوا لأنكم بأمس الحاجة للأكل أما وجوه قريش فلتبتعد عني.. خذوا هذه الفضة وحولوها إلى حقل، بيعوا هذا الذهب وصيروه حرفة وشباكًا ومعادن ومطارق.. حولو ا هذه السجاجيد إلى قراطيس تكتبون عليها أشعاركم وقصصكم وعلومكم..

فتحت مرجانة البابَ ودخلت على الهرمزان فتطلع إليها بغضب:
- لماذا تدخلين هكذا بدون طرق على الباب واستئذان؟
رمقته بانكفاء:
- سيدي ثمة رجل يريدك٠٠
- أي رجل؟! لا بد أن يُعرّف بنفسه أولاً ثم أسمح أو لا أسمح له بالدخول!
- سأذهب لأساله٠٠
- لا داعي لذلك، أنا نهضت٠٠
ذهبت مرجانة وهي تغمغم٠
حين خرج من الغرفة كان المغيرة جالسًا٠ فنهض فاتحًا ذراعيه، لكن الهرمزان صافحه بهدوء وبرود٠
قال:
- جئتَ من بلادي٠٠ انتهت المعركة بهزيمة كبيرة٠٠ رأيتُ الجواري التي جلبتموها والأسلاب والغنائم٠٠
قال المغيرة وهو يتطلع بتفحص لمضيفه:
- كان كارثة على أولئك الناس، كانوا يدفعون الجنود دفعًا للقتال ولا أحد يريد القتال٠٠ وكما قلت كانت الأسلاب كبيرة جدًا لا يحصيها أحد، ملأت ساحة كبيرة٠٠ حتى إنني حين وضعتُ بعضها في داري وراح أبو لؤلؤة يوضبها أصيب بحزن شديد وراح يصرخ (كل هذا من بلاد فارس، لقد أخذتم كلَ شيء٠٠!)٠٠
- من أبو لؤلؤة هذا٠٠؟
- هذا صانعٌ يشتغل عندي من بلادكم٠٠ إنه يحب المال حبًا جمًا، ودائم التذمر على حاله وعيشه، خاصة عندما انتقلتُ إلى دار جديدة واسعة وطلبتُ منه أن ينقشها ويصنع أبوابًا جميلة لها٠٠ أريدها أن تسر الخاطر، لكن كان هو يعمل بحزن واستياء رغم الأجرة التي زدتها له!
- كيف لا يتذمر وأنتم تأخذون البساط الفارسي العظيم وتقطعونه قطعًا تبيعونها بأثمان تافهة، وهذا البساط داست عليه الملوك العظام!
- ماذا نفعل ببساط مثل هذا، وأي دار يمكن أن يكون فيها٠٠ سيكون هو أغلى من الدار!
- ربما هي دارك أنت في المستقبل!
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن الدار التي توسعت فيها ربما تغدو قصرًا٠٠؟!
- وهل يتركنا عمر نفعل ذلك؟
- أجل إنه شديد الوطأة عليكم، ولكن إلى متى سيظل حيًا، إن الأعمار بيد الله٠٠
- لا تقل ذلك، صحة عمر قوية جدًا٠

- ولكن إلى متى تصبرون؟ لقد صارت بيدكم الآن أموال طائلة وأصبحتم مثل الملوك، ولكن عمر حفظه الله يدقق في الأبواب التي تضعونها في البيوت، ويدقق في ارتفاع الجدران وعدد الخدم، ونوع اللحم الذي تأكلونه، والفواكه التي تشترونها بحر مالكم، ويحبس الكثير منكم هنا، فلا تذهبون للأمصار وتستفيدون و تفيدون الناس بعلمكم·· إنه عادل عظيم، ولكن هذه العيشة تصلح للبدو، وأنتم الآن تغيرت بكم الأحوال ولم تعودوا تصطادون الضببة والجرابيع وتأكلون الجراد!
يقترب المغيرة هامسًا:
- ما تقوله أشعر به كثيرًا، حين رأيتُ قصور ملوك فارس وبساتينهم وحدائقهم ومأكولاتهم الشهية قلتُ من انتصر على من؟ نحن أم أنتم؟ إن الجواري الفارسيات أفسدن نصف ألسنة المدينة الآن·· تحتاج الدولة الآن إلى ملك، إلى عرشٍ عظيم، ولكن من سيقوم بذلك؟ لو تفوه أحدٌ بذلك قطعَ الناسُ رأسه!
- ولم لا تقم بذلك أنت؟
- أنا؟! اصمتْ حتى لا تسمعك هذه الجارية التي ربما نقلت الكلام إليهم··
- لا أشعر بالارتياح إليها، هي دائمة العناية بي ولكنها تراقبني في كلِ شاردةٍ وواردة· ما أكبر دهاء عمر هذا!
- ألم تستطع أن تميلها إليك، أنا ألاحظ أن معاملتك لها جافة، وهي قد ارتاحت للعرب الذين يعاملونها برقة ولطف، وكأنها واحدة منهم، بينما أنت الذي من جنسها تعاملها بخشونة!
- أنا أنزل إلى مستواها ولغتها وسوقيتها؟! لا يا سيد لا يجوز هذا في تقاليدنا··
- إنس الآن تقاليدكم، إذا أردتَ أن تفيدنا بشيء··
- تدبروا أمركم أنتم·· أنا لا علاقة لي بما تفعلون· أنا فقط أشرح لكم كيف هي عيشة ملوك الفرس، فهذا كله لا يجوز، حاكمٌ يرقد في مسجد، ولا حرس لديه، وخزانته مفتوحة للعامة يأخذون ما يشاءون، أي حكم هذا؟!
- أضمر هذا في نفسك ولا تنشره··

كان أبو لؤلؤة يتجول في الطرق والأسواق، بثوبه المكرمش المسود وبنظراته المضطربة إلى الأشياء.

(انظر كيف أثرى هؤلاء البدو الأجلاف بسرعة شديدة، وعلينا نحن أبناء الأمة العظمى أن نخدمهم ونصير عبيدًا لهم، وهذا المغيرة ينتقل إلى دار فخمة بعد زريبته الأولى.. أنظر، أنظر إلى الأسرى الفرس يـُقادون في الدروب، وإلى النساء اللاتي سيتحولن إلى جوارٍ، أي مأساة هذه؟ من لنا يا أزرا في هذا العالم غيرك ينقذنا؟ ولكن كيف؟ جيوشنا تـُهزم واحدةً بعد الأخرى!).

يقف متسمرًا أمام طابور الأسرى، يمسح على رؤوسٍ منهم ويبكي.

(هذه تشبه ابنتي، ما هو مصيرها الآن؟!).

يتطلع إلى رجل يحدق فيه. يبدو كأنه يعرفه، ولكن من يعرفه في هذه البلاد الغريبة؟

الرجل بثوبه البسيط يقترب منه. يسأله:

- ألستَ أنت الصانع في مدينة المدائن الذي أصلحت عربتي؟!

أمعن فيه بذهول.

(نعم هو بذاته ذلك القائد المنتفخ الذي لم يدفع أجرتي.. الذي كان يلبس الثياب المزركشة بالذهب ويضع تاجًا على رأسه ويندفع بعربته بين الناس.. يا إلهي كم ذللنا!)..

- أنت.. أنت بنفسك.. الهرمزان..!

- وأنت أبو لؤلؤة..؟

- ما أصغر العالم.. ها نحن ضائعان حقيران في أحد دروب المدينة.. وأنت الذي كنت تفترس المارة وكأنهم دجاج في الطريق!

- تعال يا رجل لأعرف أخبار بلدي منك..

حرن أبو لؤلؤة وصاح غاضبًا:

- تريدني أن أمشي معك الآن بعد أن ذللت، ودمرت أنت وأمثالك بلادي.. أنظر إلى نسائنا كيف يعطون لهؤلاء الناس.. أنظر إلى هؤلاء الفتية يتحولون للخدمة في بيوت الأسياد بعد أن كانوا هم الذين يبيعون ويشترون الناسَ.. اذهبْ عني أيها الكهل المغرور.. وتعفن هنا..

- ما بك؟ كأنك أيها الصعلوك تستنكف من المشي معي؟! أنت مجرد حشرة أتنازل بالسير معها.. اذهب!

انعطف عنه وراح يبحث عن المغيرة.

(يا إلهي كم هو مترفع هذا الهرمزان، حسنًا فعل العرب بإذلال هذا الرجل وأمثاله..).

يقترب من مجلس عمر ويرى حشدًا كبيرًا من الناس وثلة من الرجال تقود تاجرين إلى المجلس، كانت بضاعتهما الكبيرة وراءهما على إبل.

(لا بد أنهما فعلا شيئًا خطيرًا. عمر لا يترك أحدًا في حاله!).

اقترب وراح يستمع إلى كلام الرجال، وكان عمر بعيدًا عنه، في صدارة المجلس لكن كلامه كان مسموعًا.

- هل أعطاكم تاجر الكوفة البضائع لأنكما تاجران عاديان أم لأنكما أبنا عمر بن الخطاب؟!
دهش أبو لؤلؤة واندس أكثر داخل الزحام:
- لدينا مال نحن وتاجرنا به..
- لكن الربح الذي أعطاكما إياه كان كبيرًا، فقط لأنكما ابنا أمير المؤمنين.. صار أمير المؤمنين واسطة للأرباح واستغلال الناس!
قال أحد الابنين:
- والله لم ندعي باسمك..
- ولكن أولئك التجار يعرفون ويستثمرون!
- ....
- خذ يا أسلم نصف ثمن البضاعة منهما وأدخله في بيت المال..
مشى أبو لؤلؤة وهمس:
- هذا إما أن يكون رجلاً مخبولاً أو أنه عظيم إلى درجة لا تصدق!

الفصل الثامن

عمر يركب الإبل مع مجموعة من الرجال متوغلين في عمق الشمال.
كانت نيرانٌ تنتشرُ في الأفق، وكان دخان كثيفٌ يلف المدن، وكان الحرس العربي في كل مكان يمنع الناس من الخروج.
جثثٌ كثيرةٌ تحرق أو تدفن، وتنفتح أعماق الأرض للحشود، للهياكل العظمية، والأجسام التي أكلها الطاعون.
عمر يتألم حزينًا..
(كم ارتكبنا من أخطاء.. تلك جثثٌ كثيرة تركوها تتعفن.. واندفعوا للمتاجر والجواري..)..
يجثم الركبُ في الصحراء وفوقه بساطُ النجوم الضوئي الجميل.
يقول عبدالرحمن بن عوف:
- هو قضاء الله يا عمر.. فأرضَ بقضائه!
- لا تقل قضاء بل قل هي أخطاؤنا، لا تحملوا الله آثامكم وجرائمكم! لو كنا أكثر درايةً وفهمًا لما حدث ما حدث.. لا بد أن تسعوا كثيرًا في الأرض كما أوصانا نبينا بالبحث عن العلم.. علينا أن نعترف بجهلنا في الكثير من الأمور.. أمامنا أشياء كثيرة لا بد أن نقوم بها..
يلتقي بركب آخر قادمٍ من الشمال ؛ أبو عبيدة يستقبله على أبواب الشام!
(في الوقت الذي كنتُ أريدُ فيه أن أرى أحوال الناس في الأمصار حدث هذا الوباء.. كيف سينظرُ إليّ الناس، جلاب الكوارث لهم؟! هذا أبو عبيدة صخرة من الصبر والتواضع والتضحية.. كلما تطاولت الأيامُ كبرتَ يا أبا عبيدة!).
- أهلاً بك يا أمير المؤمنين؟
يقول عبدالرحمن:
- هنا وباء يا أمير المؤمنين وفي علمنا أنه لا أحد يخرجُ من أرضٍ بها طاعون ولا أحد يدخل فيها!
عمر يفكر بتأملٍ عميق ؛ (سوف يقولون إن عمر قد خاف مرةً أخرى ونكث ورجع هاربًا من الموت! ولكن لا أحد يلقي بنفسه في التهلكة كذلك!).
يسأل أبو عبيدة:
- لماذا أنت مترددٌ يا أمير المؤمنين في الدخولِ إلى الشام، هل بتَّ تخافُ الموت؟
- كيف لا أتردد، أنا إنسان يخاف على حياته كذلك. ولكنني إنسانٌ أحملُ مسئوليةً كبيرةً عن أرواح الناس.. علمٌ كثير بنفسي أريد أن أوصله لك ولغيرك من أصحابنا..
- هل تعتقد أنك تهربُ من قضاء الله؟!
- سأهرب من قضاء الله إلى قضاء الله!
- من القضاء المر إلى القضاء الحلو!
- لا بد أن نتجنب التهلكة وأن لا نضر الناس أيضًا.. ووووإنني أريدك في مسألة هامة يا أبا عبيدة.. فتعال معي إلى المدينة..

- أتريدُ أن تجرني من بين جنودي وأناسي الذين ذقتُ معهم كل الأيام بحلوها ومرها، وأمضي معك وأتركهم؟!
- لا ولكنني أريدك حقًا في أمرٍ هامٍ لا يستطيع أحدٌ غيرك أن يقوم به!
- اذهبْ يا أمير المؤمنين وصحبتك السلامة!
يعود عمر مثقلاً بالحزن.. حشودٌ من البشر تموت. العديد من أبناء خالد بن الوليد يموتون. قادةٌ يموتون. عيونهُ تحدقُ برمالِ وحدائق ومدن الشام، يرهفُ لأي نأمة. عساكرهُ وعيونهُ ورسائله لا تتوقف، أوامرُ الحرق وحصار المدن ومطاردة الوباء تتم في كلِ لحظة. يتقلبُ في فراشه. لا يستطيع النوم، ينامُ لحظاتٍ في المسجد وقد انهد جسده.
الطلباتُ والرسائلُ والشكاوى والبلاغاتُ والضحايا والحروبُ لا تتوقف. يهزُ جذعه عجوزٌ معدمٌ فيمضي معه. يرى جثةً ملقاةً في عرض الطريق فيبحث عن القاتل. يحدقُ في الوباء وفي فئرانِ الموتِ والنار التي تجري من قريةٍ إلى مزرعةٍ وحشوده من الأطباء والممرضين تتوغلُ في الدخان والنار والصرخات والأنين والمقابر. يهدأ الوباءُ قليلاً، تصغر الجنازاتُ، يـُهزمُ المرضُ...
يأكلُ بشهية.
مندوبٌ جديدٌ يحمل الأخبار السيئة: أبو عبيدة مات!
(كنتَ تريده عونًا كبيرًا لليوم والغد ولكنه رحل، نادرون هم الذي مثله وقد خسرته)!

يمضي إلى الشام نفسها.
(امكث بدلاً مني يا علي بن أبي طالب أنت مكان النفس!).
يمضي إلى بلد الجراح والمقابر الواسعة وحفر الطاعون الرهيب. المدن التي اغتالها الموت والحزن.. الأبواب المغلقة تفتح شيئًا فشيئًا للفرح وأشعة الشمس والهواء. عائلات لم يبق فيها كثيرون، يدخل منازلها، يرى أطعمتها القليلة، فتتكدس الأغذية في مطابخها.. الأحياء الملوثة في ظلام المدن، والمزابل المنتشرة بين بيوت الفقراء تـُكنس، الحارات تتوسع، أصابعه تحمل النورَ والغذاء والماء، يمضي على حصانه، ثم يمشي على المرتفعات وينزلُ المنخفضات، ويتغلغلُ في الدروب التي لم تمش بها دورية، ويتطلعُ فيه هؤلاء المذهولون الذين لم يروا من قبل سوى الشرطة ومحصلي الضرائب والجنود الذين ينتزعون أولادَهم، ويرون هذا العملاقَ الأبيض ذا الثوب الزهيد، ووراءه رجالٌ مغبرون وسود وبسطاء، لكنه يتوجه إلى غرف نومهم، ومطابخهم، ويدقق في أسنان أولادهم، ويبدأون بالهمس والكلام، ونقل أخبار مجيء (ملك العرب) العادل إلى أزقتهم، ويتحدث زراعُ الأرضِ عن هذا الخليفة الذي جاء إلى أكواخهم وسأل عن الجزى والضرائب وأسعار الأكل وعسف الولاة وهل خزائنهم ممتلئة، وعن فعل الجنود، ويمضي كعاصفةٍ سريعةٍ تهزُ الورقَ الذابل، تنتشرُ بعدها الزيجاتُ والضحكات..
يدخل إلى مقر الوالي الذي صار معاوية بن أبي سفيان بعد أخيه المتوفى، يعزيه ويمطره بالأسئلة عن بيته ودخله وورثِ أخيه، ويحدق فيه بقوة، ومعاوية يجيب بهدوء وطاعة، وقد لبس ثوبًا بسيطًا وجلس في دار حكم أخيه السابقة..
يحتضن خالد بن الوليد معزيًا ويقول:
- أبليتَ بلاء حسنًا يا خالد..
خالد الذي كان معتزلاً، حاصره الوباء وموت الأبناء، جثم حزينًا في داره، مذهولاً من هؤلاء الأولاد الذين ماتوا كأنهم زهور ذبلت بسرعة شديدة ولم تتفتح، وهو يعيش ويمشي بين الأوبئة والنيران، غير مبالٍ بالموت..
الآن لا تطيق نفسهُ الحرب ولا الحب، أسدل الستائر حول ذاته، فملأت نفسَهُ ظلمةٌ، يدري أنها لا تزول إلا بانبلاج فتحٍ أو نهار كفاح..
يقول له معاوية:
- اشتاقت لك الميادين والأمصار، وإلى سيفك يرنو الجنود..
يعرفُ أنه يريد التخلصَ منه وأن يتوجه بعيدًا، ونفسه هو الآخر سئمت من هذا الجثوم، ويكفي أن عمر بن الخطاب هو الذي احتضنه، وعزاه، ورضي عنه..
وهو يسمع همس الأمويين متوجسًا:
- إلى متى عمر هذا؟!
- لقد سئمنا منه!
- يحصرنا في هذه المنازل الصغيرة والحقيرة.. يراقب كل درهم نأخذه بالحلال؟!

يرد عليهم معاوية:

- اصبروا هو الآن كهل·· لن يصمد للزمن طويلاً!

- لعل تقشفه وتجواله اللذين لا يتوقفان هما اللذان يبقيانه نضرًا فتيًا!

- وأنتم متخمون ومرضى!

عاد عمر إلى المدينة·

يفكر خالد (كلما عاش هذا الرجل علمني شيئًا جديدًا، قلل من غروري، وأنانيتي، أنا الذي لا أكبح نفسي في الحروب، أهدم الأسوار، وأتوغل في المدن، أنتقم بقسوة مضرةً أحيانًا، لكن هل أكون مثله؟ لا أقدر، في حمى الحرب تشتعل عاطفتي، وتتفجر قراراتي، وفي السلم أجنح للدور والهدوء والحب·· ماذا بقي من نتائج الأعراس وليالي الدخلة سوى بضعة فتية هم الغصن الأخير من شجرة احترقت في زمن الطاعون!)·

يصرخ أبو لؤلؤة على مساعده جفنية:
- هيا أيها الكسول احمل هذه الأغراض كلها لنمضي إلى تجميل بيوت هؤلاء العرب الجهلة الملاعين!
يغمغم:
- ألم يجد المغيرة سوى هذا الفارسي الكسول ليجعله معاونًا لي؟!
يتقدم جفنية وهو مسود البشرة والثياب، تعبٌ من الإرهاق:
- يا أبا لؤلؤة٠٠ لا تشتم الناس ربما عرفَ أحدٌ لغتنا، ثم إنهم جعلونا نعيش أفضل من زمن الأكاسرة الغابرين٠٠
- أيها الخائن٠٠! هؤلاء الذين سرقوا ثروة بلدنا جعلونا نعيش أفضل؟!
- ألم يسرق الأكاسرة ثروات الناس قرونًا طويلة؟!
- إنك تنبش جلودًا وقراطيس لتحصل على هذا الكلام الدنيء٠٠ وقلْ لي متى جعلونا نعيش أفضل، عمر اهتم بالزراع ولم يشمل اهتمامه وجودنا هنا، ولم ير معيشتنا البائسة٠٠ وغربتنا٠٠
- أنت لديك دارٌ الآن٠٠ وتدور في كل مكان بحثًا عن أعمال لا تتوقف٠٠ وتريد مساعدًا آخر٠٠ ماذا تفعل بهذه الدراهم التي تكدسها؟!
- هيا٠٠ هيا نمضي للعمل٠٠ وكف عن الثرثرة٠٠ لقد جاء خدمُ المغيرة٠٠
يخرجان وجفنية يحمل بعض الأدوات، والخدم يرفعون الأكياس على ظهورهم، والجمع يمشي بين الأزقة، حتى يقفوا أمام بيتٍ كبير، ويطرق أحدُ الخدم البابَ، وينتظرون في الشمس الحارقة، حتى يفتح أخيرًا ويجثمون في دهليز ثم يأتيهم رجلٌ ليدلهم على مكان العمل، وهو بناء حجرة كبيرة٠٠
كان الحوش واسعًا، وثمة حديقة جميلة، وغرفٌ كثيرةٌ تحيط بذلك الحوش٠ وهناك أولادٌ يلعبون، ونسوة يطللن عليهم من النوافذ فلا تبدو سوى أشباحهن٠٠
وأبو لؤلؤة يعمل على هندسة الحجرة وقياس طولها وعرضها و أحجام نوافذها، كان يختلس النظر إلى تلك النوافذ العالية ويصغي إلى غناء النسوة وصياح الرجل وضحكه، وهو وجفنية يرفعان الحصى ويضعانه، ويدقق في خط هذا الحصى المستقيم، وتماسكه، ولم يكن ثمة ظل عليهما ولا على الخدم، ثم اشتعلت القدورُ في المطبخ واندفعت الجواري للطبخ، ونضج اللحم وصنع الخبز، وفاحت الروائح المخدرة، وبو لؤلؤة يهمس لجفنية:
- يا ليتهم يعطوننا شيئًا من هذا اللحم اللذيذ٠٠ أتشم، هل هذه تشبه طبخاتك المحروقة؟
وفجأة سمعا صيحة الرجل من الطابق الأعلى:
- أنت أيها الفارسي ألا تكف عن الثرثرة والتطلع دائمًا إلى فوق لرؤية الحريم؟!
تطلع فيه أبو لؤلؤة بتوجس:
- إننا يا سيد نعمل بكل تعب تحت هذه الشمس المحرقة٠٠ نحن وهؤلاء المساكين الذين نضجت جلودهم من الحر٠٠
- هل ترد عليَّ يا وقح يا عبد؟!

- .....

- عليك أن تلزم الأدب وأنت تخاطب أسيادك!

غرقا في العمل، سبحا في العرق، ثم جثما تحت جدار يأكلان خبزًا يابسًا وبصلاً، وهما يسمعان الغناء ويريان الصحون الكبيرة محملةً بالذبائح تصعد إلى فوق.

- 4 -

يغرق الهرمزان في التأمل الحزين المرير (لا يبدو أن هؤلاء العرب سيهزمون! يتدفقون في كل مكان. لن ينهزموا إلا إذا مات هذا الرجلُ هنا. لا بد أن يظهر أحدٌ من العرب غير هؤلاء الرعاع! وعمر بذاته يسألني عن غزو بلادي ونصائحي لذلك!).

يمشي في الغرفة ويغمغم:

- أي بؤس في هذا الأثاث والجدران الكالحة ذات القشور المتساقطة!

وكأن جلنار سمعته في الحوش فقالت:

- يا سيدي هل تريديني؟

- اصمتي قليلاً!

(أأعيش أنا في مثل هذه المزبلة؟ وهذه المرأة الجميلة لا أستطيع أن أقاربها؟ ماتت الشهوة وانطفأ الحس ولم يعد ثمة شيء يأكل روحي سوى الانتقام!).

صاح بصوت مرتفع:

- اذهبي إلى أبي لؤلؤة المجوسي ودعيه إلى هنا!

- ماذا تريد منه يا سيدي؟

- كفي عن الأسئلة!

(ماذا سوف أعطيه؟ نقودي لا تكفي سوى للأكل.. ما حاجتي لهذه الجارية، وسوف أتقرب من عمر وأقدم له نصائح.. ربما زاد من نفقتي. أريد أن أفعل شيئًا كبيرًا في أسري هذا! عليّ أن أستغل سذاجة العرب هؤلاء..).

وعندما وقف أبو لؤلؤة بين يديه لاحظ وجود عاملٍ آخر، يبدو أكثر هدوءً وطواعيةً.

صاح أبو لؤلؤة:

- أنت ثانيةً؟ أي خرابةٍ تعيش فيها يا سيدي الأمير!

على رغم سخريته فقد بدا متعاطفًا أكثر، وحزينًا.

- أريدُ أن تبيض هذه الجدران. تجعل هذه الغرفة أجمل..

- ماذا سوف تكون؟ إيوان كسرى...!

ونشج الهرمزان بقوة:

- اسكت! اسكت! تلك بلادي العظيمة، أين أنهارها، أين نساؤها، أين جبالها؟ كل حصاةٍ من تلالها تخسف بمناظر هذه البلاد الكالحة.. ألم تروا كيف أن الأشجار هناك تثمرُ لوحدها، والبشر يعيشون بسعادةٍ في ظلالها؟!

خشع العاملان وكادا يبكيان، وقال جفنية:

- ولكننا كنا نعيش بفقر يا سيدي هناك أيضًا..

صاح أبو لؤلؤة:

- اخرس يا حمار! هناك حتى الفقر له مذاقٌ مختلف، حين يهرسك بطنك يكفي أن تذهب إلى غابةَ أو بستان.. أما هنا فكلها رمال وليس هذا فحسب بل أيضًا غربة وجوع.. وفقر وهو الأسوأ!

ولكنه فجأة قطع هذه المناجاة وصاح:
- ولكن أين العمل وماذا ستقدم لنا من أجر؟!
- اشتغلا وبعد ذلك سأدفع لكما!
- قل كم ستدفع، ليس لنا وقتٌ نضيعه مع مساومتك!
- درهمان!
- درهمان لكل هذه الجدران القذرة··؟ هذه تحتاج ليومين كاملين والدرهمان لن يقبل بهما المغيرة بن شعبة، هل تعتقد أننا أحرار نشتغل عند أنفسنا وليس وراءنا غول يأكلُ ما نكسبه؟!
- ليس لدي الآن أكثر من ذلك وربما زادني عمر شيئًا من المال··
- إذا زادك عمر·· وهل نعيش على هذه الأماني؟!
وبدا يتوجه للخروج، فاقترب منهما وهمس:
- ربما بعتُ هذه الجاريةَ وأعطيتكما مالاً أكثر!
توقف أبو لؤلؤة وهو يرمق مرجانة التي كانت تعجن الطحين وتضربه بقوة· ابتسم أبو لؤلؤة وقال:
- حتى في الأسر يعاملوننا بشكل مختلف··
رد الهرمزان غاضبًا:
- من تحسب نفسك أيها الجلف؟ هل تقارن نفسك بي؟!
- كلنا عبيد هنا·· ولكنك عبدٌ خائن!
كاد الهرمزان أن يصفعه، لولا تدخل جفنية الذي قال:
- يا سيدي أنا سوف أعمل لك كل هذا··
وغضب أبو لؤلؤة:
- أنت اسكت، لا تتدخل حتى آمرك··
وبدا أنه سوف يذهب لكنه توقف· وراح ينظر إلى الجدران، ويتلمسها، ويتحسس خيوط الماء التي تغلغلت في المادة اليابسة المتقشرة فغدت ناضحةً برائحة كريهة، وقال بهدوءٍ صاعق:
- سأجعل مساعدي يشتغل فيها لمدة وجيزة··

الفصل التاسع

تحركت النارُ من أحشاء الأرض، تصاعدت أبخرةٌ سوداءُ وبيضاء من الشقوق، امتدت أصابعُها السوداء إلى كلِ شيء.
يشعر عمر بأن باطنَ الأرض صار مقلقًا ساخنًا ينذرُ بعواقب وخيمة على كلِ شيء.
ما بال التراب تجمد وتحجر؟ والرمال التي كانت تسفعها الرياح صارت مثل التلال السوداء؟
ولم يعض ثمة طيرٌ يطير، وراح الشجر يذوي.. لكن ثمة بعد الحدائق الغناء والبساتين في المدينة والطائف، وشجر كثيرٌ مثمر، لكن كل شيء صار مقلقًا..
أخذ البدو يتدفقون شيئًا فشيئًا على المدينة، ويصرخون:
- لقد أمحلت الأرض، واختفى العشب ونفقت الأغنام..
- لم تعد ثمة ينابيع وتوارى الماء من الغدران!
- هلكت المحاصيل يا عمر في القرى!
يطوف بالأعراب، يتحسس خيامهم، يوزع عليهم أكياس القمح، يشعر بالقلق والمخزون يتناقص..
(أي حمل ثقيل؟! لماذا لم يترك هذا الحمل لعلي أو لسعد، فيرتاح باله ويستطيع أن يسافر في الأمصار ويجاهد ويرتحل؟ منتصبٌ هنا لأي نأمةٍ، لأي شكوى، ينتظر الرسائل من البلدان الأخرى.. خائف من أي ظلم يقوم به الولاة.. ولكن.. لا بد أن يقوم بذلك، وثمة راحة عميقة أكبر من أي شيء آخر، حين أرى الناس سعداء لا تعادلها أي راحة!).
اكفهرت السماءُ وتساقطت الأغصان، ولم تبق شجرة خضراء، وراحت أعماقُ الأرض تفح، وسوائلها النارية تندلع من الشقوق لمسافات مخيفة، وتدفقت جموع الأعراب وقد صارت أجسادها كالهياكل العظمية والأطفال راحوا يموتون، ولم تعد تمر نسمة وبدا كأن الكون كله يحترق..
(ماذا فعلنا؟ هل أخطأنا؟ أهو غضب إلهي أم أرض قاسية ذات أجواف مرعبة راحت تتمدد؟ يا إلهي إذا كان غضبًا ارفعه عنا وإن كان قحطًا ساعدنا على إزالته.. يا أرحم الراحمين..)..
حشودٌ لا أول لها ولا آخر تتدفق، إبلٌ هزيلة لا تكاد تقوى على السير.. رؤوسٌ لم تعد سوى جماجم فيها بقايا عيون..
مخازن التجار خلت من الزاد.
وهو يدورُ على المتاجر وبيتِ المال ويشتري مؤنًا، ويأمر بنحرِ الخراف، وطبخِ اللحوم، وتوزيع الغذاء على غابة الخيام الممتدة في البراري، حيث صياح الأطفال يعود بشكلٍ مخيف..
يكتبُ الرسائل؛ إلى عمار بن ياسر، إلى عمرو بن العاص في مصر، إلى معاوية في الشام، إلى كل والٍ في الأراضي الخضراء البعيدة: الغوث، الغوث! والقوافل لا تتوقف، وعماله يوزعونها على الأفواه، والقدور غدت طابورًا لا أول له ولا آخر، والنيران تحتها تشتعل.. وهو يتجول بينها فيرى الأطفال عادوا للعب، فينامُ لحظةً وهو يسمعُ الصراخَ في أحلامه، فينهض، ويرى الأرضَ لا زالت كأنها رماد محروق..
يقول له أسلم:
- بعض التجار يا عمر راحوا يخفون السلع..

- دع الناسَ تكسر مخازنهم وتأخذ الأكل..
يقول له محمد:
- يا أمير المؤمنين ثمة لصوص قبضنا عليهم..
- ماذا سرقوا؟
- قبضات من القمح وقطع من اللحم..
- أطلقوا سراحهم..
الشمسُ لا زالت تنورًا كبيرًا في السماء يرسلُ حممًا، والترابُ بساطٌ صار حجارة سوداء ملتهبة..
يدعو..
يدعوا بقية المسلمين، يتضرعون، يمدون أيديهم للسماء..
يغفو ويحلم بأنه في أرضٍ واسعة خضراء وثمة روافد من نهر تتدفقُ حوله، ولكنه هو ضائعٌ في البرية. وأسلم يصرخ: وجدنا الماءَ، وجدنا الماءَ!
كان ثمة صوتٌ غريب. صوتٌ شجي. زوجته أم كلثوم استيقظت وصاحت:
- ألا تسمع يا عمر؟!
- كأنه صوت المطر!

- 2 -

كان معاوية ومروان يجثمان في مجلس شبه معتم· متقاربان ويهمسان، يقول معاوية:
- من المؤكد أن الرجلَ سوف يأتي··
- أتأتي إلى المدينة بعد الحج ثم تتوارى هكذا؟!
- لا نريد أن يرانا أحدٌ معه··
- ولكنه غدا مسلمًا ومرموقًا··
- هكذا يبدو لهم، ولكن من يعرفهُ حقًا؟!
- هل دللته على هذا الباب الخلفي؟
- نعم، نعم··
- ماذا فعل بك عمر·· تبدو شديد الحذر؟!
- ما يفعله في كل مرة إن رآني ؛ محاسبة لا تعرف التهاون، ودخول إلى تفاصيل صغيرة تكاد تحرقُ أعصابي··
- أنت كبيرنا الآن وفي منزلة عالية، فيجب أن تصبر كثيرًا!
- أسمعُ دقًا على الباب!
- هذا هو صاحبك!
دخل الهرمزان مخفيًا رأسه ووجهه· وحدقَ بمروان فأخبرهُ معاوية عنه·
كان الضوءُ القليل، والنوافذ المغلقة والحجرة البعيدة عن الطرق، كلها تجعلُ الهرمزان قلقًا بشكلٍ متزايد، وهو نفسه الذي بحث عن معاوية وطلب أن يراه، والآن أحسَّ بخطورةِ خطواته، وراح يتساءل (ماذا لو اكتشفوني؟)·
ومعاوية لم يستعجل سؤاله، شاعرًا هو كذلك بأن الأمر قد يكون خطيرًا، وكل هذه الحشود من العامة تتحسسُ أيَّ شيءٍ، وتشكُ في كلِ شيء·
- كيف أنت الآن؟
قال:
- حياةٌ مختلفةٌ كثيرًا عن تلك التي عشناها، وبعد مقاومةٍ شرسةٍ للإسلام صرتَ من أتباعه!
- الحمد لله على كل حال·
- ألا تقول علينا·· كأنك تشيرُ إلى أناسُ غيرك·· هل هم عائلتك؟
- لا ولكنهم أتباعي، رجلان وجدتهما تائهين في هذا الأسر·· فتعطفتُ عليهما وساعدتهما·· أحدهما يا سيدي صانع ماهر في كل شيء، في الحدادة والحرف والبناء ونقاش ممتاز·· أما الآخر فمساعد له·· وهو رجلٌ مسكين·· ولكننا جميعًا نعيشُ في بؤس··!
- وهذا الحداد·· يعمل السيوف والخناجر ولديه دكان··؟
- نعم، ولكنها كلها ملكٌ للمغيرة بن شعبة··
- المغيرة هو كذلك كلمني عنك، لدينا عشرة طويلة، لكن تقطعت بنا سُــبل الحرب والفتح والحكم!
- هل ينقصك شيءٌ الآن؟

- أشياء كثيرة: الوطن والمال والحرية!
- بعضها نقدرُ عليه وبعضها أمامه الجبال والصحارى والسيوف!
ثم انعطف بالكلام بمنحى آخر:
- حدثني عن حياتك هناك وكيف كانت الأمور والحكم والعيش؟
تدفق الهرمزان وهو يستعيد ذكريات عيشه وحياته، ويتذكر أهله وملكه والعرش، والرجلان مصغيان إليه، وراح يتساءل في نفسه ما فائدة كل هذا الكلام، والصراحة غائبة والرجلان العربيان شديدا الحذر؟!

كانوا ثلاثتهم جالسين في الحجرة، والهرمزان يعتلي مقعدًا يشرف عليهما ويتطلع فيهما بكبرياء، يقول:
- الملك الأعظم دارا كان مجرد جندي لكنه ارتقى في سلم الجيش، وحين رأى ظلم المستولي على العرش كون العصبة المؤلفة من اثني عشر رجلاً تعاهدت على التخلص من المستولي الذي كان ملكًا زائفًا، فهجم أولئك الأثنا عشر على القصر وتمكنوا من الاستيلاء عليه وقتل المغتصب..
قال أبو لؤلؤة بصرامة:
- كان الرجال في ذلك الوقت لهم أجسامٌ ضخمة وكانوا أقوياء جدًا وليسوا مثل الرجال الآن المائعين الأقزام..
رد الهرمزان:
- ليست المسألة مسألة أجسام ضخمة بل المسألة مسألة جرأة فائقة.. الإنسان الفارسي الحقيقي لا يعرف الخوف وهو يتقدم إلى أعدائه وينقض عليهم بكل بسالة..
سأل جفنية:
- إذن لماذا هذه الهزائم التي تتالت علينا، وكنا من أقوى الشعوب ثم صرنا من أذلتها؟!
يعلو صوت أبو لؤلؤة:
- قلت لك كان عصر العمالقة.. والآن عصر الخنازير!
- يقول سلمان الفارسي الذي التقيت به إن ملوك الفرس كانوا طغاةً ظالمين!
غضب الهرمزان وأبو لؤلؤة بشدة. صرخ الأول:
- ألم أقل لك لا تلتقي بمثل هذا الرجل؟ إنه لم يعد منا!
- ألا يكفي أن أعمالنا ضعفت وقل رزقنا فتذهب متبطلاً إلى سلمان هذا، وتثرثر معه طويلاً؟!
- ولكن أحاديثه عظيمة ويعرف أشياء كثيرة، طاف ببلدان عديدة ولديه قصص رائعة.. يجب أن تجلسا معه وتستمعا إليه!
قال الهرمزان:
- نحن أيضًا لدينا معرفة لا تقل عنه، ولكنه ذاب في حياة العرب.. لا يهتم بمصير بلده المنكوب! ألم تسمع الأخبار وكيف هجمت جيوش العرب على كل المدن، والملك الأعظم صار قريبًا من الحدود ولجأ إلى ملك الصين؟!
- نعم.. إنه لا يتكلم عن ذلك!
- أرأيت.. ما نفعه إذن كفارسي؟ لعله كان تركيًا وتظاهر بأنه منا!
قال أبو لؤلؤة:
- ألم يعطك السيد الهرمزان جاريته وصارت لك الآن.. وتمتعت بها..
- إنها زوجتي الآن فلا تتحدث هكذا..
- جاريتك أم زوجتك فقد أخذتها من السيد ومع ذلك فأنت لا تسمع كلامه..!
- ماذا تريدان أن أفعل، هل أقاطع الناس هنا؟ أغلبهم عرب!
قال الهرمزان:

-لا بد لك الآن من أن تنتقل من بيت أبي لؤلؤة·· صارت لك زوجة وفي الغد سيكون عندك أبناء··
- لكن كيف أنتقل وأنا فقير معدم؟!
- لقد بدأت تتغير الأحوال بعد تلك الأيام العجاف··
رد جفنية:
- لولا عمر لمات الناس·· هل رأيت كيف··
وتوقف عن الكلام ثم قال:
- كلها من أموالنا··

كان أبو لؤلؤة في حفرة النار والدخان. يضرب قطع الحديد المستخرجة الحمراء ويضعها على السندان ويضربها بقوة، الحديد القوي القاسي يترنح بضرباته، كأنه وجهٌ من وجوه أعدائه، ينحني لساعده، ويتمدد ويتحول إلى سكين أو رمح، يغمغمُ:

- لماذا تنهالُ العطايا على جفنية هذا الشاب التافه وأنا أُحرم من كل شيء، وأجثم في هذه الحفرة؟ يقوم الهرمزان بإخراجه من بيتي ويستأجر له بيتًا خاصًا لكي يتنعم فيه، وتلك الجارية في حوزته، وأنا أقبض على القطن اليابس في الفراش، وهو الذي لا يحب بلده.. لماذا يفعلون ذلك بي؟ لماذا كلهم يوجهون كرههم نحوي، وذلك المغيرة لا يأبه بأحوالي؟

ثم صرخ بصوتٍ عال:

- أين أنت يا جفنية؟

ولم يرد عليه أحدٌ وقطعة الحديد لم تتشكل بعد.

- هل أذهب إلى عمر وأقول يا أمير المؤمنين أنا أعيش هنا فقيرًا وأريد العودة إلى بلادي..! لستُ سوى عبد، عبد.. ربما أعتقني، وقال اذهب أنت حر! لا، لا، لن أكون حرًا.. أنا أرفض أن أترك ديانتي، وهو يكره هذه الديانة كرهًا شديدًا، لستُ مثل الهرمزان، الذي يتظاهر في كل مكان.. رجلٌ خائنٌ بطبيعته.. ياه.. كيف ينحني ويداهن ويصلي في المسجد؟!.. وجفنية حمار.. كسول يريد كل شيء ومستعد للتخلي عن دينه ووطنه في سبيل امرأة وسرير! ولهذا هم يكرهونني، يرون رجلاً أعظم منهم، فيتآمرون للتخلص مني..

دخل شبحٌ في كهفه، حاول أن يبصر وجهه فلم يستطع:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- أنا روح من أهورا مزدا.. جئتُ لأكلمك.. أنت الرجل العظيم لأمتك.. تجثم هنا في هذه الحفرة وكلها رمادٌ ودخان.. جئتُ إليك لكي تقوم بمهمتك العظيمة، تخرج من هذه الأرض وتذهب إلى بلدك.. تؤدي دورك..

- أهذا أنت يا جفنية.. لا تسخر من هذه الشعائر المقدسة..

- أنت رجلٌ عظيم، كل هؤلاء الناس يحسدونك، تعرف كلَ الصنائع، والكثير من العلم ولكنك تقبع في غرفة وكل يوم تحطمك الوحدة.. تشتاق إلى أسرتك ولكن عمر يمنعك مثلما دمر المملكة العظيمة، وها هي قوافل الناس الكرام تتحول إلى عبيد وإماء..!

يضرب الحديد وتتحول الهضبة المشتعلة إلى سن رمح دقيق ومرهف، والماء يشعله فتتطاير الفقاعات وتتفجر.

يتطلع إلى مقدمة الكهف ويرى شيئًا من النور ولم يكن ثمة رجل. أهو جفنية يمثل عليه دورًا؟

ينهضُ من الحفرةِ ويتقدم في سحابةِ الدخان ويخرجُ من الممر الصغير حيث النور الساطع والهواء النقي، لكن لا يوجد أحدٌ، وهذه الأشياء معلقة، والأدوات جاثمة على الأرض، وليس ثمة أحد!

الفصل العاشر

عمر يتقلب على فراشه، أليس لهاتين العينين راحة؟
ابنه عبيد الله لا يهتم سوى بالمال والجواري! أهكذا يُفقد في ولده؟ اجتاز عام الرمادة وفتوح فارس ومصر وأحوال الناس مثل الوباء الذي لا يزول!
يمضي إلى بيته. منزلٌ كبيرٌ وجدرانٌ عاليةٌ وضحكٌ وأنس. هذا هو بيت ابن الخليفة، فماذا يفعل بقية الناس؟
- من هناك؟
- أنا أبوك عمر..!
- يا أبي ماذا تريد في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار؟
- إنها مبكرة ولكنك لا تزال تلهو!
يفتح الباب وقد عم الصمت فجأة ولاذ من بالداخل بالغرف ولكن المجلس كان مليئًا بالأطباق.
- ألا تكف عن هذا السهر وحفلات الأنس.. سوف ألقي بك وأصحابك في السجن..
- إننا يا أبي لا نفعل شيئًا محرمًا، نحن نسهر ونأكل ونضحك، هل في هذا شيء معيب؟!
- كل هذا الوقت الثمين الذين تضيعونه في مثل هذا اللهو والسهر وتقول إنه ليس معيبًا؟!
- لم نحلل شيئًا هو محرم..
إنه يقبض عليه من رقبته، ففعلاً ليس ثمة شيء محرم، ولكن كل هذا الترف وكل هذا الشباب الضائع في الثرثرة والغناء والأكل؟ ماذا نسميه؟ كيف يمكن تغييرهم بالقوة وهم لا يتغيرون من الداخل؟
يخرج من بيت ابنه حزينًا وعبيدالله يودعه بلا اهتمام.
أي حسٍ غليظ وبليد فيه؟ (لا تستطيع أن تغير يا عمر الناس، بل أقرب الناس إليك! ولكن لماذا يندفعون كل هذه الاندفاع للتافه من الأمور ويعجزون عن السامي منها؟ يا عمر هل سوف تتدخل بكل شيء؟ لستَ إلهًا، ما أنت سوى إنسان مسئول عن الحكم فقط، عن حاجات الناس وليس لك أن تقحم نفسك في أرواحهم!).
هذا منزل ابنه عبدالله. هنا عالمٌ آخر. هنا رجل منذ الفجر انتحى وراح يقرأ ويدرس ويعلم ثلةً من الناس. هذا أخو ذاك، ولكن أي فرق؟ ظهرا من بطن واحدة ولكن أي روح يملكها عبدالله؟
(أنت لا تستطيع أن تصنع العقول والأرواح. كلُ إنسان له خياراته وقدراته).
يسلم على الثلة التي تتحفز وترهب مجيئه لكن المعلم ابنه لا يتلجلج. يجلس مصغيًا لدرس ابنه وهو يفسر ويسرد التاريخ ويرسم الخرائط. والإعجاب العميق لا يظهره على وجهه ؛ (هذا والله ابني!).
يقول:
- أريد أن أسألكم يا قوم لقد وردت هدية ثمينة من ملكة الروم لزوجتي فماذا يكون الأمر بشأنها؟
وقع الطلبة في الفخ، وجاملوه فصارت الهدية الرسمية الرشوة المقدمة من ملكة الروم في حرمة بيته، لكن المعلم ابنه قال:
- ما دامت هدية أُرسلت لزوجة الخليفة ولم تعط لزوجة تاجر أو راعٍ فهي من مال المسلمين..

تطلع عمر إلى التلاميذ بغضب:

- والله لو قال شيئًا آخر منعته من التدريس!

ليس لك أن تغير الناس يا عمر. تكونُ لافتةً تشيرُ إلى طريق عظيم وليس سوطًا على ظهورهم!
هذا تاجرٌ فاسدٌ، هذا عامل كسول، هذا متاجر بالآيات، ذاك ينتظر الفرصة لينقض على مال المسلمين، هذه عامةٌ غافلةٌ حتى موعد الذبح.
يطرق باب خالد بن الوليد.
الرجل العملاق ذاوٍ، حين جاء قال له بلسان غاضب:
- لقد ظلمتني يا عمر! أنا الوحيد الذي ظلمته من بين العرب.. وأظن أنه من حسدٍ قديم!
لم يوقف نقده، والذي كان بين الناس، لكن لم يعرف كيف يزيل سوء الفهم الغريب الصعب بينهما.
الآن هو يدخل عليه وهو شبه مريض. ناقعٌ في اليأس والشك والحزن.
وحين أبصره يسلم عليه ويتمنى أن يكون في صحة جيدة تعجب منه!
- أرجو أن لا تكون متحاملاً علي الآن كذلك..
ولم يجب. فزع عمر من لون جلده وتيبس عظام وجهه وبروزها. أهذا هو القائد العظيم الذي كنتَ تخشاه؟ فتت في عضده عزلته عن الحروب وفقد الأبناء..!
قال له بقوة:
- أفقدان القيادة وترك الحروب هي التي جعلتك تحزن هذا الحزن كله؟! هل تعتقد أن وقوفك على رأس الحشود وفتح كل هذه الأرض هو المجد؟! كنا نود أن لا نحارب هؤلاء الناس ولكن هم دول طاغية حبست الناس طويلاً.. ونحن لا نريد أن نحبسهم مثلهم.. هل تتصور أنني مهتم بكل هذه الأراضي وجبال الذهب وحشود الأسرى؟! أهذا هو المجد الذي تتخيله؟ أهو المجد حين تضرب الناس.. أم المجد حين تأخذ بأيدي هؤلاء الضعفاء، حين تنزل من على فرسك وتكون منهم..؟!
يجلس خالد على فراشه منسحبًا من عزلته الثقيلة، من عشرات الألحفة التي تغطى بها خلال جثومه في المدينة، وهو لا يزال يسمع صليل السيوف وصرخات الجند ويرى كرات اللهب تحرق الأسوار، وهو وحيد يشرب الماء ويرى ظله الأشيب ويصرخ (ماذا بقي من سيف الله؟!).
والآن كلمات عمر تشده، هذا الرجل الذي تصوره طاغيةً حسودًا، ليس في يديه قبضة من ذهب، ولا في قلبه ذرة حقد، إذن لماذا لم يفهمه؟!
- كنتَ قاسيًا عليّ يا عمر من دون الناس!
- لم أفرق بينك وبين أولادي. لكن أنت العظيم القائد مسئول عن أرواح كثيرين، وتتصور في خلال نشوة الانتصارات أنك فوق كل شيء، وإذا حدثت كارثة سوف يـُلقى اللوم عليّ..
- لم يحدث شيءٌ مؤسف خطير كما أظن..
- لكن لو لم أراقبك وأتتبع خطواتك هل كنت ستتغير؟
- لقد ساعدتني على سوء نفسي..
- إذن لماذا هذا الحزن كله وهذه العزلة..؟
- ماذا بقي من العمر، وماذا بقي من المهام؟ لقد أديت واجبي...
- ولكنك تعيش في يأس.. هل تريد أن تكون مسئولاً على مصر من الأمصار؟

- لا، لقد عفت نفسي الخروج!

- ولكن حزنك ليس لك وحدك!

ومضى عنه، وأخذته مهامٌ، وسمع بكاءًا عارمًا، وجاءه رسلٌ وخطاب:

(كل ما أملك هو برهن أمير المؤمنين يوزعه حسب الشرع)٠ هذه وصية خالد بن الوليد وهو يموت٠ أية أملاك زهيدة كانت عنده؟! أهذا ما كنت تراقبه يا عمر؟

اندفع بكاءٌ عنيف في المدينة وتحلقت النساء تهتفن باكيات٠

وراح هو يبكي ويقول:

- لقد قسوت عليك يا خالد٠٠

اقترب حشد النساء منه، وكاد أسلم أن ينهرهن لكن عمر أوقفه:

- إذا لم تبك البواكي على خالد فعلى من تبكي؟!

- 3 -

قالت مرجانة لزوجها جفنية:
- انتبه لهذا الرجل·· الهرمزان!
- ماذا به، أفعل بكِ شيئًا سيئًا؟!
- إنه مخادع تمتلئ نفسه بالشر··
- أي تخريف هذا؟!
- دائمًا كنتُ أراه وهو يفكر ويغمغم حاقدًا على كل شيء· كان بالكاد يأكل من كل هذا التفكير والهم و··· والكره·· إنه لا يحبُ أحدًا!
- بل يحبني أنا، ألم يجعلنا نتزوج، وبحث لي عن حرفة·· وصرتُ مستقلاً عن أبي لؤلؤة·· كل هذا خير جاءنا من الهرمزان·· هو رجل عظيم بل من عظماء الفرس·· أهلنا يا امرأة··!
- لا أدري·· لا أدري·· ولكني متخوفة منه·· حين يراني كان يكاد أن يبصق عليّ، وأنا الذي كنتُ أخدمه··
- ماذا كان يقول؟
- حتى حين يرى فاكهة مجلوبة كان يغمغم (آه صار العرب يأكلون من هذه الحلاوة··) أو يضحك (لم يفرقوا بين الكافور والملح!)·· وحين تشرق الشمس أو يلوح نورٌ فإنه يغمغم ويهذي وكأنه مسحور، ولا يبات دون قبضة من نار أو شمعة أو جمرة··
- الآن أنتِ تخلصتِ من خدمته·· وصرتِ بعيدةً عنه··
- ولكنه لا يتركنا، كل يوم يطرق الباب ويأخذك ويتحدث معك بهذا الكلام المسموم·· (يا لعمر·· ودهائه)، (لولا هذا الرجل لكنا في خير··)· ولو أن أحدًا سمعكما لقتلتما في التو واللحظة!
- إنها جعجعة وهذيان··
- حدثني ماذا يقول لك، حين تختفيان عن نظري··
- لا شيء مهم··!
- أنت تخفي عني شيئًا كبيرًا!
- إني لا أعلم ما به·· إنه يحومُ على اسم عمر دائمًا·· ويتحدث عن الناس هنا·· وعن بلادنا··
- ألا تقول له أن يكف عن هذا الحديث وينسى؟
- كيف ينسى؟ يقول لي (تعرف لو كنا هناك·· لربما غدوتُ ملكًا·· كل تلك البلاد الشاسعة تكون بإمرتي·· تلك الحدائق الغناء، تلك الأنهار، تلك الحشود من البشر، وقتذاك أنا في قمة المجد·· غابات لم يرها العرب أبدًا·· كنتُ في قمة المجد وفجأة كأنها لمحة سقطتُ·· غصتُ في الماء·· قاتلت في معارك عدة·· ثم صرتُ أسيرًا· أُجر إلى الصحراء·· وأعيش بين الإبل والغنم··
- أليس له حديث غير هذا؟!
- كأنه لا يعرفُ غيره·· كل ليلة يحلم برستم، يتذكر كل شيء عنه (إذا لم تكن قد رأيت رستم فأنت لم تر الرجال!)·· يظل ساعةً يصف قصره وحدائقه وقوته··
- يخيل إلي إننا نترك هذا الرجل وأبا لؤلؤة معه ونلوذ بأنفسنا··

- كيف أترك ولي نعمتي··؟
- ولكن سيدك هو المغيرة·· أطلب منه أن يغير مكانك··
- بعد أن صرتُ نجارًا وزاد دخلي وأنتظر طفلاً منك؟!
- إنهما يحومان علينا كطائرين أسودين··
- وهل فعل بك شيئًا أبو لؤلؤة ذاك؟
- ذاك أكثر رعبًا وهولاً من الهرمزان·· حين صرتَ صاحب دكان صغير غدا هو أكثر حسدًا وشراسةً عليك··
- دعيهما·· واتركينا نعيش بسعادة وهناء دونهما··
- لكنك تعيش بينهما دائمًا فكيف سنعيش بسعادة؟!

(لستَ أنت شيئًا تافهًا يا أبا لؤلؤة٠٠ لقد اختارك إله النور لتبعث الشروق على الأمة٠ من بين السخام تجلى لك٠ في كل مكان تسمع صوته، وهوذا يناديك، أغرز نصلك في الشرير٠٠ سترتفع فوق موج البشر٠
هذا الفحم، وهذا الرماد، وهذه الحفرة التي حبسوك فيها، تتصاعد منها أنوارٌ عظيمة!
تمشي وحدك في الظلام، تبكي وحدك، تتقلب على الفراش، تضربُ رأسك بين الجدران، تنادي ابنتك وأهلك٠٠ والرمال الكثيفة بينكم، وغدا ستتحرر، ستمضي٠٠ ستلتحق بالنور السماوي٠٠!)٠
ثمة طرقٌ على الباب، وكالعادة يظهر الهرمزان مكفهرًا٠٠ أية سحنة مخيفة؟
- أنت تهذي وحدك؟!
- أليس لديك شيءٌ أشربه؟
- هذه زجاجة كاملة٠٠ هدىء أعصابك!
- ماذا تقول؟ هل تتكرم عليّ بمثل هذه السوائل الحارقة؟!
- ما بك تصرخ؟!
- لم تأت بجفنية صاحبك الأثير!
- متردد وزوجته صارت تسيطر عليه٠٠
- أهذا الجبان يصلح لشيء؟!
- سوف يغدو أبًا وينجب عبدًا فارسيًا كاملاً!
- لن نكون عبيدًا٠ تتردد عليّ أصواتٌ غريبة٠ ثمة من يكلمني يا رجل، ثمة صوتٌ ونداءٌ٠٠
- لعلك من كثرة طرق الحديد واصطخاب النحاس، وحرارة النيران صرتَ تتخيل؟!
- لا ولكنها تأتي وأنا في البيت وحدي٠٠ لم أجيء هنا عبثًا٠ ثمة خطة إلهية وراء كل ذلك٠٠
- ثمة لحظات يا أبا لؤلؤة أحس بك وقد صرتَ إنسانًا غريبًا لا نعرفه٠٠ كأنك أحد أولئك الفرسان الأبطال في الأساطير القديمة، رجلٌ حوله شعل من النيران وهو يهشم رؤوس الحيات ويتحكم في مواد الأرض٠٠ ومع كل هذه العظمة تجثم في غرفةٍ حقيرة، وتقتات بهذا الخبز، وتتسلم ثلاثة دراهم في اليوم٠٠ والمغيرة يعيش في بيت شبيه بقصر وحوله النساء والخدم!
- أترى٠٠ أترى كيف يذلونني؟ أنا٠٠ الذي أعرف الطواحين والمواد وكيمياء الأرض والمعادن، أربط بخيط يجرني هؤلاء الأعراب٠٠ وأنت لا تختلف عني فلا تتباهى بنفسك!
- ولكني لم أكن أعرف سوى مهنة الحكم، وقد أُخذت مني٠٠ أما أنت فالكل يحتاج إليك، تؤسس البيوت، وتصبغ الجدران، وتضع النوافذ الجميلة٠٠
- وحتى في هذا عمر يتدخل ويمنعهم من البيوت الفخمة، ومن جلب الأثاث الفخم٠٠
- لن يعيشوا بحرية وهو حي!
- هل سيحيا إلى الأبد؟!
- حتى في عام الرمادة الذي كاد فيه أن يهلك وأصبح مسودًا أجتازه وهو أكثر صحة!
- من هو الذي سيحيا إلى الأبد؟!!

الفصل الحادي عشر

- 1 -

كانوا جاثمين فيما يشبه الظلام·
رؤوس عديدة هامسة·
- أما آن له أن يرحل!
- حبسنا عن الأمصار··
- يتعقبُ ثرواتـنا ويتطلعُ إلى بيوتنا··
- أهو حسد لأنه فشل في التجارة؟
- بل حوله رهطٌ من هؤلاء الفقراء الأشداء فأين سطوة قريش؟!
- أين زمان الملأ العظيم؟!
- لو كانوا قد تركوا الأصنام قبل الإسلام ما احتجنا إلى هؤلاء··
- يا جماعة الخير عمر أعطاكم حريةَ أن تستثمروا وتغتنوا وما منع أحدكم عن الثراء··
- ولكنه لا يقبل حتى بأكلٍ كثيرٍ منوع لذيذ··
- وحتى جماعتنا في الأمصار لم يـتركهم في حالهم، أقامَ العيونَ عليهم··!
- صار الآن شيخًا تعبًا·· لن يستمر طويلاً!
- هو دائم الركض، حتى هروب غنم الصدقة يغدو من اختصاصه·· ماذا نستفيد من بضعِ خراف؟ زرائبنا الآن هائلة العدد من إبل وخراف وغنم··
- كلُ هذا يتعبه، فلم يعدْ قادرًا على الركضِ وركوب الخيل كالسابق··
- أعدوا الفتيان للأمور العظام القادمة··
- معاوية بن أبي سفيان كان هو الأذكى· سايسهُ وراح يجمعُ الأصحابَ والجند ويتوارى تحت التراب كأنه ضب··
- ولكن قد ينقلب عمر عليه فجأة ويعزله··
- نعم، سمعته يتحدث عن معاوية بريبة··
- عمر هذا له هدوء ثم عاصفة هوجاء··
- لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا وكل هؤلاء الفقراء يحيطون به، فإذا تألم وجدت الحشود مستعدة لأي طارئ!
- أعطوهم·· أجزلوا العطاء لهم، دعوهم يتاجرون ويشترون الأراضي ويخففون من قبضتهم علينا!
- ولكن من بعده؟
- إذا طرحت هذا السؤال ثارت النفوسُ وارتفعت الرؤوسُ الغاضبةُ الحامية!
- نريد القادمَ رفيقًا هادئًا بنا، مُبعدًا لهذه الدهماء·· فدعونا نتنفسُ ونسيحُ في هذه الأرض، شراءً وبيعًا وحكمًا!
- ما كادت تتنفس حتى شمخت!
- رويدًا رويدًا يا جماعة الخير··

- والله أنا خائفٌ مما تفكرون فيه·· وسوف نجد قيعانَ الأرض تمتلئ بالدم··!
- كفاك خوفًا·· فلم يعد الناس كما كانوا، وهم يركضون نحو المتاجر وأسواق الرقيق، والغناء والطرب··
- إنني أخافُ مما تفكرون فيه!
- وهل تريد منا نحن علية القوم أن ندع الأمور تفلت من أيدينا بعد كل هذه السنين والإبعاد؟!
- أحقًا تريدون ذلك؟ وما معنى هذا؟ وماذا سوف يحدث للناس؟!
- الناس بألف خير والإسلام كذلك بخير··
- ولكن دون الغوغاء!
- أجل، أجل بدونهم··

تقلبْ يا عمر فقد غدت الأحلام كثيفةً غريبةً مروعة.
أناسٌ كثيرون يأتون إليه، من الأمصار، من البوادي البعيدة، من الواحات الغريبة، من المدن التي غدت عامرةً، في الحج تمتلئ الطرقُ والهضابُ والمنخفضات، ويعلو الغيمُ الساخن، ويهطل العرقُ، السكونُ والأصواتُ والأجسادُ والكلماتُ والصرخات، كلها متناغمة، الرجلُ البدوي الذي داس على عباءة الأمير العربي المتباهي والذي صفعه اقتصَّ منه، الرطبُ الذي ينضج في عُمان والبحرين يأكله المصري، وثمة صرخةٌ تدوي:
- احذرْ يا عمر!
ماذا فعل؟ من الشاكي؟ أهو تهديد ووعيد أم تحذير جبان؟!
فلتذهب إلى الأمصار لعل أحدًا يشكو. هم يكذبون عليه بأنهم لا يظلمون الناس. وكلُ صرخةٍ يقابلها كشفٌ، وكلُ إخفاء يقابله فضحٌ في الأسواق..
(هذا واجبي.. ولكن ممَّ يحذرونني؟ ماذا جنيت؟)..
يجمعُ الناسَ:
- هل أنتم راضون عني؟
- لو كنت تخالف الحق قومناك بسيوفنا!
- أحسنت يا رجل، هذا ما أريده منكم.. فأنا أخاف أنكم تدارونني وتخافونني.. ولعل أهل الأمصار يشعرون بذلك أيضًا.. فدعوهم يتجرأون ويقولون الحق، وينطقون بالعربية حتى نفهم بعضنا جميعًا..
(مم يحذرني هذا الصوت الغريب؟ وفي الحج حيث تضيع الصيحاتُ وتتحد الوجوهُ والأجسامُ والأرواحُ؟!)..
يجمعُ الناسَ:
- هل لديكم شيٌ عني؟ هل أجرمتُ بحقكم؟
ولا أحد يتحدث بشيءٍ آخر.
(هل يشهدون لي؟ هل ينطقون بالحقيقة؟ ما يدريني مما تعتملُ به الصدورُ؟ ما يدريني إذا كنتُ لم أخطئ ولم أسيء لأحدٍ؟ هل كل أفعالي صواب؟ من أنا..؟ لا رسول ولا نبي، رجلٌ من العامةِ رفعَ الأمانةَ الصعبة على كاهلِهِ.. ولا يدري تمامًا هل نجح في مهمته أم لا؟ وما يدريه؟ من يعرف الغد؟ هل سمعَ أصواتَ الناس كلهم؟ هل كانت الحروب صائبةً.. من يدري؟ الحسابُ وحده يحددُ ذلك! لستُ سوى إنسان بسيط يرى شيئًا وكثير من الأمور تتوارى عنه.. هل يرضى عني الفقراء؟ هل رضي عني الأغنياء؟ العيون تقول أشياء أخرى، والكلمات تتلجلجُ في الشفاه، والحقائق ضائعة، والصرخة تحذير شديد، وفي الظلام وبين الجدران وخلف الضلوع تنمو كلماتٌ، وتتصاعد مخاوفٌ، ويكفي المرء أن يرى الكثيرين لديهم الجرأة على محاسبته وإيقافه عند حده إذا سرق أموالهم..

تقلب يا عمر فلا يهمك الصرخات الغامضة في زمن الحج، بل هذا الرضا من كل هذه الجموع عنك التي جاءت من أقصى الشام ومصر والعراق··

لا أحد رفع عليك شكوى··

لا أحد صرخ في وجهك، ولا حراس معك ولا قبضات غليظة تحميك··

وتحت نظرك رقعة جغرافية لم يحكمها العربُ قبلاً!

هذا رجلٌ عربي يطرق عليك الباب في المساء، ولا يريد أن يتكلم ولا يريد أن يصرح، وكأنه الصرخة الغامضة التي انفجرت في رحاب مكة:

- احذر يا عمر!

- وماذا بعد·· عمر يحذر العواقب والعقاب ولا يهتم بسطوة أحد، فماذا حدث، قلْ!

- لا أعرف ولكن ثمة شيء يتحركُ في الظلام!

- ما هذا الشيء؟ في عنقي مصير الناس·· فقلْ يا رجل!

- سمعت همسًا وراء الجدران، ملأ قريش غير راضٍ عنك!

- طول عمر ملأ قريش غير راضٍ عنا·· وماذا بعد؟

(صدري مفتوح لخناجرهم وسيوفهم، وحولي حشدٌ من الضمائر الحية، ورجال قادرون على حمل الأمانة·· ليت أبا عبيدة كان حيًا·· لا بد أن نكون يقظين لهؤلاء!)··

يهتفُ أبو لؤلؤة أمام ألسنة النار المتصاعدة:
- هيا اخرج أيها الخنجر ذو الرأسين·· اطلعْ من اللهبِ وتشكلْ بالحديدِ وليكن رأساك أقوى من سيفين، وانفذ في اللحم أعظم من سكينٍ واحدة··!
يصمتُ لحظةً، ويشعرُ بقشعريرةٍ في جسده·
- هل أستطيع؟ أنا جبانٌ مذعور·· كلما اقتربتُ من عُمر أصبتُ برعدة·· يا للجسد الشاهق، والرجل الجريء البسيط الحميم·· كلما تحسستُ سكيني في جيبي تجمدتْ أصابعي! هو وحدهُ يمشي في السوق، هو وحده ينامُ في المسجد·· ولكن الاقتراب منه أشبه بنزولِ صاعقةٍ في جسمي·· تتخشبُ أطرافي·· ويغورُ قلبي داخلي وكأنه لا يدق·· أو يدق كطبلٍ عظيم!
تخفت النارُ، والوجهُ المشكلُ بالأضواء والظلال يغورُ في العتمة·
ويلتفتُ فلربما ثمة أحدٌ يتنصت إلى همسات روحه··
تنطفئ النارُ والخنجرُ لم يتشكلْ بعد··
- لا·· لا دعك من هذه المهمةِ العسيرة· لا تقدر حتى على الاقتراب من الرجلِ دون أن تتمزقَ أضلعك·· ترتعدُ وتنتفضُ وكأن حمى أصابتك وهو يتطلعُ فيك ويقول: ماذا بك يا أبا لؤلؤة·· ويغورُ صوتك داخلك، ويسألُ: هل أنت مريض؟!
يقفُ ويرفسُ الرمادَ!
- ساعدني يا آهورا مازدا·· أنا شرارةٌ من نارك المقدسة، أنا ضوءٌ طلع من تنورك العظيم الذي يملأ السماوات·· أعني بشيءٍ من الشجاعة، دعني أتقدم·· بهذا الخنجر··
يجلسُ جامدا مرتعبًا وهو يرى ظلاً طاف بالكهف··
- ماذا فعل عمر لكي تقتله؟! ألم يقذف بك سادتك المغامرون المتجبرون أنت وكل هذا البحر من العامة في غياهب الصدف والحروب والذل·· واختفوا وكأنهم لم يكونوا؟!·· يزدجرد يتوارى في الصين·· ألا يعلنُ هؤلاء العربُ أخوةً جديدة، ألا ترى سلمان الفارسي وهو بين علية القوم أرفع حتى من السادة العرب؟ لكنك حاقد، يمتلئُ صدرُك بالضغينةِ والكراهية لهم ولكل أرضهم··
يصرخُ:
- أجل، أجل أنا أكرههم·· أكرههم! احتازوا كلَ شيء، وهؤلاء الرعاةُ الأجلافُ صارت نعالهم فوق رأسي، كما يقول الهرمزان·· سأمضي إلى النور، سأحرر··
ينهضُ ويمشي في السوق، يصطدمُ به أناسٌ لا يحس بهم، يرى بضائعَ لا يعرف ماذا تكون، الخنجرُ ذو الرأسين كأنه في يده، ويتحسسُ يدَهُ فيراها فارغةً، يغمغمُ:
- الحديد يعطيك قوةً، تشعرُ بوجودِ الخنجر وكأنه جزءٌ من الإله، ألم يخرجْ من النار؟ حين تمسكهُ تنتقلُ لك قوةٌ غريبة، تشعر وكأنك تحلقُ في الملكوت·· تصبح جيشًا في شخص··
لا يأبه العربُ لك· مجردُ عشبٍ تافهٍ قذفتهُ أمواجُ الحربِ على شاطئهم، ولكن غدًا يكونُ لك معنى آخر· يصبح العشبُ حديقةً وغابة·· يفكر الفرسُ بأن لهم قوة وحرية·· تغدو بطلاً!

تدخل جحرَكَ الذي يُسمى منزلاً، تفتحُ صندوقَكَ المخبئَ، والمفتاحُ في سروالك، والحشدُ من الدراهم والدنانير يملأه، تتحسسها بيدك··

- لماذا أتركُ كلَ هذه الثروةَ؟ حين أغمد خنجري في جسده لن أعود إلى هذه الحجرة ولن أتحسسَ هذه النقود! حين آخذُ منها شيئًا يسيرًا أتدحرجُ في الأزقة وأدق بابًا ويفتح رجلٌ ويعطيني زجاجةً أحتسيها وأرقص فرحًا وأشوي اللحم·· ماذا تريد أكثر من ذلك؟ في بلدك لم تصل إلى هذه النعمة؟ لا ينقصني سوى أهلي وقد أعثر عليهم··

يجلس وهو يضع الصندوق في حضنه:

- لا، لا! لأكتفِ بهذا الخير·· لأكن صديقًا لهؤلاء البسطاء الجيران·· الذين كلما مرضتُ هرعوا إليّ·· ربما ساعدني عمر نفسه لاستعادة أهلي الذين تاهوا مني في هذه الحروب·· كم محارب جمعه مع أسرته·· وكم عبد حرره·· نعم·· نعم·· نعم·· سأشربُ وأتمتع·· وأدعْ ذلك الخنجر ينامُ في الرماد··

يخبئ الصندوق، وينهض، ويرى صورته في المرآة، فيجد وجهه مسودًا وثيابه معتمة، وكأنه عفريت ولا ينقصه سوى الذيل!

وحدهما جاثمان في الحجرة، والهرمزان ينظر بغضبٍ إلى جفنية ويهمس:
- أعطيتك كلَ شيءٍ ولكنك لم تفعل لي شيئًا واحدًا!
- مُرني أن أقطع أصابعي أو أمتنع عن الطعام أيامًا·· أما هذا العمل فهو فظيع، فظيع!
- أي فظاعةٍ فيه؟! انظر ما حدث لبلدك، آلاف الناس قتلوا بسبب هذا الرجل، وهو ليس سوى شخصٍ واحد، ثم يتغير كلُ شيء··
- ما يدريك أن كل شيء سيتغير نحو الأحسن·· عمر هذا رفيق بالناس، كم مرة أطل على دكاني، كم مرة تحدث معي··
- رفيق بالناس·· إذن لماذا أثار الحروب ونشر مستنقعات الدم؟!
- الناس هادئون في عهده·· حتى أهل ريفنا عادوا للأعمال بهمة كبيرة··
وقف الهرمزان محتدًا، ومشى قليلاً، ويداه وراء ظهره:
- هؤلاء الناس·· هؤلاء مجرد بهائم تستطيع أن تسوقها أينما أردت بالعصي والسيوف·· لا تحدثني عن هؤلاء الناس·· أعرفهم جيدًا·· حين كنتُ في قمة مجدي كانوا يتساقطون تحت قدمي مثل الذباب·· لكنهم أينهم الآن؟!·· حتى لو أعود إلى بلدي فسوف يضربونني بالحجارة·· انفلتوا الآن·· لا تتحدث عن هؤلاء أبدًا·· تحدث عن إرادة إله النور ومعابده التي دمرها المسلمون·· عن الأشراف الأتقياء الأخيار الذين هربوا للهند واستولت الغوغاء على أموالهم وكنوزهم··
- أنا لا أرى في قتل هذا الرجل أي فائدة·· كما أنني أصبحتُ أبًا الآن·· وصارت عندي طفلة·· طفلة جميلة أود أن أرعاها···
- طفلة عبدة·· جارية·· سوف يستولي عليها أحدُ هؤلاء العامة ويتخذها خادمة·· الأفضل أن تموت بدل هذا العار··
- أعوذ بالله من ألفاظك··!
- صرتَ تردد عبارات المسلمين·· وأنت الذي لا تزال مجوسيًا!
- وأنت لم تتحول··
- أي دين هذا؟! أأنا أنزل إلى أن أكون مع هؤلاء الدهماء؟!
- أنت تصلي معهم في المسجد؟
- هو الخداع يا أبله·· أنا الآن أعرف أسرارهم، ودينهم، وخفاياهم·· وحين أضرب ضربتي ستكون موجعةً لهم·· فأفر أو أنجو بنفسي··
- تفكر بنفسك·· فحسب؟!!
- قد أُقتل أنا أيضًا·· بل سوق أُقتل حتمًا·· حين أزيل ملكَ الرعاع أكون قد قمتُ بواجبي الأخير في هذه الحياة منتقلاً إلى النور، متحدًا بالإله!
- لماذا إذن لا تقوم بتلك الفعلةِ الفظيعة بنفسك!
- ما قيمتك أنت؟ لماذا أعطيتك كلَ هذه الأموال·· التي تمكنتَ بفضلها من العملِ والزواج والإنجاب··؟

- قل لي أن أقتل شريرًا ما·· مجرمًا·· أما هذا الرجل·· فلا·· تقول ملك الرعاع·· ولكنه أقل أجرًا من عامل··

- هنا المأساة·· لو كان ملكًا حقيقيًا لما كانت لي معه خصومة·· لربما صرتُ من أتباعه·· أما أن يترأس هؤلاء الغوغاء ليثير الفتن في ممالك أسياده ويفنيهم·· فهنا الكارثة·· يزدجرد تحول إلى طريد يا هذا؟! يزدجر ابن الملوك العظام يدور شريدًا·· أي كارثة هذه؟!

يتطلع جفنية بذهول··

- يزدجرد يتسول جنودًا من ملك الصين ومن ملك الهند·· قائد الأمة العظيمة يتسلفُ جنودًا؟ أرأيت الكارثةَ المروعةَ التي حلت بنا؟! ولكن حين تغلغلُ نصلَكَ في جسدِ ملكِ الرعاع فإن يزدجرد ينهض، ويتدفقُ حولَهُ الناسُ مثل الطيور العائدة إلى عشها، ويندفعون بجيوشٍ هائلة تسحق العرب سحقًا لا يبقون بعده في الأرض، ويأتون إلينا ويحرروننا، وتصير أنت أميرًا وتملك الضياع··!

- أي حلم هذا؟

- حلم يتحقق إذا امتلكت شجاعةً·· صرتَ جزءًا من أجدادك العظام··

- ولكني لا أقدر··

- لا تقدر، لا تقدر·· أليس لديك جواب غير هذا؟ أنت جبان!

- لستُ جبانَ لكن يدي لا تستطيع أن تضرب هذا الرجل بصفعة واحدة!

- لماذا، لماذا لا تمتلك الجرأة؟

- لأنني أحبه!

الفصل الثالث عشر

يتقلبُ عمر على فراشه، الصرخةُ التي دوت في الوادي لا يزال يسمعُ رنينها، يرى صورة عمرو بن العاص، لو صار هذا حاكمًا من بعده كيف ستكون الأمور ؟ ! !

يقول لعمار بن ياسر حانقًا :

- كيف تغرق في الصلوات وتنسى الأسواق والأزقة والمزارع ؟

- ألا تعلمنا أنت ذلك ؟

- أنا لا أغرق في الصلاة، أؤدي الفروض وأمشي في كل مكان وأسمعُ كلَ نأمة وكل شكوى !

- أنا لا أقدر على ما تفعل يا أمير المؤمنين !

- لا بد أن تقدر، وسوف أعين أميرًا غيرك·· وكنتُ أود أن تظل أنت··

- لماذا·· ماذا فعلت ؟ !

يتقلبُ··

(آه·· أريدهم دهاةً، زاهدين، فاعلين، وأولئك الدهاة الماكرون يرتفعون دائمًا، لا يرتكبون أي خطأ، هذا من علم أبي سفيان رغم أنه عجز عن تدبيره·· جاءَ أناسٌ دهاةٌ يجمعون بين الملأ والإسلام·· أعوذ بالله·· هل أدخل في صدورهم وأفتش في أرواحهم ؟ من يحل محلهم ؟ هذا عمار وسلمان أناسٌ زهادٌ لا أهل سياسة ! كان أبو عبيدة رجلًا مختلفًا·· ولكن المرض اختطفه·· تلك إرادة الله··)·

يتقلب··

(لا بد لي من جولة بن الأمصار، أتوغل بين الناس، وأفاجئ أولئك الحكام··· وأسمع شكاوى العاملين من أفواههم·· لعلهم قاموا برشوة العيون التي أبثها عليهم··)··

يغفو أخيرًا··

يرى في ضباب الحلم شبحًا يتقدم في مستنقعات ملأى بالجثث· وراءه دخانٌ كثيفٌ، وهو يكلمُ تلك الأجساد الممزقة ويقلبها وكأنه ينشد قصائد، ومن أفواهه المتعددة ينبثق لهبٌ كأنه حيات تسعى·

يقتربُ منه، اتضح الآن وجهه· كأنه يزدجرد لكن الوجه ممزق وفيه حفر وهوات عميقة·

يقول :

- فك أسري يا عمر !

- أنت بعيد·· في هوة·· وأنا هنا في البرية··

- بل أنتَ معي·· أنظر هؤلاء هم أصحابي·· كل الرجال الذين أعرفهم قتلوا·· أنا طريد وأغوص في هذه المياه الحارة الفوارة بالدم··

يصحو ويسمع طرقًا على الباب· يغسل وجهه· الطرق يتعالى· أسلم يقول له إن ثمة عاملًا يريد أن يكلمه··

يدخل أبو لؤلؤة· يقول بهدوءٍ بارد :

- يا سيدي أمير المؤمنين المسلمين·· أنا أعيش بعذابٍ شديد من إسراف المغيرة بن شعبة الذي يحبُ المال حبًا كبيرًا، وينتزعُ مني كل شيء ما عدا دريهمات قليلة لا تكفي لسد الرمق !

كانت أشباحُ الحلمِ لا تزال تطيرُ في سماءِ عقله لكنه نفضها بسرعةٍ وهو يسمعُ الشكوى :
- كم يعطيك أجرًا ؟
- ثلاثة دراهم !
- في الأسبوع ؟
- بل في اليوم، تصور هذا المبلغ الزهيد ؟
- أهذا مبلغ زهيد.. أنا الخليفة آخذ مبلغًا مثله !
- أنت لا تعملُ في الحدادة.. انا أعيشُ حياةً صعبة، أهلي في العراق، وأنا مشردٌ هنا !
- إذا عرف أحدٌ مكانهم سوف نجلبهم إليك..
- كيف.. ؟ ! والحربُ شردت الكثيرين وملأت المستنقعات بالأجساد ؟ !
- لكن أجرك معقول يا رجل !
الرجلُ المسودُ خرجَ وهو يغمغمُ غير راضٍ.

كان جفنية جاثمًا على حصيرٍ وزوجتهُ تداعبُ أبنته التي تنطقُ بحروفٍ مقطعة :
- ما·· ما·· ما·· ما··
تحدقُ مرجانة فيه قائلةً :
- ماذا بك يا رجل، كأنك صرتَ أبا لؤلؤة آخر !
- تتغيرُ الأمورُ بشكلٍ عجيب·· تحدثُ أشياءٌ لا تـُصدق !
- ماذا يجري، أنت منشغل حتى إنك لا تلاحظ نمو أبنتك !
- بسبب هذا الذي يجري حولي·· ولو كان بعيدًا عني لهان الأمر ولكنه يمسني ويصيب عملي··
- تعني هذا الكساد الذي أصاب دكانك، ومطالبة المغيرة المستمرة بالنقود !
- أفظع من هذا يا مرجانة·· تجري أشياءٌ مخيفةٌ·· أخافُ·· كثيرًا مما يحدث·
زوجته تضعُ الطفلة جانبًا وتحدقُ فيه :
- أيكون هذا بسبب تغير الهرمزان عليك·· دعه! هذا الرجل أدعى بالإسلام ولم يمسْ الإيمانُ قلبه··
- هو هذا·· هذه الحية التي تتحركُ في الظلام، ليس في صدرهِ سوى الأحقاد·· لقد انقلب عليّ بشكلٍ أشد من السابق، فما عاد يعينني بشيءٍ·· وراح يغدقُ على أبي لؤلؤة مالًا·· فتبطر ذلك المأفون··
- هذا لا يهم، نحن نعيشُ بخير··
- ولكن صارت الأدوات تنقصني والناس تطالبُ بأعمالها والمغيرة يهجمُ عليّ كل يوم··
- هذا أمرٌ هين، عليك بالصبر·
- لكنني أحس بأشياء أخطر من هذه·· إنهم يدبران شيئًا·· أنهما يتهامسان وإذا جئتُ إليهما صمتا فجأة··
- ماذا يدبران·· يهربان من المدينة ؟ إن جيوشَ العرب في مكان !
- الأمر أخطر من ذلك كما يبدو·· ولكنني ليس لي سوى هذين الرجلين الصديقين·· من سوف يساعدني غيرهما ؟ !
- أذهب إلى عمر·· إنه سوف يساعدك··
- نفسي في حيرةٍ شديدة··لا أعتقد إنهما قادران على العمل الذي يريدان الإقدام عليه، هو مجردُ كرهٍ، فكلاهما جبان··
- ماذا يدبران ؟
- شيءٌ أخافُ أن أنطق به·· إنهما ينويان قتل الخليفة عمر !
تطالعهُ برعبٍ، تصرخ :
- قبل أن يتقدما إليه سوف يمزقهم الناس··
- هي خيالات وأحلام·· مجرد كلمات يمضغانها لكي يخففا من كراهيتهما الكبيرة التي حولت جسديهما إلى كتلتين من الصوان··

- أبو لؤلؤة هذا·· شيطان خاصةً حين يظهر من حفرة الرماد التي يعيشُ فيها·· رأيته ذات مرة وهو يخرج منها فرمقني بكراهية رهيبة·· إنه قويٌ جدًا··
- سوف أذهب إليه وأقنعهُ بترك هذه الرغبات المجنونة !
- بل دعك منهما وأذهب إلى عمر وحذره، حرام أن تسمع كل هذه الكلمات الشنيعة وتجلس هنا·· إن هذا الرجلَ الذي ساعدنا كثيرًا ليس مثل أي رجلٍ آخر·· إنه مثل غيمة تجثمُ فوق الرؤوس تمطر أو تظلل··
- نفسي مريرة من كل شيء·· والهرمزان وأبو لؤلؤة صديقان رغم كل شيء·· حين يعرف عمر ورجاله فسوف يطيحان برأسيهما بسرعة البرق·· هم لا يترددون في مثل هذه الأمور·· كما أن الرجلين سوف يساعداننا في ضائقتنا·· كما أنهما مخبولان في الحقيقة ولا يمكن أن تكون هذه الفعلة تخطر حقًا في رأسيهما·· !
- ما يدريك·· إن الهرمزان هذا ذو نفس حامضة مرة·· من الممكن أن تمضغ طفلًا داخلها بكلِ شهية··
- أنتِ تتحاملين عليه لأنه أساء إليك وعاملك بقسوة··
- وهل عامل أحدًا من الناس برقة وحب ؟

يمشي الهرمزان في السوق··
(كل هؤلاء يعيشون بفضل مياهٍ تتدفقُ في فارس، وحقلٍ مصادرٍ من أشراف عظماء·· آن لهم أن يذوقوا العذاب في مدينتهم هذه·· طالعْ كيف يقود الرجلُ الكهلُ الجاريةً الصبية في الطريق متلهفًا للاختلاء بها·· لم يصدق هؤلاء الناس أن بعضَ الأموال جرت بين أيديهم·· قريبًا سيفقدون كلَ شيء··)··
طالع زقاقًا داخليًا يسقطُ الضوءُ عليه قليلًا· تدوي فيه ضرباتُ المطارق ويتمزق فيه النحاسُ متألمًا· ثمة بضعة رجالٍ أحباش وروم ولا عربي هنا· أشباحٌ ورجالٌ سود داخلَ الحفر ووراء الأشياء والأدوات المعلقة· أذناه لا تتحملان كل هذا الدق العنيف، يضع يديه عليهما··
(حولوا الناس إلى خدمٍ لهم·· هذه مثلُ مستنقعاتٍ بشرية يعصرون الناسَ فيها ويستخرجون الدمَ والمالَ، يقولون أنهم يساعدون الناس !··)··
اقتربَ من دكان أبولؤلؤة· كان الطرقُ عنيفًا فيها· دخانٌ ورمادٌ وصوتٌ محتدم· إن أبا لؤلؤة ينشدُ بالفارسية أغنية عملٍ، لكن صوته يختلطُ بضرباتِ المطرقة العنيفة على الحديد··
ناداه صارخًا، لكن الحديدَ كان غاضبًا··
حين هدأ ودخلت السكينُ الحمراءُ في المياهِ وأطلقت حممَها وبخارَها، سمع صوتَ منْ يناديه··
خرجَ وهو يحملُ السكينَ ذات الرأسين· تطلعَ فيها الهرمزانُ بحبورٍ· قال :
- كأنني أرى لحمَ عمر على نصليها··
- نعم·· أنظرْ كيف هي باذخة ورهيفة·· كأنها خُصصتْ لجسدِ ملكٍ أو خليفة·· !
سارا خارجَ الزقاقِ وجلسا على الأرض والسكينُ بينهما· تحسسها الهرمزان فوجدها لا تزال ساخنةً·
سأله بغتة بحدة :
- هل ذهبتَ إليه ؟
- نعم·· وكما قلتَ لي·· الدراهم الثلاثة البائسة··
- هل كان معه أحدٌ ؟
- نعم، خادم له··
- كان الأفضل أن تذهب إليه وهو على رأسِ جمعٍ من الناس··
تأوه أبو لؤلؤة وقال بحرقة :
- كأنك لا تريدُ أن يمسك شيءٌ !
غصَ الآخرُ بشيءٍ حاد· قال :
- ربما لا تنجح أنت، فأكملُ دورك !
- نعم، إن الاقترابَ منه صعبٌ، يبدو بلا حرس وبلا عيون، وينامُ في المسجد ويقرأ في دار الحكم، وربما ذهب حتى إلى حظيرةِ إبلِ الصدقة·· دون أن يكون معه أحدٌ·· لقد صرتُ أمرُ من هناك

مرارًا، وأنظرُ إليه، وفي كلِ لحظةٍ أقولُ يجب أن أهجمَ عليه الآن·· وأتراجعُ·· أفكرُ بمثلِ هذه الضربات، وكيف يغوصُ الحديدُ في اللحمِ الآدمي·· إنني لم أحاربْ قط·· !

- هذا كلهُ شيءٌ سهلٌ، وأنت تملكُ القلبَ الجرئ·· توغلْ بهذين النصلين وأنت تخرقُ حتى الصخر !

رآيا جفنية يتقدمُ نحوهما· وما أسرع ما لفتَ نظرَهُ الخنجرُ الغريبُ· هتف :

- بماذا تهمسان·· وما هذا الخنجر المذهل ! ؟

قال الهرمزان :

- إن أبا لؤلؤة يبتكرُ سكاكينَ جديدةً··

- خنجرُ ذي رأسين كأنه أُعدَّ لمذبحةٍ··

كان أفرادٌ نادرون يقطعون ذلك الدرب، ولكن شابًا قرشيًا سار قربهم فبوغت أبو لؤلؤة وسقطَ الخنجرُ من يده !

يتخبطُ جفنية في الدروب. مشى طويلًا ولم يصلْ إلى بيته. يكادُ يصطدمُ بالمارةِ العربِ ولا يشعرُ بآلامِ كتفيه. أيذهبُ إلى عمر ويقولُ له كل ما يضطربُ في نفسه ؟ أجل ينبغي أن يقوم بذلك ! لو سكتَّ لربما اختنق في نومه..

لكن ما أدراه أنهما يخططان لتلك الجريمة ؟ ولماذا يزجُ بنفسه في مثل هذه الأحداث الفظيعة ؟ لو أن ذلك حدثَ فسوف يندفعون نحوه ويتهمونه مع صديقيه.. أي صديقين هذين ؟ لم تعد لديه أية وشائج حقيقية معهما، ولكنهُ مربوطٌ بحبلٍ غير مرئي بهما، وهو لم يقطعْهُ، بل ذهبَ إلى أبي لؤلؤة ووجد الذئب هناك وإذا بسلاحٍ غريبٍ بين أيديهما، وإذا الحبل يتحولُ إلى سلسلة نارية !

فليذهب لعُمر !

يمضي وكأنه يتدحرجُ، حلَّ الظلامُ الدامسُ، وليس ثمة نجمٌ في السماء، وهناك غبارٌ ملأ الأعالي، إنه يقتربُ من المسجدِ وقد بدأت صلاة العشاء، والقومُ حشدٌ متلاصق، ولا شك أن عمرَ يأمهم..

فلينتظرهُ هنا !

لماذا يورط نفسَهُ مع هؤلاء ؟ إنه لم يندمجْ بهم، وهو مجردُ عبد، وهذه الصلاة انتهتْ والقومُ تفرقوا وعمر يمضي في الأزقة يتكشفُ أحوالَ الناس...

حدقَ فيه بدهشةٍ : هذا رجلٌ مقتولٌ لا محالة اليوم أو غدًا !

وهو إذ يمشي وراءه وجدَ بضعة رجالٍ ينقضون عليهِ فجأة !

حدقوا في وجههِ، قرأوا ملامحَهُ :

- لماذا تمشي وراء أمير المؤمنين ؟

- من هذا ؟

- إنه الفارسي الصانع العامل عند المغيرة..

- لماذا تدبُ وراء سيدنا عمر.. ؟

كان يتلعثمُ، وسمعَ عمر الضجةَ وراءه، فجاءَ مستطلعًا..

(هذه هي فرصتي، ولكن من يستطيع أن يمس هذا الرجل ؟ ! هذه فرصتي أو كارثتي لأطيحَ برأسي صديقي وربما برأسي أيضًا !).

عمر يحدقُ فيه بصرامة :

- ماذا تفعل هنا ؟

- يا سيدي كنتُ عائدًا.. إلى بيتي..

- فتشوه.. هل لديهِ سلاحٌ ؟

- إنه لا يلبس إلا ثوبه..

تطلعَ فيه عمر بعمقٍ غريب، (أهذا هو الرجل الذي يمخرُ أحلامي ؟ إنه شبحٌ من عظامٍ، جريدٌ نحيفٌ يشبه الإنسان.. وخائفٌ مرعوبٌ دون أن يفعلَ شيئًا.. لديه رسالة يريدُ أن يوصلَها في الخوفِ والظلام.. بائسٌ القتهُ عاصفةُ البحرِ والجثثِ في زقاقِ الرعب..).

- أتركوه أيها المؤمنون..

حين ذهبت قبضاتهم لم يشعرْ بأي ارتياح. أحسَّ أنهم يخنقونهُ أكثر والرجلُ العملاقُ حدقَ فيهِ بدهشةٍ وسار معه قليلًا ثم افترقا إلى زقاقين متضادين.

جاءَ في عمقِ الليل. ليس عليه سوى ثوبهُ، وفي الجيبِ الخنجر ذو الرأسين، باردٌ برودة صقيعية على جسمه.
الليلُ طويلٌ لا يريد أن ينجلي وصلاةُ الفجر بعيدة. وهذا الظلامُ في هذا الزقاق شديدُ العتمة، كأنه رمادٌ بعد حريقٍ طويل كثيف.
سيأتي لامحالة. إنه لا يتخلفُ عن صلاته. وإذا ذهبتَ أنت فثمة أبطال آخرون قادمون. سيُكتبُ لك المجد. أبو لؤلؤة الصانعُ الماهر، هو ليس عبدًا، هو قطعة من نورِ السماء، سرقَ قطعةً من نارِ الإلهِ ووضعها في قطعةٍ متوهجةٍ من الحديدِ وفي عظمٍ ولحمٍ شديدين..
تلك القوافل الطويلة من العبيد والجواري سترتاحُ الآن، وقد خرجَ صانعٌ من حفرةِ الرمادِ والنار ليضعَ حدًا لآلامهم. ستـُفك القيودُ عنكم يا أخوتي.. أبو لؤلؤة يتقدمُ من سيد البدو.. هذا الرجلُ الذي أعلن الحرب..
إن الفجرَ بعيدٌ، والظلامُ حالكٌ، والهدوءُ الشديد يعمُ البيوتَ، ولا حتى الديكة تصيح، والصحراءُ خلف البيوت نائمة، لا غبار يـُثار، ولا مطر يسقط، سماءٌ متجمدةٌ، لا نجومَ فيها، ولا نور ينبعثُ منها، وكلُ القوافل انقطعتْ عنك، ولا تزالُ الدماءُ ظاهرة على الرمل، والصيحاتُ لم تذبْ في الآفاق..
(إذا لم أفلحْ سيتقدمُ غيري.. كيف جئتُ إلى هنا ؟ كيف قطعتُ أوردتي ونسيجي بالحياة واخترتُ الفناءَ ؟ أنا الذي كنتُ أعبدُ قطعَ النقود.. لماذا أجلسُ الآن هنا أنتظرُ رجلًا لأقتله ؟ ! لن أعودَ إلى داري لأتحسس الصندوق.. لا أخاف من نظرة الهرمزان الساخرة ولا من شماتة جفنية.. لماذا امتلأت روحي بكرهِ العرب ؟ أمثل هؤلاء الناس يذلونني ؟ أأنا أعيشُ بثلاثة دراهم ؟ وبلا امرأة وبلا حرية ؟...).
الصبحُ لا يجيء، وعما قريب سينتشرُ النورُ ليكشفك، ويفضحك قرب الجدران، كأنك لفة من قماشٍ، وكتلة من حشائش وشوك، وتمثال من خوف وضعف، هيا أهرب قبل أن يسلطَ النورُ عليك السيوفَ، وقبل أن تفضحك رعدتك، لا فائدة من أن تصرخَ في نفسك، وتولولَ، فالرعبُ يسكنك، وحلمُ النقودِ يملأ روحك وأنت تحاول أن تمزق لحمك وعظمك...
(حلوٌ مذاقُ الخبز في الصباح، والغداءُ المليئ باللحم شهيٌ، فلماذا تتقدمُ إلى المذبح لتضعَ جسدك تحت السيوف ؟ سيمضي العمرُ طويلًا وفيه آمال كبيرة ولقاءات بالنساءِ وربما يظهر الأولادُ كالزهور، وتجثمُ في بيتٍ واسعٍ، ويجري أبناؤك نحوك، ألا تتسرع هنا ؟ ألا تقودُ نفسك إلى قضيةٍ فاشلة لا معنى لها ؟ فقط لتفرغَ حقدك وكرهك.. ألا يمكن أن تحصل على صديقٍ بينهم وربما حب وقضية مشتركة ؟ يستحيلُ أن أعودَ لحفرةِ الترابِ والسندان والمطارقِ الثقيلة والرمادِ والعظام المحطمة والآذانِ الصماء والدم والأشلاء وصرخات الموتى والجثث الطافحة على مياه الأنهار..!!)..
ها هو الفجر يتقدمُ على ضلوعِ السماء، وتبدأ قطراتٌ صغيرةٌ من الدمِ في السقوط على الأرض..
وها هي طلائعُ المصلين تتقدمُ بهدوءٍ في الدروبِ ذاهبة لمصيرها الفاجع..

ها هو عمرٌ يتقدمُ وحيدًا تبدو هيئتهُ العملاقة من بعيد، كأن هالة من نورٍ حوله، لم تحنيه السنون، ولا فتت في عضدهِ المسافاتُ والدبيبُ والجوع والفقرُ ولابطرته التيجان..
أهذا يُــقتل ؟ !
بل هو الوقت الملائم لقتله !
انتظرْ، أنتظرْ، ثمة صحبة تقترب منه..
يتحدثون وترتفع الأصواتُ كأنها انفجارات في سمعك. ألا يسرعون إلى المسجد ؟
يسمعُ عمرَ يقول :
- اعطوه من بيت المال..
لم يسمع لمن، بالتأكيد ليس له، فما يريده الآن هو الدم واللحم..
يرتفعُ التكبير وتـُشد القامات، وتلتحمُ الصفوفُ، وهو يتقدمُ بتوترٍ، يتحسسُ الخنجرَ، لا يزالُ لاصقًا بجسدهِ، ولكن الآن يَدهُ تأخذهُ، ويدخلُ المسجدَ، والصفوفُ منتظمة، والسجودُ يعقبهُ وقوفٌ، وقد تنتهي الصلاة، فليسرعْ، وعليه أن يتوجَهُ إلى الإمام، إلى البقعةِ الأمامية، كأنه يبحثُ عن موقعٍ خالٍ له، وهويعرف تلك القامة، الآن لم يعد ثمة وقت، ولا تردد، وها أنت تصلُ إلى الرجلِ المقصود، وتضعُ حدًا لحياته، تنزع الخنجرَ وتطعنهُ، ويحدثُ فزعٌ، وخورٌ للصفوف، وانشداهٌ، وتضربه ثانيةً، وينهارُ تمامًا، ويتركُ الناسُ الصلاة ويندفعون إليه، رجالٌ لايبالون بخنجرهِ، المهمة انتهتْ، فلو يتركونهُ يمضي لحالهِ، لكنهم يطبقونَ عليهِ ويكادون أن يهصورنه، وهو يضربُ كلَ منْ يقترب، من الأمامِ والخلف والجنب، يده تندفعُ في كلِ الجهات، وصوتُ عمر يرتفع (ما هذا ؟ ماذا حدث ؟) والأجسادُ الصلبة تهجمُ عليهِ بضراوة، ونصلاه يخترقان جلودَهَا وتندفعُ صرخاتُ ألمٍ فظيعة، وتتطوحُ الأجسامُ المذهولة المستغربة المتساقطة، والرؤوسُ تحدقُ فيه، والظلامُ ينقشعُ، وإذا بلفةٍ سوداء ثقيلة على رأسهِ، تخنقهُ، وينقطعُ الهواءُ، ويتيبسُ جسمهُ، ويجدُ الخنجرَ لا يزال معه، فيغرزهُ في جسمهِ.. ولم يكن يظن بأن هذا الخنجر الذي تعبَ في تشكيلهِ سوف يخترقهُ هو أيضًا، وراح الدمُ يتدفقُ والهواءُ ينقطعُ، والمشاعرُ تزول..

الفصل الأخير

كانت ضجةٌ كبيرة في المسجد انتشرت في ربوعِ المدينة كلها.
صرخة انتقلتْ من رجلٍ إلى رجل، ومن امرأةٍ إلى امرأة : (الخليفة عمر طُعن في المسجد ! جملةٌ أوقفت الأفواهَ عن الأكل، والعيونَ عن النوم، والأجسادَ عن الحب، والأولاد عن اللعب، وامتلأت الطرقُ بالناس، وحدقت العيونُ بكل غريب، وانتشر الرجالُ في الأزقة، وانفتحت الآذان للأخبار وانفطرت القلوبُ..
الصرخاتُ القليلة التي انفجرت في المسجد، أعقبها صمتٌ عميقٌ شاملٌ، وحملٌ للقتلى من على الأرض، وأخذهم لبيوتهم، ونقل للخليفة المصاب، واندفعت الأفواهُ في الصراخ والحديث والهمس والبكاء !
- من هذا القاتل المجرم ؟
- إنه أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة..
- لماذا فعل فعلته الشنيعة هذه ؟
- طعن الخليفة في أعماق بطنه وساح بخنجرهِ بجنونٍ بين المصلين الغافلين !
- كان يطالبُ عمرَ بزيادةِ أجره !
- كان يغمغمُ حين جاء إلى عمر شاكيًا بأنه سوف يصنع له آلةً يتحدث بها الناسُ...
- أكان يهددُ أميرَ المؤمنين ؟
- لقد نفذ الوغدُ تهديده !
- لم يتوقف إلا حين أُمسك به بشدة وأُخفي رأسه وأُفقد رؤيته فطعنَ نفسَهُ !
- يا للقوةِ الجبارةِ التي يملكها !
- عاشَ طوالَ حياتهِ بين الحديدِ والنار وصنعِ السيوف..
- من يعرف شيئًا عن الجريمة يخبر بها..
- يخبرُ بها من ؟ !
- من الحاكم الآن ؟
- لم يزل عمر أميرًا يا هذا !
- إن أبنيه عبيدالله وعبدالله قادمان..
- أي موقفٍ عصيبٍ يعيشانه..
- أنظروا إلى عبيد الله كيف يترنحُ.. !
- لكن عبدالله هادئ رزين..
- كيف يختلف الأخوان هكذا ؟ !
- إنها طبائعُ الناس يا فتى..
يحدقُ عبيد الله زائغ البصر بالشخوصِ أمامه، كأنهم في بحرٍ هائج، أو في سفينةٍ تترنحُ، والقبطانُ سقط في اللجةِ مضرجًا بدمائه، والقاتلُ مجهولٌ، والحقد نبتة شيطانية ظهرت فجأة لدى مهووس، صرخ :

- أيمكن أن يمد أحدٌ يده نحو عمر·· ؟ ! !
وراح يجيبُ ويتخبط :
- أقطعوا يدي هاتين إذا كان أساء لأحدٍ أو ضربَ امرأةً ·· يحاسبنا نحن·· ويمنعنا من الفاكهة إذا جاع الناس·· أيكون جزاء عمر هذا·· هذا الطعن الخسيس·· في بيتِ الله ؟ في المسجدِ وهو يصلي تاركًا الدنيا وراءه ظهره !
تقدم أخوه منه، لكن عبيدالله مضى في صرخته :
- من أي فجٍ أسود طلع هذا المجرم·· لو أنه لم يمت لقطعته بسيفي هذا·· وامتدت يده الآثمة لمصلين يضربُ بلا عقلٍ ولا هدى··
قال أخوه :
- أهدأ يا أخي لا بد من التروي والحذر في مثل هذه الشدائد··
- أي حذر يا أخي أبعد عمر يكون معنى للدنيا ؟ !
- نعم يكون هو فردٌ من الجماعة والجماعةُ باقية··
- عمر فرد·· مثل ياقوت وهارون·· وأبولؤلؤة·· ؟ !
- نعم فردٌ ولا تزال القضية لم يـُنظر فيها··
- أي برود لديك يا أخي·· أغربْ عن وجهي !
- أهدأ·· أهدأ··
وجاء رجلٌ مضطربٌ آخر هو عبدالرحمن بن أبي بكر، مفزوعٌ وتترقرقُ عيناه بالدموع !
راح يغمغمُ :
- عمر·· عمر·· لا غيره ·· يُطعن·· هل قامت القيامة ؟
حدق فيه عبيدالله وصرخ :
- طعن عمر بن الخطاب·· عبدٌ حقير ·· لا يساوي قشرة··
- إنني رأيتُ هذا الرجل هذا الصانع الباطش الحقود ·· في زقاقٍ ما··
ارتجفَ عبيدالله وحدقَ الحضورُ بشفتي عبدالرحمن· نهض عبيدالله وأمسكه من يده :
- ماذا تقصد·· في زقاق·· ؟ !
- نعم، نعم · إنني أتذكر الآن تلك الصورة كأنها مطبوعة في رأسي·· لقد مررتُ بذلك الزقاق وكانت فيه عتمة لكن لم يزلْ ثمة ضوء ·· وحتى الدق العنيف للصناع كان يؤلم أذني·· وكان أبو لؤلؤة هناك·· وكان··· الهرمزان·· أجل كان·· الهرمزان··· معه··· وكان ثمة شخص ثالث·· شخص ثالث·· هو صانع معه··
- أهو جفنية ؟
- أجل هو نفسه ·· وكانوا يمسكون بخنجرٍ غريب·· لم أر مثله أبدًا·· خنجرٌ ذو رأسين··
صاح بعضُ الحضور، وحدثتْ غمغمةٌ رهيبة، وشقَ شخصٌ ما الحشدَ، وهو يحملُ شيئًا ملفوفًا بخرقةٍ، وحين فتحها كان الخنجر ذو الرأسين، وبقايا الدم تملأه··
وحدثت صرخاتٌ فظيعة !
صرخ عبيدالله :
- رأيتهم ثلاثتهم وهذا الخنجر الملعون معهم ؟
- سقط الخنجرُ من بين الأيدي حين رأوني··

- إذن هي ليست قصة ثلاثة دراهم ·· ؟ ! !
- لا أدري بذلك·· ولكن هذا الخنجر والثلاثة أشخاص كانوا معًا!

لم ينم الهرمزان، راح يتقلبُ طويلًا.
وجثم في داره، وأرهف السمع والمدينة تضجُ بالأصواتِ أولَ الليل ثم تهدأ هدوءًا شديدًا. وليس ثمة نأمة، وطال الأمدُ بالفجر، فهو بعيدٌ، وتمنى لو كانت لديه فرس ما، ودربٌ مفتوحٌ يمضي نحو الآفاق البعيدة حيث لا يسمع كلمةً عربية، لكنه الآن محصور بين الجدران، وعما قريب أما أن يسودَ الصمت طويلًا أو تنفجر ضجةٌ هائلة..
ولا يدري كيف سيتقبلُ القومُ الحدث، أيكتفون بأبي لؤلؤة أم يفكرون أبعد من ذلك ؟ لم ينتبه أحدٌ إلى أحاديثهم ولا إلى عروقِ الكراهية العميقة التي تغلي في روحه، أناسٌ سذج، أعطتهم القوة العضلية ملكية العالم..
ولكن لماذا هو خائفٌ وغيرُ قادرٍ على النوم وكان النومُ يأتيه سهلًا ؟ لم لا ؟ لقد صبرَ طويلًا على أبي لؤلؤة ودخلَ في حفرهِ وأخرج عقاربَهُ النائمة من تحت التراب، وهذا الأمي العنيف البخيل جعله خليلًا ولو كان في فارس لعلقهُ على أحد الأسوار، جعله أكثر من أخٍ، وراح ينفخُ في غرورهِ الدنيءِ، ويصوره كبطلٍ مغمور، حتى توهم إنه هو..
ها هو الفجر يقتربُ وثمة ضجةٌ خافتة من مكانٍ من ما..
ربما قبضوا عليه وعجز عن تنفيذ مهمته !
ربما عذبوه وأشار لهم بالمحرض على فعلته، وهم الآن في طريقهم الآن نحو بيته !
نهض وهو يتحسس الاشياء، ويرهف السمع إلى الطريق، فلا يسمع سوى دبيب الناس المتجهين للصلاة، وروائح طبخ الفطور في عمق الفجر والهدوء، وهو فقد شهيته، أيكون هذا آخر يوم في حياته ؟ !
إنه يشعر بأن أجله قد حان. وأن هذا الصباح مختلف كثيرًا عما عهده من قبل.
أيكون للموت رائحة ؟ كم نشر الموت، وهيأ للذبح، ولكن مثل طعم المؤامرة لا يوجد. إن لها رائحة جثة تعفنت طويلًا، وشكل الماء وقد استحال دودًا، والصداقة وقد تحولت إلى خنجر في الظهر..
يكاد يسقط بين الأشياء، ويقف عند الباب، وهو لم ير هذا الخشب بمثل هذه الدقة وكيف هو صلب، وعمر أعطاه كل هذه الأدوات.. وأخفاه عن أكف الأرامل، ولعنات اليتامى، وأشبعه في هذه الحجر..
لماذا فعل ذلك ؟ أكان ساذجًا ؟ وضع الحية في جيبه ؟
الصمت عميق في الخارج.
ليس ثمة سوى نحنحنة وتأوه مكتوم.. ؟ !
آه.. ثمة أصوات الآن. يبدو إنه رجل وامرأة.. إن الرجل قادم من بعيد كما يبدو، والمرأة ستوقفه..
- ماذا حدث ؟ ما هذه الضجة..
- عمر يا مريم.. عمر !

- ماذا به ؟
- لقد طـُعن·· طعنه مجوسي·· !
- يا ويلاه··
وسمع شيئًا يسقط·
- أنهضي يا أختاه·· ما بك ؟
وانفجر بكاءٌ حادٌ في الزقاق·
أكان لا بد أن يخرج ويهتز غضبًا ويدعي، لكن فرحة غريبة قوية ملكت نفسه· إذن قام الرجلُ بفعلته، ولم يندفع أحدٌ إلى بيته، وصمت أبولؤلؤة· أيكون صمته مؤقتًا أم يكون إلى الأبد ؟ ليته إلى الأبد وتضيعُ كلُ الخيوط·· ؟
إن انتشارَ السكون في الزقاق دليلٌ على أنه في أمان !
لكن الرجلَ قال إن عمر طـُعن ولم يقل قـُتل أو مات، إذن إنه حي لا يزال، في حين إن ليس ثمة كلمة عن أبي لؤلؤة ؟
ربما قد عاش عمر وقـِيد إليه وأُستجوب بشدة وقطعَ عمر رأسه وهو يسخر من أصحابه الذين أعطوه الأمان !
لا بد أن يخرج·· لا بد أن يستطلع الأخبار·· لكن قد يُشكُ فيه· قد تنفجر كلمةٌ ضده فيندفع القوم لقتله· لكنه يتحرق شوقًا للمعرفة·· ما هو مصير ابي لؤلؤة ؟ كيف هو الآن ؟ تكلم عليه·· لا بد أن يستدرج بعض الناس ليحدثوه عن أهم الأشياء·· هو مصيره يقرر في هذه الدقائق··
يفتح الباب، يطل فإذا الطريق خالٍ··
يا للأمان·· !
يمشي بحذر، يرى بضعة أشخاص قادمين· يقف· يقتربون منه ولا يأبهون إليه، فيسأل :
- يا أخوتي·· ماذا حدث ؟ يقال أن عمر ضـُرب·· ؟ !
يحيطون به ويحدقون فيه بتوتر :
- غلامُ المغيرة·· طعنه وهو يصلي·· هذا المجرم··
- لعنه الله·· أيمكن أن يفعل أحدٌ ذلك ؟ ! !
وينفعل أحدُ الرجال :
- ألم تعرف·· إن أبا لؤلؤة قـُتل·· لكن عمر نجا !
أغتم ولكن أظهر فرحةً زائفة :
- الحمد لله !
إذن لا أحد يشك فيه، وكتب له الإله حياةً جديدة، وجاءته صرخة عنيفة من مكانٍ ما :
- يا هرمزان·· !
من يريده في هذا الصباح ؟ ثمة رجلٌ يندفع إليه· لا يتبين ملامحه ولكنه يحملُ سيفًا ويتضح شيئًا فشيئًا· إنه عبيدالله بن عمر ؟ يندفع غاضبًا متفجرًا، وصار الزقاق مسدودًا أمامه، والخطوات العنيفة تقترب بشكل غريب مذهل، ولم يعرف ماذا يريد، ولا هو قادر على فهم الموقف، وهو لا يملك سلاحًا منذ أن أُسر، وحتى السكاكين مراقبة في بيته، ولا بد أن يكون أحدٌ ما قد ربط بين تلك الخيوط الخفية المتوارية، وهي تبدو في وجه عبيدالله، أو لعل أبا لؤلؤة قد فاه بكلمات، ولكن·· ذلك العربي القرشي الذي رآهم ؟ الآن أتضح كلُ شيءٍ !

كان جفنية يداعب أبنته عندما رجعت زوجته من الخارج وهي تبكي.
تطلع إلى سحابةٍ من الحزن والدموع فارتاع :
- ماذا جرى.. أيكون قد جرى شيءٌ لعمر...
حدقت فيه برعب :
- كيف .. كيف.. عرفت ؟
ارتبك بشدة، فمنذ البارحة وهو تعبٌ، ويحدق في رماد الليل، ويحقرُ نفسه ويصرخ بها : لماذا لم يتكلم ؟ ما الذي دعاه في تلك اللحظات الفاصلة أن يسكت ؟ هو الخوف والطمع والكره الدفين لكل هذه البلاد..
كان يلح (لماذا أتدخل ؟ ماذا فعلوا لي بل قل ماذا فعلوا بي ؟ !).
والآن جاءت لحظة الحقيقة. ذهب الرجلُ الذي كان يحميه. الربان الذي يقود السفينة أطاحت بموجة عاتية، ولن يكون لوجوده أي قيمة..
قالت زوجته :
- أكنتَ تعلم.. أكنت مشاركًا في هذه.. الجريمة.. الفظيعة.. ؟ !
صرخ :
- لم أكن مشاركًا.. أبدًا.. أبدًا..
- لكنك كنتَ تعلم.. ؟ !
- أجل..
- وسكت ؟
- نعم.. ترددتُ كثيرًا.. قلت إن أبا لؤلؤة.. جبان.. أعرفه يموت على الدرهم.. فكيف سيضحي بحياته.. ويتقدم من خليفة العرب.. ويتجرأ على المس به.. كان هذا غير ممكن.. ولهذا لم أتجرأ.. فلعلهم يقومون بقتل أبي لؤلؤة.. تهت بين أمرين غريبين محيرين.. عشتُ مع هذا الرجل، أكلت معه، ونمت في حجرته.. ثم أقوم وأبلغ عنه.. ؟ !
- ولكنه فعلها بل وقتل أناسًا أبرياء عدة وهو يحاول النجاة بنفسه..!
- يا إلهي..
- عدة آباء وأخوة.. ذهبوا للموت وهم يصلون..
- أي وحش كان يختبئ بذلك الجسد.. كنت أراه أنسانًا عاديًا بسيطًا، لا يقتل قطة، وحين يذبح شاة يوجه عينيه إلى جهته أخرى، ويكاد يصم أذنيه عن أنينها.. شيء أشبه بكابوس..
- لكن عمر لايزال حيًا..
- لا يزال حيًا. ؟ الحمد لله !
- وأنا لن أستطيع العيش معك بعد الآن..
- ماذا تقولين.. ماذا فعلتُ كنت أدافع عنا.. أدافع عن حياتنا..
- بل كنت تابعًا للهرمزان.. هذا الرجل أسرك بعطاياه وخبثه.. قلت لن أفشي أسراره. ربما عاد لبلدنا.. ربما غدا ذا نفوذ..

ودخلت الحجرة الداخلية٠
(في يوم واحد خسرت صديقي وزوجتي٠٠ أجل كانت لي أحلام غريبة٠٠ الافلات من هذا الأسر ومن البلد الغريبة٠٠ كانت تلك صحبتي٠٠ كانت أملي٠٠ لم أستطع أن أحب عمر إلى درجة التضحية٠٠ توقفتُ في منتصف الطريق بين دروبٍ عدة٠٠ ما هذه الضجة ؟)٠
أصغى للصراخ في الخارج٠ هذه زوابع طعن عمر ولا شك٠ أناس يبكون ويصرخون٠
فجأة انهمر ضربٌ عنيف على بابه، وانكسر، وظهر رجلٌ يمسك سيفًا وعاجله بضربة عنيفة، واندفعت طفلته نحوه، فأصابها السيف أيضًا٠٠

كان عمر يرى صورًا مشوشة أمامه٠ الألم الفظيع في جسده لم يطفئ روحه، وراح يزيح الظلال والبقع المعتمة، يسأل عن قاتله، وعن الواقعة، ويستعيد شكل ذلك الصانع الفارسي، وراح يتذكر بصعوبةٍ بماذا أساء له٠
ودهش كيف تركه يتحرك بسهولة حوله (لم أعرف٠٠ أي حقدٍ هائلٍ يحمله !٠٠ ولكن المصيبة أنه قتل أناسًا لا علاقة لهم بالخصومة معي٠٠ هل كانت الخصومة مهمة٠٠ ؟ أناسٌ كثيرون يحيطون بي٠٠)٠٠
قال أحدهم :
- إلى الجنة يا عمر٠٠
يرد :
- ما أدراك٠٠ هل أنا لم أخطئ أبدًا ؟ من يدري حكم الإله القاطع؟٠٠
يصيحُ آخر :
- إن الكل راض عنك٠٠
- ما يدريك يا أخي٠٠ ؟ لعل من يكرهني٠٠ صامتٌ٠٠ الآن ٠٠ لقد عملتُ باجتهادي٠٠ وقدر جهدي٠٠ ولعل أناسًا٠٠ يأتون٠٠ يخالفونني٠٠ ويكونون أفضل٠٠ مني٠٠
الدماء تتدفقُ منه، وطبيبٌ يُستبدل بطبيب، وسوائلٌ عديدة تدخل في فمه وتخرج قانيةً، ولم يعد الألمُ يطاق، ولكنه راح ينصتُ إلى الهمسات الخافتة في المجلس، كلمةٌ منفجرةٌ ترنُ في سمعه، ثم يكاد يغفو، ويصحو على كلمات متقطعة هاربة، (سيذهب إلى مكان صاحبيه)، النصلان جاءا بسرعة مدهشة، وفي لحظةٍ عم الارتباك وكان القاتل مذعورًا مضطربًا هائجًا لكن الرجال أطبقوا عليه،(هذه هي النهاية إذن، حياةٌ حافلة، مفتوحة للأسئلة٠٠)٠
يسمعُ الهمسَ بوضوح الآن :
- عبيدالله هجم على الفرس وقتل منهم٠٠
كاد أن يعتدل من رقدته :
- ماذا تقولون٠٠ لم أمت بعد٠٠ فمن يقرر عني٠٠ عبيدالله ماذا به!!
حدقت به جماعةٌ وتجرأ أحدٌ وقال :
- عبيد الله أبنك أستل سيفًا وراح يقتل نفرًا من الفرس٠٠
- ماذا٠٠ كيف يتصرف هكذا ؟ من سمح له ؟٠٠ يقتلُ الناسَ ؟ !٠٠
- إن القاتل أبو لؤلؤة فارسي٠٠ وهؤلاء مجرمون٠٠
- كف عن ذلك٠٠ أخزاك الله !
-٠٠٠
أذهبوا وأمنعوه وأحبسوه٠٠ هيا أنهضوا٠٠
مع صرخته تدفق الدم بقوة٠ الألم يتسعُ ويزداد، هذه مصيبةٌ لم تخطر باله أبدًا، أن ينطلق أحد أبنائه بحماقة في الشوارع ويقتل، بدأ جسمه كله يرتعش، ماذا حدث ؟ من أصاب ؟ (كنتُ أشك في

أعماله·· لكن أن يثور بهذا الشكل ؟·· ماذا بقي لدي من أموال·· الناس ؟·· لا شيء·· من سيكون بعدي·· ؟ كيف أوصي بواحد وأنا بهذه الحال··)··

الليل مثل النهار، والأكل مثل الجوع، وهذا الدم يتسللُ إلى الخارج ويتركهُ وكان معينهُ، والذكرياتُ تتدفقُ مثل البروق، ولا تثبت على حال، والوجع شديد، وها هي الشام التي دخلتـَها، وهذه هي البريةُ التي انتظرتَ بها رسلَ العراق، والآن ذهبت الهواجس والمخاوف،) علي بن أبي طالب أفضلهم، لكن الكثيرين ينافسونه·· ماذا سيحدث بعدي ؟)·· هل هي مكيدة·· الآلام في كل مكان·· من هؤلاء الناس ؟ إنهم يتحدثون ويرفعون أصواتهم وهو لايسمع·· لا أحد يترك موقعه·· عليك بالثبات في الثغور·· ثمة رجل يقترب منه·· كأنه عثمان بن عفان·· يقول :

- تم إمساك أبنك··

- ماذا·· فعل·· كم قتل·· من··· هم ؟ ! !

- الهرمزان·· وجفنية·· وأبنته الصغيرة·· وبضع مارة·· فرس·· لم يكن في طوره ووعيه··

- أبني···

- نعم ماذا تقول يا أمير المؤمنين·· نحن ننتظر كلمتك ؟ إنه رجلٌ خرج عن طوره ووعيه··

- أبني عبيدالله فعل·· ذلك ؟

الأمل يسحبُ الكلمات، هوة كبيرة في أمعائه، والجفاف اندفع إلى عينيه ولسانه، لم يعد ثمة ماءٌ في فمه، حشدٌ كبير حوله، وثمة بكاءٌ عنيفٌ يندفع··

- لا تبكوا···!

كانت صرخةً من صرخاته المميزة التي يعرفونها فحدقوا فيه لعله يسترد عافيته، لكنه غاب عن الوعي لحظةً وانتبه، أبنه عبيدالله محبوس الآن وهو قاتل··

انفرجت شفتاه المتشققتان قليلًا، وهمس :

- ضعوا··

أكان يتصور أن يمسك ابنه بقوة :

- ضعوا عليه الحد·· كيف·· يقتل·· من·· لم·· يحاكم·· ولم·· يدن·· اقتلوه !

تشهد وقرأ مرتجفًا متقطعًا ثم غاب كليًا عن الوعي·

(إنتهت)

سبتمبر 2006

صدر للمؤلف

مجموعات قصصية :

لحن الشتاء، قصص، دارالغد، 1975، البحرين·
الرمل والياسمين، قصص قصيرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982·
يوم قائظ، دار الفارابي بيروت، 1984 ·
سهرة، المركز الثـقافي العربي، 1994·
دهشة الساحر، دار الحوار، حلب،1997·
جنون النخيل، دار شرقيات، القاهرة، 1998·
سيد الضريح، وكالة الصحافة العربية، مصر،3002·

روايات :

اللآلئ، دار الفارابي، بيروت، 1981·
القرصان والمدينة، دار الفارابي، بيروت، 1982·
الهيرات، رواية، دار الفارابي، بيروت، 1983·
أغنية الماء والنار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1989·
الضباب، دار الحوار، حلب، 1994·
نشيد البحر، المركز الثـقافي العربي، 1994· طبعة ثانية في الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية، عدد 71، أكتوبر، 2003·
الينابيع، جزء أول، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1998·
الينابيع، جزء ثان، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، 2000·
الأقلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002·
ساعة ظهور الأشباح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004·
الأعمال الروائية غير الكاملة، الجزء الأول : اللآلئ، القرصان والمدينة، الهيرات، أغنية الماء والنار، طبعة تجديدية للروايات الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة 2004·
رأس الحسين، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2006·

الدراسات النقدية والفكرية :

الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي، دراسة نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004·
الاتجاهات المثالية في الفلسفية العربية الإسلامية، صدر الجزء الأول والثاني معًا بمجلد واحد، في ستمائة صفحة، ويعرضُ فيه المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية، وهو صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 2005·

الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، الجزء الثالث، وهو يتناول تشكل الفلسفة العربية عند أبرز ممثليها من الفارابي حتى ابن رشد.

الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، الجزء الرابع تحت الطبع، وهو يتناول تكون الفلسفة العربية الحديثة في مصر خاصة والبلدان العربية عامة، منذ الإمام محمد عبده وبقية النهضويين والمجددين ووقوفًا عند زكي نجيب محمود ويوسف كرم وغيرهما من منتجي الخطابات الفلسفية العربية المعاصرة.

نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، الدار العربية للعلوم، 2007.

THE MARTYR OMAR IBN AL-KHATTAB

رواية
NOVEL

عمر بن الخطّاب شهيدا

أسرة الأدباء والكتاب
البحرين